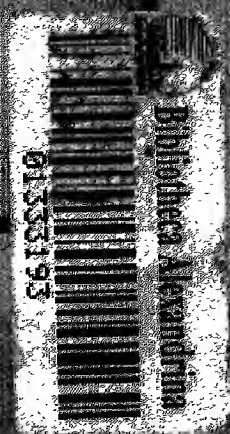
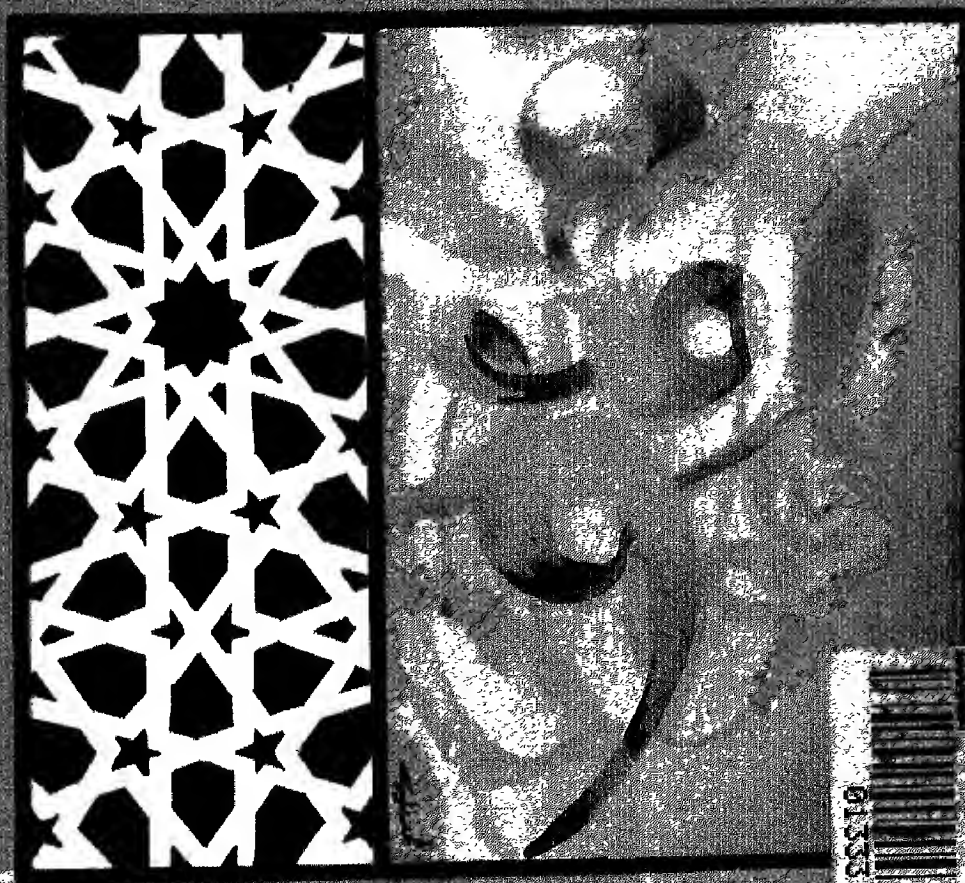


رابعة العدوية

إمامة العاشقين والمحزونين

المطبعة

الخامسة



دكتور محمد المنعم الحفني

الغابطة الخاشعة

رابعة العدوية

إمامة العاشقين والمحزونين

الناشر : دار الرشاد

١٤ شارع جواد حسنى - القاهرة

تليفون : ٣٩٣٤٦٠٥ - ٢٩٩٢٦١٥

رقم الإيداع : ٩٥ / ٩٦٣٤

الترقيم الدولى : 977-5324-19-X

طبع : آسون

العنوان ٤ عطفة فيروز - متفرع من إسما عيل أباطة

تليفون : ٣٥٤٤٣٥٦ - ٣٥٤٤٥١٧

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : ١٤١١هـ - ١٩٩١م

الطبعة الثانية : ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

تصميم الغلاف : محمد فايد

المائدة الخامسة

رابعة العدوية

إمامة العاشقين والمحجّرين

دكتور عبد المنعم الحفني



إلى أخى وصديقى وأستاذى المفكر الكبير أنيس منصور
بعض هديّك وغرّس تعليمك

عبد المنعم الحفنى

★★★

قلوب العارفين لها عيونٌ ترى ما لا يراه الناظرون
والسنة بسيرٍ قد تنجى تغيبُ عن الكرام الكاتبين
وأجنحة تطيرُ بغير ريش إلى ملكوت رب العالمين
فتسقيها شراب الصدق صرفاً وتشرب من كأس العارفين

★★★

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

ما زال نجم إمامة العاشقين والمحزونين ، العابدة الخاشعة رابعة العدوية — ما زال بازغاً ، وما زالت المؤلفات تتابع عنها ، والمساجد تقام باسمها ، تبركاً وتيمناً ، ولقد نفذت الطبعة الأولى من هذا الكتاب وبسرعة عجيبة ، واقتضى الأمر طبعة ثانية ، وتأتى هذه الطبعة منقّحةً وعلى خير وجه إن شاء الله .

فالحمد لله على ما أعطانا من نعمة العقل والتمييز ، وفضلنا على كثير من عباده بنعمة الشكر واليقين ، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى ، والله أدعو أن يتم علينا تقواه ، وأن نقول القول السديد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، يُصلِح أعمالنا ويغفر لنا ذنوبنا ، ويُئَلِّنا الفوز العظيم بطاعته ورسوله ، ويُعِنَّا على حمل الأمانة ، ويتوب علينا ، إنه بنا غفور رحيم .

عبد المنعم الحفنى

مقدمة الطبعة الأولى

رَبِّ يَسِّر

★★★★

. من الشخصيات المحورية في التصوف الإسلامى رابعة العدوية ، وهى صاحبة فضل وفكر ومدرسة ، والقراءة في الشخصيات النبيلة والعظيمة تُعدى بالذبل والعظمة . والتصوف غذاء روحى ، ورابعة العدوية روحانية وراهبة من راهبات الفكر الصوفى الأصيل ، وهذا الزمن الذى نعيشه ما أحوجنا فيه إلى جرعات روحية تحيي فينا موات الآمال ، وتنزل بها علينا السكينة والطمأنينة ، وهذا زمان القلاقل والصراعات وقيل فيه إنه عصر القلق ، ويبدو أن طابع الشخصية العصرية صار هو الطابع العُصابى ، وما أكثر ما يحتاج شبابنا وشيوخنا ونساؤنا ورجالنا إلى مَنْ يذكّرنا باستمرار بالقيم الروحية ، ويوعّينا بماضيها ، ويؤمّلنا في غدٍ أكثر إشراقاً ، ونحن لا يمكن أن نكون خُلُقنا عبثاً أو طُرِحنا في الوجود أطراحاً من غير غاية يترسمها الخالق ولا هدف ولا علّة.

والإنسان مقدور عليه أن يعيش ، ويستشعر المسئولية ، ويقبل بالواجبات . وهو يحتاج للآخرين ، ولكنه معهم في شِقَاق وعداء ، والآخرين بالنسبة له هم الجحيم ، وإن كان يحاول باستمرار أن يجعل وجوده معهم في وثام ، ويجاهد مع ذلك أن لا يفقد نفسه وتنميع ذاته ، ويعمل على أن تكون له استقلاليته . والآخرين يريدونه تابعاً وأن يزيّفوا وجوده . ورابعة العدوية وجودها أصيل لم يتزيف ، وفكرها استقلالى ، وذاتها متوحدة ، وما أحرانا أن نضع أعيننا على أمثالها ، وأن تصافح آذاننا كلماتها ، ونتمثلها ونحن نصنع حياتنا . والقراءة في رابعة وعنّها نَسْمَةُ نَسْتَرُوحها ونحن نعانى من هذا اللهيب المتقد الذى تلفحنا به صُحُفنا اليومية والإذاعات من حولنا ، والذى تحترق به أفئدتنا ويوغر منا القلوب بالحقد والضغينة ، والحديث عن رابعة وفلسفتها وشعرها يلذ للمتعبين والحيارى .

وما أجددنا أن نلتمس كتاباً من الكتب الحافزة بين الحين والحين ، كلما ادلهمت أمورنا ، واغتمت لها نفوسنا واضطربت منا الأفكار ، وقد اخترت أن اقرأ كتاباً للدكتور عبد الرحمن بدوى - وهو من أساطين مفكرينا - عن رابعة العدوية ، باسم « شهيدة العشق الإلهي » ، فكأنى لم اقرأ هذا الكتاب من قبل ، وكأنى لم أعرف هذا المفكر العملاق معرفتى لأبى أو أكثر ، ولقد تتلمذت عليه وأخذت عنه ، وأسلوب الدكتور بدوى جزل ومُشَوِّق ، وانتقاؤه للألفاظ انتقاء العالم باللغة وأسرارها ، فللمعانى ما يناسبها ويقوى على حملها من الألفاظ التى تزيد من وضوحها ولألائها ، وهو يسوق الأمثال ويحلّق بالقارىء فى آفاق المعرفة ، ويختار الحكايات من مختلف الثقافات ، ولا تملك نفسك كقارىء إلا أن تعجب من مهارته وعلمه وأستاذيته.

وأنت إذ تجرى بعقلك على السطور ، تتابع أفكاره وتلاحق صوره ، تحب منه تشبيهه للبصرة حيث ولدت وعاشت وماتت رابعة العدوية ، بأنها قينسيا العربية ، ترف كالآل الناذر بالتهاول ، فى رؤى الساغبين اللاغبين الضاربين إليها من أعماق الفيا فى قلب الجزيرة العربية ، حتى إذا بلغوها وأناخوا الإبل عند المرید ، دخلوا المسجد الجامع من باب البادية ، فبهرتهم دقة الأساطين وبراعة الفن ، وجلّوا بأبصارهم المغيرة بالرمال إلى النقوش المترفة ، فاستشعروا مساً مما ينتظرهم على الجانب الشرقى ، حيث السفن الزاهية تنحدر من الشمال قادمة من بغداد فى نهر معقل ، والجوارى المنشئات فى الخليج تمخر عباب نهر الأُبلة متصاعدة فى وقار وقد وقُرت بأثمن السلع المحملة إليها من الهند والصين . وتلك هى البصرة فى العهد الذى عاشت فيه رابعة . كانت نقلة بين البادية والحضر ، والخشونة الزاهدة الصلبة القاسية الإيمان ، والترف الناعم الهائم فى أوداء القداسة الشهبانية ، ومن ثم جاءت مزيجاً من هذين الطرفين المتباعدين فى تخطيطها ومساق الحياة فيها ، فكانت روحها مسرحاً لمأساة هذا الازدواج المتوتر العنيف فى طبيعتها ، وبهذا الاستقطاب طبعت نفوس ساكنيها ، ففى روح كل تسكن طبيعتان متعارضتان ، إحداها تتلمس غذاءها من قوت الحواس ، والأخرى تستشرف إلى قوت القلوب .

ولن تستطيع إحداها القضاء على الأخرى بل سيظل التعارض قوياً عنيقاً ، وفى عنفه

يقوم ذلك التوتر الحى الذى يجعل من حيواتهم مصدراً للتشويق لا يقل فى قيمته عن مذاهبهم ، فى جانب الحياة اللاهية التى عمرت بها القنوات والمتاجر مما كان خير إطار لقصص ألف ليلة وليلة ، كانت هناك الرُّبُط التى تشيع فيها الزهادة والقداسة ، وإلى جانب الأسواق الصاخبة بمشاغل المادة وشئون الدنيا كانت المساجد والمكتبات العامة بمثابة معابد الفكر الرفيع ، ففى ساحة السوق حيث ضجيج الأعمال وعقد الصفقات واختلاط الأجناس وأسباب الترف ، كان يقوم المسجد الجامع الثانى ، فإذا تزود من بالسوق من أقخم السلع أوى إلى المسجد فطاف على حلقاته ، فهنا حلقة النحويين واللغويين يحتدم فيها الجدل الصارخ حول شاردة من شوارد اللغة ، قذف بها فى جمعهم كوفى جاء مَحْمَلاً بأسلحة أهل بلده ، وهناك مجلس الحسن البصرى تسوده رهبة ذلك الزاهد الجليل وهو يلقي مواظله الضاربة فى فياق الزهد ، فيستدرّ الدمع من مآقى الحاضرين ، أو يستحيل إلى مجلس ذكر تتردد فيه الأذكار الصافية والأدعية الناضرة ، أو تثار فيه مسائل من التوحيد سرعان ماتشيع الحرارة فى هذا الجو الرقيق . فإذا ماجنَ الليل وسكن الأحياء وجُستَ فى المدينة ، ترامت إلى مسامعك أنغام اللهو العنيف فى نفس الوقت الذى يقرع أذنك فيه تضرعات المتجهدين القانتين ، وهنا اللاهون يمخرون بزوارقهم الزاهية فى مياه تلك القنوات المتشابكة يعزفون ويعربدون ، وهناك فى زاوية أخرى ترى العابدين سادرين بين المقابر يستهلّمون الموت والقبر أفكاراً وموضوعات للتأمل الحزين والعظمة البالغة والعزوف عن الدنيا . وهنا أمثال ابن أبى عيينة يقضون الليالى البيض فى أحضان الشهوة الآثمة ، وهناك أمثال رياح بن عمرو القيسى ممن لم يكن يعرف غير البكاء والتهجّد والتضرّع والصراخ من أعماق الهاوية إلى الله !

وبمثل هذه المقدمة الشعرية يستهل الدكتور بدوى بحثه ، وله دائماً مصطلحاته وألفاظه من مثل التوتر الحى ، والذات الوجودية الزاخر باطنها بممكنات التفتح على المجهول . وهو دائماً فى كل كتاباته المبدع ، وكان كتابه عن رابعة إبداعاً أيما إبداع ، ورسم صورة للبصرة لانملك ونحن نراه فيها يؤكد على جانبى الصراع ، وعلى التناقض فى البصرة البلد والناس ، إلا أن نخمن أن ذلك نفسه هو رأيه أيضاً فى رابعة العدوية وحياتها وجهادها النفسى والفكرى ، فهى عنده الصوفية التى بدأت حياتها وقد أوغلت فى الإثم

والحياة الحسية حتى التهب منها الجسد فتطهرت روحها في عذاباته ، فهل كانت رابعة كذلك ؟ وهل كانت في مبتدأها بائعة هوى تهفو لأن تتوب ، فلما كان أوان التوبة أنابت وأصلحت وعاشت متبثلة ، وصارت من أعلام التصوف ، وصاحبة مدرسة فيه ، ورائدة في مجال كانت فيه المعلمة لأفذاذ الرجال ؟ هل رابعة كذلك ؟ .

أسئلة لابد أن تُحسم ، لأنه لم يعرف عن بائعات الهوى أن من الممكن أن يتبن ويبلغن في توبتهن حد التصوف وهذه الدرجة الرفيعة فيه ، حتى لتكون الواحدة صاحبة مدرسة فكرية ! وهل منهج الاحتمال والترجيح والتأويل المسرف الذى اتبعه الدكتور بدوى هو المنهج السليم الذى يمكن الركون إليه ونحن نُؤرخ لأمثال رابعة ؟ ولربما ما الجأ الدكتور بدوى إلى هذا المنهج قلة المادة التاريخية عن حياتها ، وتضارب الآراء بشأنها ، ولربما أيضًا أن هذا المنهج نفسه هو ما يناسب الدكتور بدوى ليطرح نظريته في رابعة ، مدعماً بها مذهبه هو نفسه في الفلسفة ، والملاحظ أن اختياره للشخصيات التى يؤرخ لها فلسفياً هو اختيار ليس من فراغ ولكنه مقصود ، وذلك أنه من خلال هذه الشخصيات فإنه كان دائماً يشرح فلسفته ويزيدها وضوحاً . ويبدو أنه من اللازم قبل كل شيء أن نزيد القارئ معرفة برابعة ، بأن نورد أقوال المؤرخين فيها وفيما استحدثته في الفكر الإسلامى ، مما يروى عنها من حكايات وأقوال ومأثورات ومحدثات مع كبار الصوفية من المشايخ المشهود لهم بالصلاح ، ومناقشات مع أعيان البصرة ومفكرها ، مما يجعلها شخصية أسطورية يختلط فيها الخيال بالواقع ، فهل يكون هذا الكتاب الرائع للدكتور بدوى أيضًا كتاباً قد اختلط فيه الخيال بالواقع ؟ سنرى ..

عبد المنعم الحفنى

★★★

الفصل الأول

رابعة في كتابات الشرق والغرب

- ١ -

في الشرق

كان الجاحظ أول من كتب مؤرخاً لرابعة . والجاحظ (١٦٣ - ٢٥٥ هـ) عاش في البصرة في زمن قريب من زمنها ، وله التصانيف الكثيرة ومنها الحيوان والبيان ، والتبيين ، وكان من أئمة الأدب ومن شيوخ المعتزلة ، وأطلق عليه بعضهم اسم معلم العقل والأدب ، ولربما سمع الجاحظ برابعة في صغره ، ولربما رآها رأى العين ، ولاشك أنه سمع عنها ممن رأوها وعابنوها من المفكرين والأدباء ، وهو يذكرها فيقول : ومن النساء (يقصد من أهل البيان) رابعة القيسية ، ويقول في موضع آخر : قيل لرابعة القيسية لو كلمنا رجال عشيرتك فاشترؤا لك خادماً يكفيك مؤونة بيتك ؟ فقالت : والله إنى لأستحي أن أسأل الدنيا من يملك الدنيا ، فكيف أسألها من لا يملكها ! ويقول الجاحظ على لسان سفيان الثوري . وقلت لرابعة القيسية هل عملت عملاً قط ترين أنه يُقبل منك ؟ فقالت : إن كان كل شيء فخوف أن يُرد عليّ . ويقول أيضاً عن نسبها وزهداها : ومن آل عتيك بنو عدوة ، ولهذا تسمى العدوية ، وأما كنيثها فأما الخير بنت اسماعيل وبذلك يحدد الجاحظ نسبها ، ويذكر سبب تسميتها بالقيسية مرة وبالعدوية أخرى ، ويؤكد اسم أبيها وهو إسماعيل .

وفي طبقات ابن الملقن يذكر أن هناك سَمِيَّة لرابعة ، وربما يكون اسمها رابعة ، وهي زوجة لأحمد بن أبي الحواري (١٤٨ - ٢٣٠ هـ) الصوفي الشامي ، واسم أبيها

إسماعيل أيضًا ، وكانت عابدة كرابعة العدوية أم الخير بنت اسماعيل البصرية ، مولاة آل عتيك ، وهى الصالحة المستورة من أعيان عصرها ، وفضلها مشهور ، وكانت وفاتها سنة (١٣٥ هـ) ، ودفنت بظاهر القدس من شرقيّه ، على رأس جبل يسمى جبل الطور .

★★★

ويذكرها الزركلى فى أعلامه فيقول : إنها رابعة بنت اسماعيل العدوية ، توفيت سنة (١٣٥ هـ) ، وهى أم الخير مولاة آل عتيك ، البصرية ، صالحة مشهورة من أهل البصرة ، ومولدها بها ، ولها أخبار فى العبادة والنسك ، ولها شعر ، ومن كلامها : اكنتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم . وتوفيت بالقدس .

★★★

وقال بن خلكان : وقبرها يزار ، وهى بظاهر القدس من شرقيه ، على رأس جبل يسمى الطور . ووفاتها سنة (١٣٥ هـ) كما فى شذور العقود لابن الجوزى . وقال غيره سنة ١٨٥ هـ كما فى وفيات الأعيان - الجزء الأول ص ١٨٢ ، وعند الشريشى الجزء الثانى ص ٢٣١ ، وفى الدر المنثور ص ٢٠٢ ، وفى مجلة لغة العرب أن للسيدة مرجريت سميث الإنجليزية كتابًا عن رابعة العدوية رجّحت فيه وفاتها سنة ١٨٥ هـ ، وقالت : إنها عاشت وتوفيت ودفنت بالبصرة .

★★★

وفى كتاب الروض الفائق فى المواعظ والرقائق للشيخ الحريفيش المتوفى سنة ٨٠١ هـ يقول فى المجلس السابع والعشرين . فيما يجلو القلوب من القسوة بذكر أخبار النسوة أن الله تعالى قال وهو أصدق القائلين ﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات ﴾ ، وقال تعالى ﴿ إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم

والحافظات ، والذاكرين الله كثيرًا والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا ﴿١٠﴾ ، ففَرَنَ الله سبحانه وتعالى ذكر النساء الصالحات بالرجال الصالحين . وللنساء أحوال وزهد وخير وصلاح كما في الرجال ، وفي النساء من لهن الأوراد والسياحات والكشف وغير ذلك من الخصوصيات التي خصَّهن الله تعالى بها ، كمن مضمين منهن في الصدر الأول ، كرابعة العدوية ، وشعوانة ، وريحانة ، وأم الخير ، وغيرهن من النساء المشهورات وغير المشهورات . كما حُكِيَ عن رابعة العدوية - رحمها الله تعالى - أنها كانت إذا صلَّت العشاء ، قامت على سطح لها وشدَّت عليها درعها وخمارها ثم قالت إلهي أنارت النجوم ، ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك ! ثم تقبل على صلاتها فإذا كان وقت السحر وطلع الفجر قالت . إلهي هذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر ، فليت شعري أَقْبَلْتُ مني ليلتي فأهنا ، أم رددتها عَلَيَّ فَأَعَزَّى ؟ فوعزتكَ هذا دأبى ما أحبيتنى وأعنتنى ! وعزتكَ لو طردتنى عن بابك ما برحتُ عنه لما وقع في قلبي من محبتكَ . ثم أنشدت

يا سرورى ومنيتى وعمادى	وأنيسى وعُدَّتْنى ومُرادى
أنت روح الفؤاد أنت رجائى	أنت لى مؤنس وشوق كزادى
أنت لولاك يا حياتى وأنسى	ما تشئتُ فى فسيح البلاد
كم بدت مِنَّة وكم لك عندى	من عطاءٍ ونعمةٍ وأيادى
حُبِّك الآن بُغيتى ونعيمى	وجلاءٍ لعينِ قلبى الصادى
ليس لى عندك ما حييت بِراحٍ	أنت منى مُمَكَّنٌ فى السَّواد
إن تكن راضِيًا على فإنى	يامنى القلب قد بدا إسعادى

ثم يحكى الحريفيش عن قصة لها مع ذى النون المصرى على لسان صوفى يدعى سعد بن عثمان فيقول . إنه كان فى تيه بنى إسرائيل (أى سيناء) ، وإذا بشخص قد أقبل ، فقلت يا أستاذ ! شخص قد أتى . فقال لى انظر من هو ، فإنه لا يضع أحد قَدَمَه فى هذا المكان إلا صديق . فنظرتُ فإذا هى امرأة ، فقلت إنها امرأة : فقال صِدِّيقَةٌ وربُّ الكعبة !

فابتدر إليها وسلّم عليها ، فقالت ما للرجال ومخاطبة النساء ؟ فقال أنا أخوك ذو النون
ولست من أهل التُّهَم ، فقالت : آية من كتاب الله عز وجل قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ
وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ . فقال لها صفى لى المحبة ، فقالت : سبحان الله ! أنت عارف بها
وتتكلم بلسان المعرفة وتسالني عنها ؟ فقال لها : للسائل حق الجواب . فأنشدت تقول :

أحببك حبين : حبّ الهوى وحبّاً لأنك أهل لـذاكـا
فأما الذى هو حبّ الهوى فذكر شغلت به عن سواكـا
وأما الذى أنت أهل له فكشفك الحُجب حتى أراكـا
فما الحمـدُ في ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمـد في ذا وذاكـا

وتقول :

يا حبيب القلب مالى سواك فارحم اليوم مذنّباً قد أتاك
يارجائى وراحتى وسرورى قد أبى القلب أن يجيب سواكـا

ويروى الشيخ الحريفيش ما قيل من أنه لما مات زوج رابعة العدوية (كذا !)
استأذن الحسن البصرى فى الدخول عليها هو وأصحابه ، فأذنت لهم وأرخت ستراً
وجلس وراءه ، فقال لها أصحابه . إنه قد مات بعلك ولا بد لك من زوج ، وقد انقضت
مدّتك ، فاخترى من هؤلاء الزهاد من شئت منهم . فقالت : نعم ، حباً وكرامة ! وسألت : من
هو أعلمكم حتى أزوجه نفسى ؟ قالوا : الحسن البصرى . فقالت له : إن أجبتنى عن أربع
مسائل فأنا لك أهل ؟ فقال لها : إسألى فأنا أجيبك إن وفقنى الله تعالى . قالت . ما يقول
الفقيه العالم إذا أنا مُتُّ . هل خرجت من الدنيا مسلمة أم كافرة ؟ فقال : هذا غيب ، والغيب لا
يعلمه إلا الله تعالى . قالت : فما يقول إن وُضعت فى القبر وسألنى منكر ونكير ، أفأقدر على
جوابهما أم لا ؟ فقال : وهذا أيضاً غيب ! قالت . فإذا حُشِر الناس فى القيامة وتطايست
الكتب ، فيُعْطى بعضهم كتابه بيمينه ، ويعطى بعضهم كتابه بشماله . أفأعطى كتابى
بيمينى أم بشمالى ؟ قال : وهذا أيضاً غيب ! قالت . فإذا نودى فى الخلائق ، ففريق فى الجنة

وفريق في العسير . فمن أى الفريقين أكون ؟ قال لها : وهذا أيضًا غيب . ولا يعلم الغيب إلا الله عز وجل ! فقالت له : فإذا كان الأمر كذلك ، وأنا في قلق وكرب من هذه الأربعة ، فكيف أحتاج إلى الزوج وأتفرغ له !!

وأنشدت :

راحتى يا إخوتى فى خلوتى	وحبيبى دائماً فى حضرتى
لم أجدى عن هواء عوْضا	وهـواء فى البرايا محنتى
حيثما كنت أشاهد حُسنه	فهو محرابى إليه قبلتى
إن أمت وجدًا وما تم رضا	واعنائى فى الورى واشقوتى
يا طبيب القلب يا كل المنى	جد بوصول منك يشفى مُهجتى
ياسرورى وحياتى دائماً	نشأتى منك وأيضا نشوتى
قد هجرتُ الخلق جمعاً أرتجى	منك وصلاً فهو أقصى مُنيتى

★★★

وفى « إتحاف السادة المتقين فى شرح إحياء علوم الدين للغزالي » يقول الزبيدى :
إنها رابعة ابنة اسماعيل العدوية البصرية العابدة رحمها الله تعالى ، وكانت إحدى
المحبين وماتت سنة ١٣٥ هـ ، وكان الثورى (يقصد سفيان) يقعد بين يديها ويقول
علّميناً مما أفادك الله من طرائف الحكمة ! وكانت تقول له : نِعَم الرجل أنت ، لولا أنك تحب
الدنيا ! وقد كان الثورى زاهداً عالماً : لكل إلا أنها كانت تجعل إيثار كتب الحديث والإقبال
على الناس من أبواب الدنيا . وقال لها الثورى يوماً : لكل عَقْد شريطة ، ولكل إيمان حقيقة ،
فما حقيقة إيمانك ؟ قالت : ما عبديته خوفاً من ناره ولا حباً لجنته ، فأكون كالأجير السوء ،
إن خاف عمل ، أو إذا أُعطى عمل ، بل عبديته حباً له وشوقاً إليه ! وروى عنها حماد بن زيد
أنها قالت . إنى لأستحى أن أسأل الدنيا من يملكها ، فكيف أسألها من لا يملكها ؟ فكان هذا

جواباً لأنه قال : سألني حاجتك . وخطبها عبد الواحد بن زيد ، فحجبتة أياماً حتى سئلت أن يدخل عليها ، فقالت له . يا شهواني ! أطلب شهوانية مثلك ! أى شىء رأيت في من آله الشهوة ! وخطبها محمد بن سليمان الهاشمي أمير البصرة على مائة ألف ، وقال : لى غلة عشرة آلاف في كل شهر أجعلها لك . فكتبت إليه ما يسرني أنك لى عبد ، وأن كل مالك لى ، وأنك شغلتنى عن الله طرفة عين ! وقالت رابعة في معنى المحبة أبياتاً تحتاج إلى شرح حملها عنها أهل البصرة وغيرهم ، منهم سفيان الثوري ، وجعفر بن سليمان الضبعي ، وعبد الواحد بن زيد ، وحماد بن زيد . وهى هذه :

أحبك حبين : حبّ الهوى	وحباً لأنك أهل لـذاكـا
فأما الذى هو حبّ الهوى	فذكر شُغِلْتُ به عن سواكـا
وأما الذى أنت أهلّ لـه	فكشفك الحُجب حتى أراكـا
فما الحمـد فى ذا ولا ذاك لى	ولكن لك الحمـد فى ذا وذاكـا

وقد تكلم صاحب القوت على هذه الأبيات بكلام ساطع الأنوار ، يعرفه من رزقه ، وينكره من حُرِّمه ، ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحفظ العاجلة ، وبحبه لما هو أهل له الحب ، لجماله وجلاله الذى انكشف لها ، وهو أعلى الحبين ، فقد أشار بذلك إلى أن كلامها يدل على أن المحبة بهذا السبب أقوى الأسباب وأثبتها دوماً .

وأما صاحب القوت فقال . فأما قولها حب الهوى ، وقولها حب أنت أهل له ، وتفرقتها بين الحبين ، فإنه يحتاج إلى مزيد من تفاصيل حتى يقف عليه من لا يعرفه ، ويخبره من لم يشهده . وفى تسميته ونعت وصفه إنكار من ذوى العقول ممن لا ذوق له منه ولا قدر له به ، ولكننا نجمل ذلك وندل عليه من عرفه . معنى حب الهوى أى رأيتك فأحببتك عن مشاهدة اليقين ، لا من خبر وسمع تصديق من طريق النعم والإحسان ، فتختلف محبتى إذا تغيرت الأفعال لاختلاف ذلك على ، ولكن محبتى عن طريق العيان فقربت منك ، وهربت إليك بك لما تفرعت لك كما قال الحب :

فَرُغْتُ قلبها اشتغالاً بذكرى وكذا كل فارغ مشغول

وعلى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا ﴾ أى ملآن بذكره حتى فاض فكادت أن تظهره فتقول هو ابني ، فعبر عن الملء بالفراغ من ضده ، لولا أن أولينا عليه بربطنا فكظمت ، ولو لم تفعل لأظهرت ، ولو أظهرت لقتل . وأما الحب الثاني الذى هو أهل له تعنى حب التعظيم والإجلال لوجه العظيم ذى الجلال . تقول ثم إنى مع ذلك لأستحق هذا الحب ولا أستاهل هل أنظر إليك فى الآخرة على الكشف والعيان فى محل الرضوان ، لأن حبي لك لا يوجب لك جزاء عليه ، بل يوجب على مما لا أطيعه ولا أقوم بحقك فيه أبداً ، إذا كنت قد أحببتك فلزمنى من خوف التقصير ، ووجب على الحياء من قلة الوفاء ، والخوف لما تعرضت به من حبك ، إذ ليس كمثلك شىء كما قال المحب :

أصبحتُ صبياً ولا أقول بمن خوفاً لمن لا يخاف من أحدٍ
إذا تفكرتُ فى هـواى له لمستُ رأسى هل طار عن جسدى

لولا أن الحب ينطق ، والشوق يقلق ، والوجد يحرق ، فالمحب لا يلام لغيبة النفس عنه وإلا نام ، تقول فتفضلتُ على بفضل كرمك وما أنت له أهل من تفضلك ، فأريتني وجهك عندك آخرأ ، كما أريتني اليوم عندك أولاً ، فلك على ما تفضلت به فى ذاك عندى فى الآخرة ، ولا حمد لى فى ذا هاهنا ، ولا حمد لى فى ذاك هناك ، إذا كنتُ أنا وصلتُ إليها بك ، فأنت المحمود فيهما لأنك وصلتني بهما . فهذا الذى فسّرناه هو وجد المحبين المحققين . وقد كانت تذكر الأنس فى وجدها ، وترتفع إلى وصف معنى الخلّة فى قولها السائر

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى وأبحثُ جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانسٌ وحبيبٌ قلبى فى الفؤاد أنيسى

ومن قولها النادر فى مقام الخلّة .

وتخللتُ مسلك الروح منى وبه سمي الخليل خليلاً
فإذا ما نطقتُ كنتُ حديثى وإذا ما سكنتُ كنتُ الغليلاً

وقد أهلّ لها ذلك كل ما نقله عنها العلماء ووصفوها به ، فوصفنا من نعت المحبين بعض ما يصلح من كلامها ، لأننا ظننا بقولها ذلك أن كان لها في المحبة قدم . ولا يسعنا أن نشرح في كتاب حقيقة كشف ما أجملناه ، ولولا أن نفصل وصف ما ذكرناه . ومن لم يكن من المحبين كذلك حتى لا يدل بمحبته ولا يقتضى الجزاء عليها من محبوه ، ولا يوجب على حبيبه شيئاً لأجل محبته ، فهو مخدوع بالمحبة ومحجوب بالنظر إليها ، وإنما ذلك مقام الرجاء الذى ضده الخوف ليس من المحبة فى شيء ، ولا تصح المحبة إلا بخوف المقت فى المحبة . وقال بعض العارفين ما عرفه من ظن أنه عرّفه ولا أحبه من توهم أنه أحبه - وهذا كلام صاحب القوت .

وفى بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم يقول الزبيدي : وقالت رابعة العدوية من يدلنا على حبيبنا . فقالت خادمة لها : حبيبنا معنا ولكن الدنيا قطعتنا عنه . ورابعة قدّس الله سرها كانت رأساً فى المعرفة والمحبة كما هو مشهور من حالها ، ولا يخفى عليها مقام المعية ، وإنما قالت ما قالت وهى فى مقام الاستغراق الذى هو من نتائج المحبة وغلب عليها الشوق إلى المشاهدة ، والمحبة فى مقام القرب قد يتطلب من يأخذ بيده ويتعلق بالأذيال ، فنبهتها الخادمة على أن الوصول إلى مقام المشاهدة لا يكون إلا بعد المفارقة من هذا العالم فتمتنع عنه القواطع ، فما أدق نظرها رحمها الله .

وقيل لرابعة كيف حبك للرسول ﷺ فقالت : والله إنى لأحبه حباً شديداً ولكن حب الخالق شغلنى عن حب المخلوقين . وفى ذلك يحكى أيضاً عن أبى سعيد الخراز قال : رأيت النبى ﷺ فى المنام فقلت : يا رسول الله أعذرنى ، فإن محبة الله شغلتنى عن محبتك . فقال : يا مبارك : من أحب الله فقد أحببني .

وقيل نظرت رابعة إلى رياح القيسى وهو يقبل صبيّاً من قومه ويضمّه إليه ، فقالت : أتحبه يا رياح ؟ قال نعم . قالت : ما كنت أحسب أن فى قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره ! فصاح رياح وسقط مغشياً عليه .

وقال ذو النون بينما أسير على ساحل البحر إذ أبصرت بجارية عليها أظمار شعر ، وإنه هى ناحلة ذابلة ، فدنوت منها لأسمع ما تقول ، فرأيتها متصلة الأحزان بالاشجان .

وعصفت الرياح ، واضطربت الأمواج ، وظهرت الحيتان ، فصرخت ثم سقطت إلى الأرض ، فلما أفاقت نجت ، ثم قالت : سيدى بك تقرّب المقربون فى الخلوات ، ولعظمتك سبّحت الحيتان ، والبحر الزخّار ، والقمر النّوار ، والنجم الزّهّار ، وكل شىء عندك بمقدار ، لأنك الله العلىّ القهار .

يامؤنس الأبرار فى خلواتهم يا خير من حلّت به النّزال
من ذاق حبك لا يــــزال متيمًا فرح الفؤاد — متيمًا بلبّال
من ذاق حبك لا يُــــرى متبسمًا من طول حزن فى الحشا إشعال

فقلت لها زينا من هذا . فقالت : إليك عنى ، ثم رفعت طرفها إلى السماء وقالت :

أحبك حين : حــــب الهوى وحباً لأنك أهل لــــذاك
فأما الذى هو حب الهوى فذكر شُغلتُ به عن سواك
وأما الذى أنت أهلّ لــــه فكشفك الحُجب حتى أراك
فما الحمــــد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمــــد فى ذا وذاك

ثم شهقت فإذا هى فارقت الدنيا ، فبقيت أتعجب مما رأيت منها ، فإذا بنسوة قد أقبلن ، عليهن مدارع الشّعر ، فاحتملنّها فغيبنّها عن عينى ، فغسلنّها ، ثم أقبلنّ بها فى أكفانها فقلن لى . تقدّم فصلّ عليها . فتقدمت وصلّيت عليها وهن خلفى ، ثم احتملنّها ومضين .

★★★

وفى رسالة القشيري أن رابعة خاطت شقاً فى قميصها فى ضوء مشعلة سلطان ، ففقدت قلبها زماناً حتى تذكرت فشقت قميصها فوجدت قلبها .

وقيل إن رجلاً قال لرابعة : إنى أكثر من الذنوب والمعاصى ، فلو تبت هل يتوب على ؟ فقالت : لا بل لو تاب عليك لتبت !

وسُئلت رابعة متى يكون العبد راضياً ؟ فقالت . إذا سرّته المصيبة كما سرّته النعمة .

وفي باب الغيرة أن رابعة مرضت ، فقيل لها ما سبب عِلَّتِكَ ؟ فقالت : نظرت بقلبي إلى الجنة فأدْبَنِي ، فله العتبي لا أعود !

وقيل كان صالح المرّى يقول كثيرًا : من أدمن قرع باب يوشك أن يُفتح له ، فقالت له رابعة . إلى متى تقول هذا ؟ ومتى أغلق هذا الباب حتى يُستفتح ! فقال صالح : شيخٌ جهيل وامرأة عَمِلَتْ !

وقيل قالت رابعة في مناجاتها : إلهي ! أتحرق بالنار قلبًا يحبك ! فهتف بها هاتف : ما كنا نفعل هكذا فلا تظني بنا ظن السوء !

وقال بعضهم كنت أدعو لرابعة العدوية ، فرأيتها في النوم تقول : هداياك تأتينا على أطباق من نور ، مخمرة بمناديل من نور !

ومن « تعرّف الكلاباذي » يقول : إن بعضهم ذكر المحبة على وجهين : محبة الإقرار وهى للخاص والعام ، ومحبة الوجد من طريق الإصابة ، فلا تكون رؤية للنفس والخلق ، ولا رؤية للأسباب والأحوال ، بل يكون مستغرقًا في رؤية ما لله وما منه ، ولرابعة العدوية :

أحبك حبين : حبّ الهوى	وحباً لأنك أهل لـذاكـا
فأما الذى هو حب الهوى	فذكر شُغِلْتُ به عن سواكـا
وأما الذى أنت أهل له	فكشفك الحُجب حتى أراكـا
فما الحمـد فى ذا ولا ذاك لى	ولكن لك الحمـدُ فى ذا وذاكـا

وفي كتاب « قوت القلوب » لأبى طالب المكي أن رابعة العدوية كانت إحدى المحبين ، وكان الثورى يقعد بين يديها ويقول : علمينا مما أفاذك الله من طرائف الحكمة ! وكانت تقول . نَعَمْ الرجل أنت لولا أنك تحب الدنيا ! وقد كان رحمه الله زاهدًا في الدنيا عالمًا ، إلا

أنها كانت تجعل إيثار كتب الحديث والإقبال على الناس من أبواب الدنيا . وقال لها الثوري يوماً : لكل عبد شريطة ، ولكل إيمان حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ فقالت : ما عبدتُ الله خوفاً من الله ، فأكون له كالأمّة السوء ، إنْ خَافْتُ عَمِلْتُ ، ولا حبّاً للجنة فأكون كأمة السوء ، إنْ أُعْطِيتُ عَمِلْتُ ، ولكنى عبدته حبّاً له وشوقاً إليه . وروى عنها حماد بن زيد أنها قالت : إنى لأستحى أن أسأل الدنيا من يملكها ، فكيف أسألها من لا يملكها ! وكان هذا جواباً لأنه قال لها اذكرى لى حوائجك حتى أقضيها . وخطبها عبد الواحد بن زيد فقالت : يا شهوانى ! أطلب شهوانية مثلك ! أى شىء رأيت فى من آلة الشهوة ؟! وخطبها محمد بن سليمان أمير البصرة على مائة ألف ، وقال : لى غلة عشرة آلاف فى كل شهر أدفعها إليك . فكتبت إليه : مايسرنى أنك لى عبد ، وأن كل ما تملكه لى ، وأنتك شغلتنى عن الله طرفة عين ! وقد قالت فى معنى المحبة أبياتاً تحتاج إلى شرح ، حملها عنها أهل البصرة وغيرهم ، منهم جعفر بن سليمان الضبعى ، وسفيان الثوري ، وحماد بن زيد ، وعبد الواحد بن زيد .

أحبك حبين : حسب الهوى	وحباً لأنك أهل لذاك
فأما الذى هو حب الهوى	فذكر شغلته به عن سواك
وأما الذى أنت أهل له	فكشفك الحجب حتى أراك
فما الحممـــــدُ فى ذا ولا ذاك لى	ولكن لك الحممـــــدُ فى ذا وذاك

فأما قولها حب الهوى ، وقولها حب أنت أهل له ، وتقريقتها بين الحبين ، فإنه يحتاج إلى تفصيل حتى يقف عليه من لا يعرفه ، ويخبره من لم يشهده . وفى تسميته ونعت صفته إنكار من ذوى العقول ممن لا ذوق له ولا قدم له فيه ، ولكننا نحمل ذلك وندل عليه من عرفه : ويعنى حب الهوى أنى رأيته فأحببتك ، عن مشاهدة عين اليقين لا عن خبر وسمع وتصديق من طريق النعم والإحسان ، فتختلف محبتى إذا تغيرت الأفعال لاختلاف ذلك على ، ولكن محبتى من طريق العيان ، فقربت منك ، وهربت إليك ، واشغلت بك ، وانقطعت عمّن سواك . وقد كانت لى قبل ذلك أهواء فلما رأيته اجتمعت كلها ، فصرت أنت كلية القلب وجملة المحبة ، فأنسيتنى ما سواك . ثم إنى مع ذلك لا أستحق هذا الحب ، ولا أستاهل أن

أنظر إليك في الآخرة على الكشف والعيان في محل الرضوان ، لأن حبي لك لا يوجب عليك جزاءً عليه ، بل يوجب على كل شيء لك مني ، كل شيء مما لا أطيقه ولا أقوم بحقق فيه أبداً ! إذ كنت قد أحببتك فلزمني خوف التقصير ، ووجب على الحياء من قلة الوفاء ، فتفضلت على بفضل كرمك وما أنت له أهل من تفضلك ، فأريتني وجهك عندك آخراً كما أريتني اليوم عندى أولاً ، فلك الحمد على ما تفضلت به في ذا عندى في الدنيا ، ولك الحمد على ما تفضلت به في ذاك عندك في الآخرة ، ولا حمد لي في ذا هاهنا ، ولا حمد لي في ذاك هناك ، إذ كنت إنما وصلت إليهما بك ، فأنت المحمود فيهما لأنك وصلتني بهما ! فهذا الذي فسّرناه هو وَجَدَ المحبين المحققين ، ظناً بقولها ذلك ، إذ كان لها في المحبة قَدَمٌ صدق ، والله أعلم .

★★★

وفي عوارف المعارف للسهرودي يقول إن الفقير في المدايرة ربما يتعدى حد الاعتدال في وجوه المعيشة ، متطلباً رضا الزوجة ، فهذا فتنة عموم حاله ، وفتنة خصوص حاله الإفراط في المجالسة والمخالطة ، فتنتطق النفس عن قيد الاعتدال ، فيستولى على القلب بسبب ذلك السهو والغفلة ، ويستجلس مقار المهلة ، فيقل الوارد لقلة الأوراد ، ويتكدر الحال لإهمال شروط الأعمال . وألطف من هذين الفتنتين فتنة أخرى تختص بأهل القسرب والحضور ، وذلك أن للنفس امتزاجاً ، وبرابطة الامتزاج تعتصد وتشتد وتنطري طبيعتها الجامدة ، وتلتهب نارها الخامة ، فدواء هذه الفتنة أن يكون للمتأمل عند المجالسة عيان باطنان ينظر بهما إلى مولاه ، وعينان ظاهران يستعملهما في طريق هواه ، وقد قالت رابعة في معنى هذا نظماً :

إنى جعلتك في الفـؤاد محدّثي وأبحثُ جسمي من أراد جلوسى
فالجسم منى للجلّيس مؤانِس وحبيب قلبي في الفـؤاد أنيسى

★★★

وفي طبقات الشعرائي فصل في ذكر جماعة من عبّاد النساء رضى الله عنهن ، منهن

رابعة العدوية رضى الله تعالى عنها ، وكانت كثيرة البكاء والحزن ، إذا سمعت ذكر النار غشى عليها زماناً ، وكانت تقول : مالى حاجة بالدنيا ! وكانت بعد أن بلغت الثمانين كأنها شينٌ بال تكاد تسقط إذا مشت ، وكان كفنها لم يزل موضوعاً أمامها ، وكان بموضع سجودها . وكان موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها ، وسمعت رضى الله عنها سفياناً يقول : واحزنه ! فقالت له : واقله حزنه ! ولو كنت حزيناً ما هناك العيش ! ومناقبها كثيرة رضى الله عنها ومشهورة .

★★★★

وفي مجموعة « الرسائل والمسائل » لابن تيمية : أن ما دُكر عن رابعة من قولها عن البيت أنه الصنم المعبود في الأرض فهو كذب عليها ، ولو قال هذا من من قال لكان كافراً يُستتاب ، فإن تاب وإلا قتل ، وهو كذب فإن البيت لا يعبده المسلمون ، ولكنهم يعبدون رب البيت ، بالطواف به والصلاة إليه . وكذلك ما نقل من قولها « والله ما ولجته الله ولا خلا منه » - كلامٌ باطلٌ عليها . وعلى مذهب الحلولية لافرق بين ذاك البيت وغيره في هذا المعنى - فلاى مزية يُطاف به ويُصلّى إليه ويُحجّ دون غيره من البيوت ؟ وقول القائل « ما ولجته الله » فيه كلام صحيح . وأما قوله « ما خلا منه » فإنه أراد أن ذاته حالة فيه أو ما يشبه هذا المعنى ، فهو باطل ، وهو مناقض لقوله « ما ولج فيه » . وإن أراد به أن الاتحاد ملازمٌ له ولم يتجدد له ولوج ، ولم يزل غير حال فيه ، فهذا مع أنه كفر وباطل ، يوجب ألا يكون للبيت مزية على غيره من البيوت ، إذ الموجودات كلها عندهم كذلك .

★★★

وفي صفة الصفوة لابن الجوزى : أن رابعة كانت كثيرة البكاء ، فقرأ رجل عندها آية من القرآن ، ذكر فيها النار ، فصاحت ثم سقطت . ودخل عليها أحدهم وهى جالسة على قطعة بورى خَلِقَ ، فتكلم بشيء ، فكان لدموعها وقعٌ على البورى مثل الوكف ، واضطربت وصاحت . وقيل إن أحدهم أتاها بأربعين ديناراً ، فقال لها تستعينين بها على بعض حوائجك ، فبكت ثم رفعت رأسها إلى السماء فقالت . هو يعلم أنى أستحى منه أن أسأله الدنيا وهو يملكها ، فكيف أنا أريد أن آخذها ممن لا يملكها ؟ وحدث أحدهم أنه دخل على

رابعة وكانت عجوزاً كبيرة بنت ثمانين سنة ، كأنها الشنّ تكاد تسقط ، ورأى في بيتها كراخة بواري وستر البيت جلّة وربما كان بورياً ، وحُب ، وكوز ، ولبد هو فراشها وهو مصلاها . وكان لها مشجب من قصب عليه أكفانها . وكانت إذا ذكرت الموت انتفضت وأصابتها رعدة . وإذا مرت بقوم عرفوا فيها العبادة . وطلب منها رجل يوماً أن تدعو له ، فالتصقت بالحائط وقالت : ومن أنا يرحمك الله ! أطع ربك وادعه فإنه يجيب المضطر !

وقال أحدهم : دخلت على رابعة وهى ساجدة ، فلما أحسّت بمكانى رفعت رأسها ، فإذا موضع سجودها كهية الماء المستنقع من دموعها ، فسلمت ، فأقبلت على وقالت : يا بنى ! لك حاجة ؟ فقلت : جئتك لأسلم عليك . فبكت وقالت : سترك اللهم سترك !! ودعت بدعوات ثم قامت إلى الصلاة .

وقيل إن رياحاً القيسى ، وصالح بن عبد الجليل ، وكلاباً ، دخلوا على رابعة فتذكروا الدنيا ، فأقبلوا يذمونها ، فقالت رابعة : إنى لأرى الدنيا بترابيعها فى قلوبكم ! فقالوا : ومن أين توهمت علينا ؟ قالت : إنكم نظرتم إلى أقرب الأشياء من قلوبكم فتكتمتم فيه !

وقيل لرابعة : هل عملت عملاً ترين أنه يُقبل منك ؟ قالت : إن كان فمخافتى أن يُردّ على !

ووصفها سفيان الثورى فقال : المؤدبة التى لا أجد من أستريح إليه إذا فارقتها ! ولما دخل عليها مرة قال : اللهم إنى أسألك السلامة ! فبكت رابعة ! فسألها : ما يبكيك ؟ فقالت : أنت عرّضتني للبكاء . فقال لها : وكيف ؟ قالت : أما علمت أن السلامة ترك ما فيها ، فكيف وأنت متلطخ بها ! وقالت له رابعة : إنما أنت أيام معدودة ، فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضك ، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل ، وأنت تعلم ، فاعمل !

وكانت عبدة بنت أبى شوال - وهى من خيار إماء الله تعالى - تخدم رابعة ، فوصفتها قالت : كانت رابعة تصلّى الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجة خفيفة حتى يسفر الفجر ، فكانت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدتها ذاك وهى فزعة .

يَا نَفْسُ كَمْ تَنَامِينَ ! وَإِلَى كَمْ تَقُومِينَ ! يَوْشَكَ أَنْ تَنَامِيَ نَوْمَةً لَا تَقُومِينَ مِنْهَا إِلَّا لَصْرَخَةٍ يَوْمَ
النَّشُورِ ! فَكَانَ هَذَا دَأْبَهَا دَهْرَهَا حَتَّى مَاتَتْ ، فَلَمَّا حَضَرَتْهَا الْوَفَاةُ دَعَتْنِي فَقَالَتْ : يَا عِبْدَةَ
لَا تُؤْذِنِي بِمَوْتِي أَحَدًا ، وَلَفِينِي فِي جُبَّتِي هَذِهِ ! فَلَمَّا مَاتَتْ كَفَّنَاهَا فِي تِلْكَ الْجَبَةِ وَخَمَارٍ صُوفٍ
كَانَتْ تَلْبِسُهُ . وَرَأَيْتَهَا بَعْدَ ذَلِكَ بِسَنَةِ أَوْ نَحْوِهَا فِي مَنَامِي ، عَلَيْهَا حِلَّةٌ اسْتَبْرَقَ خَضِرَاءُ ،
وَخَمَارٌ مِنْ سِنْدَسٍ أَخْضَرَ لَمْ أَرِ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْهُ ، فَقُلْتُ يَا رَابِعَةَ : مَا فَعَلْتَ بِالْجَبَةِ الَّتِي
كَفَّنَاكَ فِيهَا وَالْخَمَارَ الصُّوفَ ؟ قَالَتْ . إِنَّهُ وَاللَّهِ نُزِعَ عَنِّي ، وَأُبْدِلْتُ بِهِ هَذَا الَّذِي تَرِينَهُ عَلَيَّ ،
وَطُوبَيْتُ أَكْفَانِي وَخُتِمَ عَلَيْهَا ، وَرُفِعَتْ فِي عِلْيَيْنَ لِتَكْمَلَ لِي بِهَا ثَوَابِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . فَقُلْتُ لَهَا :
وَلِهَذَا كُنْتَ تَعْمَلِينَ أَيَّامَ الدُّنْيَا ! فَقَالَتْ : وَمَا هَذَا عِنْدَ مَا رَأَيْتُ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ لِأَوْلِيَائِهِ !
وَسَأَلْتُهَا عَنْ عَبْدِةَ بِنْتِ أَبِي كَلَابٍ فَقَالَتْ : هِيَ هَاتِي ! سَبَقْتُنَا وَاللَّهِ إِلَى الدَّرَجَاتِ الْعُلَى !
وَسَأَلْتُ : بِمَ ، وَقَدْ كُنْتَ أَنْتِ عِنْدَ النَّاسِ أَكْثَرَ مِنْهَا ؟ قَالَتْ : إِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَبَالِي عَلَى أَىِّ حَالٍ
أَصْبَحْتُ مِنَ الدُّنْيَا وَأَمْسَتْ . وَسَأَلْتُهَا : فَمَا فَعَلَ أَبُو مَالِكٍ - يَعْنِي ضَيْغَمًا - قَالَتْ : يَزُورُ اللَّهَ
عَزَّ وَجَلَّ مَتَى شَاءَ . فَقُلْتُ : فَمَا فَعَلَ بَشَرُ بْنُ مَنْصُورٍ ، قَالَتْ : بَخٍ بَخٍ ! أُعْطِيَ اللَّهُ فَوْقَ مَا
كَانَ يَأْمَلُ ! وَسَأَلْتُهَا : مَرِينِي بِأَمْرِ اقْتَرَبَ بِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟ فَقَالَتْ : عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ ذِكْرِهِ .
أَوْشَكَ أَنْ تُغْبِطِي بِذَلِكَ فِي قَبْرِكَ !

ويذكر ابن الجوزي عن رابعة زوجة أحمد بن أبي الحواري : أن ذلك هو نسبها كما
ذكره أبو بكر بن أبي الدنيا ، وأن أبا عبد الرحمن السلمي ذكر أن رابعة العدوية تشارك
هذه في اسمها واسم أبيها ، وعموم ما يأتي في الحديث عن زوجة أحمد أنها رابعة بالياء ،
والعدوية بصرية وهذه شامية ، ورابعة - بالياء بنقطة من تحتها - بصرية ، ورابعة -
بنقطتين من تحتها - شامية ، والشامية يقول عنها أحمد بن أبي الحواري إنها امرأته ،
وكانت تقوم بالليل فانتقدها وقال : قد رأينا أبا سليمان وتعبدنا معه ، فما رأينا من يقوم من
أول الليل ! فقالت سبحان الله ! مثلك من يتكلم بهذا ! إنما أقوم إذا نوديت ! قال : وجلست
أكل وتذكّرني ، فقالت لها : دعينا يهيننا طعامنا ! قالت : ليس أنا وأنت ممن يتنصص عليه
الطعام عند ذكر الآخرة ! ويقول أحمد بن أبي الحواري كانت لرابعة أحوال شتى ، فمرة
يغلب عليها الحب ، ومرة يغلب عليها الأنس ، ومرة يغلب عليها الخوف فسمعتها في حال
الحب تقول :

ولا لسـواء في قلبي نصيب
ولكن في فـؤادي ما يغيب

حبيبٌ ليس يعدله حبيب
حبيبٌ غاب عن بصرى وشخصى

وسمعتها في حال الأُنس تقول :

وأبحثُ جسمى من أراد جـلـوسى
وحبيب قلبي في الفـؤاد أنيسى

وقد جعلتُ في الفـؤاد محدثى
فالجسم منى للجليس مـؤانس

وسمعتها في حال الخوف تقول :

أللزاد أبكى أم لطول مسافتي !
فأين رجائى فيك أين مخافتي !

وزادى قليلٌ مـا أراه مُبلَغى
أتحرقُننى بالنار يا غاية المنى

ويذكر أحمد بن أبى الحوارى أنه سمعها تقول : إننى لأضن باللقمة الطيبة أن أطعمها
نفسى ، وإننى لأرى ذراعى قد سمن فأحزن . وقد يسألها أحمد : أصائمة أنت
اليوم ؟ فتقول : وما مثلى يفطر فى الدنيا ! ويقول : وربما نظرتُ إلى وجهها ورقبتها فيتحرك
قلبي على رؤيتها ما لا يتحرك مع مذاكرتى أصحابنا من أثر العبادة ، فتقول لى : لست أحبك
حب الأزواج وإنما أحبك حب الإخوان . وإنما رغبتُ فيك رغبةً فى خدمتك ، وإنما كنت أتمنى
أن يأكل مالى مثلك ، ومثل إخوانك ويعلق بن أبى الحوارى : أنها كانت لها سبعة آلاف درهم
فأنفقتها على ، وكانت إذا طبخت قِدرًا قالت : كُلّها ياسيدى فما نضجت إلا بالتسبيح !
وتقول . لست أستحل أن أمتعك نفسى وغيرى ، فاذهب فتزوج . ويقول : فتزوجتُ ثلاثًا ،
وكانت تطعمنى اللحم وتقول إذهب بقوّتك إلى أهلك ! وكنت إذا أردت جِماعها نهارًا قالت :
بالله لا تقطرنى اليوم ! وإذا أردتها بالليل قالت : أسألك بالله لما وهبتنى لله الليلة ! وكانت
رابعة تقول : ما سمعت الأذان إلا ذكرتُ منادى يوم القيامة ، ولا رأيت الثلج إلا ذكرت
تطاير الصُحف ، ولا رأيتُ جرأدا إلا ذكرت الحشر !

★★★

وفى كتاب مصارع العشاق للسراج : أن رابعة العدوية اعتلت علة قطعتها من التهجد وقيام الليل ، فمكثت تقرأ جزءها إذا ارتفع النهار ، لما يُذكر فيه أنه يعدل بقيام الليل . وتقول : ثم رزقنى الله عز وجل العافية فاعتادتنى فترة فى عقب العلة ، وكنت قد سكنت إلى قراءة جزئى بالنهار ، فانقطع عنى قيام الليل ، فبينما أنا ذات ليلة راقدة رأيت فى منامى كأنى رُفعت إلى روضة خضراء ذات قصور ونبت حسن ، فبينما أنا أجول فيها أتعجب من حُسنها ، إذا أنا بطائر أخضر وجارية تطارده ، كأنها تريد أخذه ، فشغلنى حُسنها عن حُسنه ، فقلت : ما تريد منى ؟ دعيه فوالله ما رأيت طائراً قط أحسن منه ! ثم أخذت بى فدارت بى فى تلك الروضة ، حتى انتهت بى إلى باب قصر فيها ، فاستفتحت ففُتح لها ، ثم قالت : افتحوا لى باب المقة ، ففُتح لها باب شاع منه شعاع استنار من ضوء نوره ما بين يدي وما خلفى ، ودخلت إلى بيت يحار فيه البصر تالؤاً وحُسنًا ، ما أعرف له فى الدنيا شبيهاً أشبهه به فبينما نحن نجول فيه إذ رفع لنا باب يُنفذ منه إلى بستان ، فأهوت نحوه وأنا معها ، فتلقنا فيه وُصفاء كأن وجوههم اللؤلؤ ، وبأيديهم المجامر ، فقالت لهم : أين تريدون ؟ قالوا : نريد فلاناً قُتل فى البحر شهيداً . قالت : أفلا تُجمروا هذه المرأة ؟ قالوا : قد كان لها فى ذلك حظ فتركته . فأرسلت يدها من يدي ثم أقبلت على فقالت .

صَلَاتِكَ نَوْرٌ وَالْعِبَادَةُ رَقُودٌ وَنَوْمُكَ ضِدٌّ لِلصَّلَاةِ عَنِيدٌ
وَعَمْرُكَ غَنَمٌ إِنْ عَقَلْتَ وَمَهْلَةٌ يَسِيرُ وَيَفْنَى دَائِمًا وَيَبِيدُ

ثم غابت من بين عينى ، واستيقظت من تبدى الفجر ، فوالله ما ذكرتها فتوهمتها إلا طاش عقلى وأنكرت نفسى !

ويروى السراج أن رابعة نظرت يوماً إلى رياح القيسى يقبل صبيًا من أهله ويضمه إليه ، فقالت : ما كنت أحسب أن فى قلبك موضعًا لمحبة غيره ! فقال رياح وهو يمسخ العرق من وجهه : رحمةٌ منه تعالى ذكره ألقاها فى قلوب العباد للأطفال !

★★★

وفى كتاب طبقات الأولياء لعبد الرءوف المناوى : أن رابعة العدوية ، رأس العابدات ، ورئيسة الناسكات القانتات الخائفات الوجلات ، وكانت فى عصر الحسن البصرى ، وهى إحدى النساء اللائى تقدمن ومهرن فى الفضل والصلاح ، كأم أيوب الأنصارية ، وأم الدرداء ، ومعاذة العدوية ، وهى من بينهن المشهورة بعظيم النسك ، ومزيد العبادة ، وكمال النزاهة والزهادة ، وكانت تصلى ألف ركعة فى اليوم والليله ، فقيل لها ما تطلبين بهذا ؟ قالت : لا أريد به ثواباً وإنما أفعله لكى يُسرَّ رسول الله يوم القيامة ، فيقول للأنبياء انظروا إلى امرأة من أمتى هذا عملها !

وكانت تصلى الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت فى مُصلاها قليلاً حتى يسفر الفجر ، ثم تثب وهى فزعة وتقول : يانفس ! كم تنامين ! وإلى كم تقومين ! يوشك أن تنامى نومة لا قومة لها إلا لصرخة يوم النشور !

وكتب محمد بن سليمان الهاشمى - وكانت غلة مُلكه كل يوم ثمانين ألف درهم - إلى كبراء أهل البصرة ، فى امرأة يتزوجها ، فأجمعوا على رابعة ، فكتبت إليه : أما بعد ، فإن الزهد فى الدنيا راحة البدن ، والرغبة فيها تورث الهم والحزن ، فهىء مَزادَكَ ، وقَدِّم لمعادِكَ ، وكنْ وصىَّ نفسك ، ولأُتجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا تركتك ، وصُمَّ الدهر ، واجعلْ فِطرك الموت ، وأما أنا أمثال ماخولك وأضعافه ، لم يسرنى أن أشتغل عن الله طرفة عين ، والسلام !

ومن كراماتها أن لصاً دخل حجرتها وهى نائمة ، فحمل الثياب وطلب الباب فلم يجده فوضعها فوجده ، فحملها فخفى عليه ، فأعاد ذلك مراراً ، فهتف به هاتف : دع الثياب فإننا نحفظها ولا ندعها لك وإن كانت نائمة ! وهذا تحقيق التمكين بقوله تعالى : ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه ﴾ .

وسئلت متى يكون العبد راضياً فقالت : إذا سرته المصيبة كما سرته النعمة ! وكانت شديدة الخوف جداً ، فإذا سمعت ذِكْر النار أغمى عليها ، وكانت تقول لو كانت الدنيا لرجل ما كان بها غنياً ! وقيل كيف ؟ فقالت لأنها تفنى !

وقالوا عن رابعة إنها مكثت أربعين عاماً لاترفع رأسها حياءً من الله ، وذم بعضهم الدنيا فقالت إن رسول الله ﷺ قال من أحب شيئاً أكثر من ذكره ، وذكر كم لها دليل على بطلالة قلوبكم إن كنتم غرقى في غيرها لما ذكرتموها .

وقال مالك بن دينار : أتيتها فإذا هي تقول : كم من شهوة ذهبت لذتها وبقيت تبعثها ! يا رب أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار ؟ !

وقال لها سفيان . ما حقيقة إيمانك ؟ فقالت : ما عبدته خوفاً من ناره ولا حباً لجنته ، فأكون كالأجير السوء ، وإنما عبدته حباً وشوقاً إليه !

ومن مناجاتها : إلهي ! تحرق بالنار قلباً يحبك ! فقيل لها لا تظنى بنا الظنون ! وكانت تنشد :

إنى جعلتك في الفــــؤاد محدثى وأبحثُ جسمى من أراد جلــــوسى
فالجسم منى للجليس مــــؤانس وحبيب قلبى في الفــــؤاد أنيسى

وكانت كل ليلة تتطيب وتأتى زوجها (كذا !) وتقول ألك حاجة ، فإن كان له قضى وطره ، فتطهرت ونصبت أقدامها إلى الصباح . وكان كفنها لم يزل عندها ، ويجدون محل سجودها كالماء المستنقع من كثرة البكاء . وكانت تعيب على سفيان رغبته في الدنيا ، فلما سمعته مرة يقول واحزنه طلبت إليه أن لا يكذب ، وقالت : قل واقله حزنه ! واعتبرت أن ميل سفيان للحديث هو من رغائب الدنيا عنده ، وسألته ما تعدون السخاء فيكم ، فقال : أما عند أبناء الدنيا فمن يوجد بماله ، وعند أبناء الآخرة من يوجد بنفسه . فصَحَّحته وقالت : أخطأتم ! إن السخاء أن تعبد حياً له لا طلب جزاء ولا مكافأة ! وضرب رأسها ركن جدار فأدماه ، فلم تلتفت لذلك ، فقيل لها ما تحسين بالآلم ؟ قالت : شُغلى بموافقة مراده فيما جرى شَغَلنى عن الإحساس بما ترون . وسمعت قارئاً يقرأ : ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ﴾ فقالت : مساكين أهل الجنة ! في شغل هم وأزواجهم !! وعاب عليها ابن عربى هذه المقالة ، وقال . إنها ما عرفت ، وإنها لمسكينة ! فإنما شغلهم إنما هو بالله . قال : وهذا من مكر الله الخفى بالعارفين في تجريح الغير ببادى الرأى والتعريض في

حق نفوسهم . إنهم منزّهون عن ذلك ! لكنه مع ذلك بالغ في موضع آخر في مدحها وقال :
إنها في رتبة الشيخ عبد الله القادر الجيلاني ، فقال : السائرون إلى الله بعزائم الأمور
المشروعة على قسمين : طائفة ربطت هممتها على أن الرسول إنما جاء منبهاً ومعلماً بالطريق
الموصلة إلى جناب الحق ، فإذا أعطى العلم بذلك زال من الطريق وخُلّي بينهم وبين الله ،
فهؤلاء إذا سارعوا سابقوا إلى الخيرات ولم يروا أمامهم قَدَم أحد من المخلوقين ، لأنهم قد
أزالوه من نفوسهم وانفردوا إلى الحق . والطائفة الأخرى جعلوا من نفوسهم أنهم لا سبيل
لهم إليه تعالى إلا والرسول ﷺ هو الحاجب ، فلا يشهدون أمراً إلا وأقدام الرسول ﷺ بين
أيديهم . ثم قال : والحالة الأولى هي حالة عبد القادر ، وأبي السعود بن شبل ، ورابعة
العدوية ، ومن جرى مجراهم .

وماتت رابعة سنة ثمانين ومائة ، وقيل غير ذلك ، ومن رأى المناوي أن رابعة البصرية
غير رابعة الشامية ، وأن الأولى تسمية الثانية رابعة بمثناة تحتية فيفترفان ، وكانت
الشامية لها أحوال شتى ، فمرة يغلب عليها الحب ، ومرة الأنس ، ومرة الخوف ، وكانت
زوجاً لابن أبي الحواري ، وكان إذا أراد جماعها نهاراً قالت : أسألك بالله لا تظفرنني
اليوم ! وإذا أراد ليلاً قالت : أسألك بالله إلا ما وهبتني لله الليلة !!

★★★

وفي كتاب النجوم الزاهرة لابن تغري بردي يقول : إن رابعة توفيت سنة ١٣٥ ،
وهي البصرية الزاهدة العابدة ، وكانت مولدة لآل عتيك ، وكان سفيان الثوري وأقرانه
يتأدبون معها ، وكانت تصلي الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجعة خفيفة
حتى يسفر الفجر ، ثم تثب إلى الصلاة وتقول : يانفس ! كم تنامين ! وإلى كم لا تقومين !
يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا بصرخة !

★★★

ويذكر ابن تغري بردي في كلامه عن الذين توفوا سنة ١٨٠ ، ممن ذكر الذهبي
وفاتهم في هذه السنة ، أن منهم رابعة التي تقدّمت وفاتها في قول غير الذهبي .

★★★

وفي كتاب نفحات الأنس من حضرات القدس لعبد الرحمن جامي ، في ذكر العارفات
الواصلات إلى مراتب الرجال رابعة العدوية رحمها الله ، وكانت من أهل البصرة وكان
يزورها سفيان الثوري رضى الله عنه ويسألها بعض المسائل ، وكان من المولعين بوعظها
ودعائها ، وقد سألها يوماً عن خير ما يتقرب به العبد إلى الله ، فأجابت : ألا يملك في الدنيا
والآخرة شيئاً سواه !

★★★

وفي كتاب شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي عن أخبار سنة ١٢٥ أن رابعة بنت
اسماعيل البصرية العدوية ، شهيرة الفضل ، ماتت فيها ، وقيل توفيت سنة خمس
وثمانين ومائة ، وقبرها على رأس جبل سمى الطور بظاهر بيت المقدس ، وقيل رابعة أخرى
غير العدوية .

★★★

وفي كتاب سير السالكات المؤمنات الخيرات لأبي بكر الحصني : أن رابعة العدوية
منهن ، وكانت عجوزاً كبيرة بنت ثمانين سنة ، كأنها الشنّ تكاد تسقط وتحتها بارية ،
وكانت إذا ذكر الموت انتفضت وأصابتها رعدة ، وكانت إذا مرت بقوم عرفوا فيها العبادة ،
ورابعة زوجة أحمد بن أبي الحواري خادماً أبي سليمان الداراني رضى الله عنهم
بخلافها ، فهذه شامية ، ورابعة العدوية بصرية .

★★★

وفي سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي : أنها البصرية الزاهدة العابدة الخاشعة
أم عمرو رابعة بنت إسماعيل ، ولاؤها للعتكين ، ولها سيرة في جزء لابن الجوزي ، وقال
عنها أبو سعيد بن الأعرابي أن الناس حملوا عنها حكمة كثيرة ، وكذلك حكى سفيان ما
يدل على بطلان ما قيل عنها وقد تمثلت بهذا البيت :

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسى

فنسبها بعضهم إلى الحلول بنصف البيت ، وإلى الإباحة بتمامه . قلت فهذا غلو وجهل ، ولعل من نسبها إلى ذلك هو نفسه الإباحي الحلولي ليحتج بها على كفره كاحتجاجهم بخبر « كنت سمعه الذي يسمع به ... » ، قيل عاشت ثمانين سنة ، وتوفيت سنة ثمانين ومائة ، وأما رابعة الشامية العابدة فأخرى مشهورة ، وهى أصغر من العدوية ، وقد تدخل حكايات هذه فى حكايات هذه .

★★★

وفى شرح حال الأولياء للشيخ عز الدين بن عبد السلام أن رابعة سئلت عن المحبة فقالت ليس للمحب وحبيبه بين ، وإنما هو نطق عن شوق ، ووصف عن ذوق ، فمن ذاق عرف . ومن وصف فما اتصف ، كيف تصف شيئاً أنت فى حضرتـه غائب ، وبوجوده دائب . وشهوده ذاهب ، وبصحوك منه سكران ، وبفراغك له ملآن ، وبسرورك له ولهان ' فالهيبة تحرس اللسان عن الإخبار ، والحيرة توقف الجبان عن الإظهار ، والغيرة تحجب الأبصار عن الأغيار ، والدهشة تعقل العقول عن الإقرار ، فما ثم إلا دهشة دائمة ، وحيرة لازمة ، وقلوب هائمة وأسرار كاتمة ، وأجساد من السقم غير سالمة ، والمحبة بدولتها الصارمة فى القلوب حاكمة .

وارحمتاً للعاشقين ! قلوبهم	فى تيه ميدان المحبة هائمه
قامت قيامة عشقهم فنفسهم	أبدأ على قدم التدل قائمه
إمّا إلى جنّات وصل دائماً	أو نار صرّ للقلوب ملازمه

وسئلت رابعة وهى منْ هى فى ميدان المحبة كيف سميت رابعة فأنشدت

كأسى وخمرى والنديم ثلاثة	وأنا المشوقة فى المحبة : رابعه
كأس المسرة والنعيم يديرها	ساقى المدام على المدى متتابعه
فإذا نظرت فلا أرى إلا له	وإذا حضرت فلا أرى إلا معه
ياعاذلى إنى أحب جماله	تالله ما أذنى لعذك سامعه
لا عبرتى ترّقاً ولا وصلى له	يبقى ولا عينى القريحة هاجعه

وفي شفاء السائل لتهديب المسائل لعبد الرحمن بن خلدون : يروى عن شطحة
لرابعة قولها : « لو وضعت خمارى ما بقى بها أحد » ، ويفسر هذا الحال بأنها حال غيبة
وسُكر ، يكون فيها الكلام بما لا يجوز الكلام فيه . كما نُقِلَ عن أبى يزيد البسطامى فى
قوله : « سبحانى ما أعظم شأنى » ، وقوله « جزت بحرًا وقف الأنبياء بساحله » .

★★★

وفي تفسير المنار عند شرحه للآية الكريمة : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ (الجزء
العاشر) يقول : وللصوفية الشرعيين فى حب الله منازل عالية ومقامات راسخة ومعارف
واسعة فى حب كل شىء بحب الله . قالت رابعة العدوية .

أحبك حبين : حـبـب الهوى	وحباً لأنك أهل لـذاكـا
فأما الذى هو حب الهوى	فذكر شُغِلْتُ به عن سواكـا
وأما الذى أنت أهل له	فكشفت الحُب حتى أراكـا
فما الحمـد فى ذا ولذاك لى	ولكن لك الحمـد فى ذا وذاكـا

والذى نفهمه من هذا الشعر أن الحب الأول هو حب العبودية ، وهو حيرة شاغلة عن
كل ما عداها ، والثانى حب المعرفة ، وغايتها رفع الحُب الكثيرة المانعة من كمالها إلى
التكامل بكرامة الرؤية فى الآخرة .

★★★

وفي إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى : أن رابعة سئلت . كيف رغبتك فى الجنة ؟
فقالت . الجار ثم الدار ! فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها ، بل عن كل
شىء ، سواء حتى عن أنفسهم ، مثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه المستوفى همّه
بالنظر إلى وجهه والفكر ، فإنه فى حال الاستغراق غافل عن نفسه لا يحس بما يصيبه فى
بدنه ، ويُعبّر عن هذه الحالة بأنه فنى عن نفسه ، ومعناه أنه صار مستغرقاً بغيره ، وصارت
همومه هما واحداً وهو محبوبه ، ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت إليه ، لا

لنفسه ولا غير نفسه . وهذه الحالة هى التى توصّل فى الآخرة إلى قرة عين لا يتصوّر أن
تخطر فى هذا العالم على قلب بشر .

وفى روض الرياحين عن مناقب الصالحين لعبد الله بن أسعد اليافعى : يروى أن
بعضهم خطر له أن يزور رابعة العدوية رضى الله عنها . وأنظر أصادقة هى فى دعواها أم
كاذبة ، فبينما أنا كذلك وإذا بفقراء قد أقبلوا ، وجوههم كالأقمار ، ورائحتهم كالمسك ،
فسلموا علىّ وسلمت عليهم ، وسألتهم من أين أقبلتم ؟ فقالوا : ياسيدى حديثنا عجيب !
فقلت لهم : ما هو ؟ فقالوا : نحن من أبناء التجار المولدين ، وكنا عند رابعة العدوية رضى
الله عنها ، فقلت : وما سبب زهابكم إليها ؟ فقالوا : كنا من الملتهين بالأكل والشرب فى بلدنا ،
فنبّل لنا حُسن رابعة العدوية وحُسن صوتها . فقلنا لا بد أن نذهب إليها ونسمع غناءها
وننظر حسننها ، فخرجنا من بلدنا إلى أن وصلنا إلى بلدها ، فوصفوا لنا بيتها ، وذكروا لنا
أنها قد تابّت ، فقال أحدها : إن كان قد فانتنا حُسن صوتها وغنائها فما يفوتنا حُسن
جمالها ! فغيرنا حُلّتنا ، ولبسنا لبس الفقراء ، وأتيننا بابها فطرقنا الباب ، فلم نشعر إلا وقد
خرجت إلينا وتمرغت بين أقدامنا وقالت : لقد سعدت بزيارتكم لى . فقلت لها : وكيف ذلك ؟
فقالت : عندنا امرأة عمياء منذ أربعين سنة فلما طرقتم الباب قالت : إلهى وسيدى بحرمة
هؤلاء الأقدام الذين طرّقوا الباب ، ألا ما رددت علىّ بصرى ؟ فردّ الله عليها بصرها فى الوقت ،
فعند ذلك نظر بعضنا إلى بعض وقلنا ترون إلى لطف الله بنا لم يفضح سريرتنا . وقال الذى
أشار علينا بلبس الفقراء . والله لا عدتُ أقلع هذا اللباس من علىّ ، وأنا تائب إلى الله عز وجل
على يدى رابعة . فقلنا له : ونحن رافقناك على المعصية ، ونحن نوافقك على الطاعة والتوبة ،
فتبنا كلنا على يديها ، وخرجنا من أموالنا جميعاً ، وصرنا فقراء كما ترى .

وفى روضة التعريف بالحب الشريف لابن الخطيب يقول : إن رابعة حين سئلت من
أنت ؟ قالت : كنت أضرب الدف والطبل فما سمع غيرى .

بِاللّٰهِ يَا رِيحَ الصَّبَا	مُرَى عَلَى تِلْكَ الْوَرَبَا
وَبَلْغَى رَسْمِيَّاتِي	بِنَصْهَهَا أَهْلَ قَبَا
وَاحْرَبَا وَهَلْ يَرْد	فَائِتَا وَاحْرَبَا

★★★

وفي حلية الأولياء للأصبهاني : أن ذا النون المصري في تيهه بنى إسرائيل (يعني سيناء) مع سعيد بن عثمان وإذا بشخص قد أقبل فقال سعيد : أستاذ ! شخص قادم . فقال ذو النون : أنظروا فإنه لا يضع قدمه في هذا المكان إلا صديق . فنظرت فإذا امرأة فقلت : إنها امرأة . فقال . صديقة ورب الكعبة . فابتدر إليها وسلم عليها ، فردت السلام ثم قالت : كلمة بروحها للرجل ومخاطبة النساء ؟ فقال لها . إنى أخوك ذو النون ولست من أهل التهم . فقالت : مرحباً حياك الله بالسلام . فقال لها : ما حملك على الدخول إلى هذا الموضع ؟ فقالت . آية في كتاب الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ فكلما دخلت إلى موضع يُعَصَى فيه لم يهنئني القرار فيه بقلب قد أبهلته شدة محبته ، وهام بالشوق إلى رؤيته . فقال لها : صفى لى ! فقالت . يا سبحان الله ! أنت عارف تتكلم بلسان المعرفة وتساألنى ؟ فقال . يحق للسائل الجواب . فقالت . نعم . المحبة عندي لها أول وآخر ، فأولها لهج القلب بذكر المحبوب ، والحزن الدائم ، والتشوق اللازم ، فإذا صاروا إلى أعلاها شغلهم وجدان الخلوات عن كثير من أعمال الطاعات ، ثم أخذت في الزفير والشهيق وأنشأت تقول .

أحببك حبين : حب الهوى	وحباً لأنك أهل لـذاكـا
فأما الذى هو حب الهوى	فذكر شُغِلْتُ به عن سواكـا
وأما الذى أنت أهل له	فكشفتك الحُجب حتى أراكـا
فما الحمـد فى ذا ولا ذاك لى	ولكن لك الحمـد فى ذا وذاكـا

★★★

وفي تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار : أن رابعة العدوية كأنها مريم ثانية ، صافية صفية ، مستورة مخدورة ، والهة بالعشق والشوق ، ومتحرقة إلى القرب ، وقد فنيت في الوصال فصارت مقبولة من الرجال ، ومعدودة في صفهم ، كما قال الأنبياء إن الله لا ينظر إلى صوركم . فليست العبرة بالصورة بل بالنية ، كما قال عليه السلام يحشر الناس على نياتهم ، فإذا كنا نأخذ عن عائشة الصديقة رضى الله عنها ثلث الدين ، فمن الجائز أن نتلقى عن إحدى خداماتها وهى رابعة العدوية . فالمرأة التى تسلك الطريق إلى الله كالرجل - لا يمكن أن ننظر إليها كامرأة ، وقد قيل إننا يوم القيامة إذا دعينا يا رجل فأول المتقدمين سيكون مريم عليها السلام . ورابعة كان الحسن البصرى إذا لم يرها فى المجلس حاضرة تركه ، ومعنى ذلك أن المرأة كالرجل فى التأله ، ولا تفريق فى التصوف بين المرأة والرجل ، وفى توحيد الله ماذا يتبقى من الأنا والأنثى ، وكما قال أبو على الفارمذى رضى الله عنه فإن النبوة عين العزة والرفعة ، فليس فيها سمو ولا انحطاط ، والولاية كذلك . وكانت رابعة فريدة فى تعاملها مع الله ، وفى معرفتها ، وهى من كبار صوفية زمانها ، وحجة عند معاصريها ، وفى الليلة التى ولدت لم يكن من شىء فى بيت أهلها ، فأبوها فقير ، ولم يكن فى البيت قطرة سمن يدهنوا بها موضع خلاصها ، ولا ما يستنبروا به ، ولا قطعة قماش يلقون بها الوليدة ، وكانت للأب ثلاث بنات ، فسميت رابعة ، لأنها رابعتهن . وسألته زوجته أن يذهب إلى الجيران فى طلب نقطة زيت لإضاءة المصباح ، ولكنه كان قد عاهد نفسه ألا يسأل الناس شيئاً ، ولو طَلَبَ لأعطوه ومع ذلك ذهب إلى الجارة ودق الباب ، وعاد يقول إنهم لم يفتحوا له ، وبكت امرأته ، ونام الرجل فرأى الرسول ﷺ فى منامه يقول له أن لا يحزن ، فهذه البنت الوليدة هى سيدة ، وأن سبعين ألفاً من أمته ليرجون شفاعتها ، وأمره أن يذهب فى الغد إلى أمير البصرة عيسى زاذان ، ويكتب له ورقة يقول له فيها إنه يصلى مائة صلاة فى اليوم وأربعمائة صلاة يوم الجمعة ، إلا أنه نسى الله فى الجمعة الفائتة وعليه أن يكفر عن ذلك بأربعمائة دينار من ماله الحلال يدفعها لكاتب هذه الورقة ، وعندما استيقظ أبو رابعة كتب الرسالة وأعطاها للحاجب يوصلها للأمير ، وقرأها الأمير فأمر بأن يُصَرَفَ لكاتب الرسالة الأربعمائة دينار بالإضافة إلى ألف أخرى يقسمونها على الصوفية وأمر الحاجب أن يحضر له من أعطاه الورقة ليراه ، ولكنه استدرك وقال بل إنه هو الذى سيذهب إليه بنفسه ، لعل الله يغفر له ، وسأل الرجل أن يطلب منه أى شىء وكل ما يلزمه .

وكبرت رابعة ، وتوفت الأم ثم الأب وحدثت مجاعة في البصرة فتمزق شمل الأسرة وتفرقت أخواتها ، وخرجت رابعة تهيم على وجهها ، حتى رآها من سولت له نفسه أن يأسرها ويبيعها بستة دراهم إلى شخص أخذها إلى بيته خادمة ، وأثقل عليها العمل ، وخرجت يوماً تقضى مصلحة ، فتبعها رجل فخافت وهربت ، وضلت الطريق فارتمت على الأرض تبكى وتنأجى ربها أنها يتيمة وأسيرة ، وأنها تائهة ، فهل كان ذلك لأن الله غير راض عنها وهتف بها هاتف من أعماقها لا تحزنى لأنه في يوم الحساب فإن المقربين سينظرون إليك ويحسدونك على ما أنت فيه ، وأثلج صدرها أن تسمع ذلك ، فسعت إلى بيت سيدها وصارت تصوم وتخدم سيدها وتصلى لربها وتقوم الليل ، وفي ليلة استيقظ سيدها يقضى حاجة فنظر حيث رابعة فوجدها ساجدة ، وسمعها تقول يا رب ! لكم يتمنى قلبي طاعتك وأن أبذل عمري متعبدة لك ، ولو كان أمرى بيدي لما توقفت عن هذه العبادة ، ولكن أمرى بيد سيدي ! ورآها سيدها وكأن هالة من النور تحيط برأسها وهى ساجدة تصلى وتضرع إلى الله وقد ملأ النور البيت كله فتعجب وعاد مهموماً إلى حجرته يفكر في أمر رابعة حتى طلع النهار فنأدى عليها وتحدث إليها وأعتقها وسألها أن تبقى في بيته لو شاءت وسيكون الجميع في خدمتها ، وأن تنطلق حرة إذا رغبت ومتى شاءت ، وودعت رابعة أهل البيت ورحلت وانقطعت للعبادة كما كانت ترجو . وقيل إن رابعة كانت تصلى كل يوم وليلة ألف ركعة وأنها كانت من المواظبين على حضور مجالس الحسن البصري ، وقيل في رواية أخرى أنها كانت تعزف على الناي وظلت على ذلك لفترة ، ثم تابت وبنت لنفسها خلوة انقطعت فيها للعبادة . ويروى عنها أنها ذهبت للحج وكان لها حمار يحمل متاعها فنفق ، وتطوع من كانوا معها من القافلة أن يحملوا المتاع على دوابهم ، ولكن رابعة قالت إنها لما نوت الحج لم يكن اعتمادها عليهم بل على الله ، فرحلوا وتركوها ، فقالت تنأجى ربها : أهكذا يفعل الملوك بالمستضعفين من عبيدهم ؟ وهل من الممكن أن يسمح الله تعالى بأن ينفق حمارها ويتركها الجميع وحيدة في الصحراء ، وما كادت تنتهي من كلامها حتى نهض الحمار حياً يسعى فوضعت عليه متاعها وسارت في طريقها لتلحق بالقافلة . وقيل إنها في حجة أخرى كانت وحدها في الصحراء وقد أصابها الإعياء فتوجهت بنظرها إلى السماء وقالت : يا رب أنا لبنة والكعبة حجر ! وما أردت من حجتى أن أرى الكعبة وإنما لأشاهد

وجهك ! فهتف بها هاتف أن ما تطلبه لمستحيل وقد سبقها إلى ذلك موسى ،، فلما تجلى الله للجبل جعله دكًا وخرّ موسى صعقًا ، وقيل أيضًا أن رابعة في مرة أخرى انتوت الحج وهمت به ، فرأت الكعبة قادمة نحوها عبر الصحراء فقالت رابعة لا أريد الكعبة ولكن رب الكعبة ! أما الكعبة فماذا أفعل بها : ورفضت النظر إليها !

وكان إبراهيم بن أدهم قد قضى أربعين سنة في طريقه إلى الكعبة لأنه كان يصلي ركعتين كلما خطى خطوة . وكان يقول غيرى يسافر على قدميه وأنا أسافر على رأسي ! وبعد أربعين سنة عندما بلغ الكعبة لم يجدها في مكانها فبكى ، وظن أن العمى قد لحقه فلم ير الكعبة في مكانها ، وإذا بهاتف يهتف به أنه لم يصب بالعمى كما ظن ، وإنما الكعبة قد انتقلت إلى رابعة لملاقاتها ، وتأثر إبراهيم ، ثم رأى الكعبة تعود إلى مكانها ، ورأى رابعة قادمة مستندة إلى عصاها ، فقال لها . يا رابعة ! ما هذه الضجة التى صنعتها لنفسك ! فالكل يقول إن الكعبة ذهبت للقاء رابعة ! وأجابته . وما هذه الضجة التى صنعتها لنفسك والكل يقول إبراهيم أمضى أربعين سنة حتى بلغ الكعبة ، لأن إبراهيم يتوقف كل خطوة ليصلي ركعتين ! فقال إبراهيم : نعم أمضيت أربعين سنة أشق طريقى في تلك الصحراء ! وعلقت رابعة : نعم يا إبراهيم ! أنت جئت بالصلاة وأنا جئت بالفقر ! وبكت . ولما زارت الكعبة عادت أدراجها إلى البصرة ، وخطر لها أن حجها ربما لم يكن صحيحًا ، فصاحت : يا رب ! وعدت بجزائين لشيئين ، للقيام بالحج ، والصبر على المصائب فإن لم يكن حجى مقبولاً عندك فما أكبر مصيبة ذلك عندى ! لكن ما جزائى على هذه المصيبة ؟

وفي السنة التى بعدها قالت : إذا كانت الكعبة قد أقبلت إلىّ في العام الماضى فأنا التى سوف أقبل عليها هذا العام . وروى الشيخ أبو على الفارمذى أن رابعة في موسم الحج قصدت إلى ناحية الصحراء وهى لا تستطيع المشى ، فما كان منها إلا أن رقدت على جانبها وأخذت تتقلب وتقطع المسافة على هذا الحال إلى أن بلغت الكعبة، وقيل بلغتها بعد سبعة أعوام . فلما بلغتها هتف بها هاتف من أعماقها أن يا رابعة ! ما الذى تقصدين إليه ؟ إن كنت تريدين الله فسيجعل لك وعدئذ تذوبين كما يذوب الماء ! فقالت : يا رب ! وهل أقوى على ذلك وليست لى الطاقة لبلوغ هذه المرتبة وإنما لا أطلب إلا ذرة من الفقر الروحى ! فهتف بها

الهاتف يا رابعة ! الفقر رجاء الأولياء الذين يخافون الله ، وقد يحدث ولم يبق عليهم إلا شعرة ليبلغوا إلينا أن يفسد أمرهم ولا يصلون ، أما أنت فلازلت محجوبة بسبعين حجاب ، فطالما لم تخرجى منها ولم تضعى قدمك بعد على الطريق إلينا فإنك لن تستطيعى الكلام فى الفقر . يا رابعة ! انظرى إلى أعلى ! ونظرت رابعة فرأت بحرًا من الدم ، وقال الصوت : يا رابعة ! إن هذا البحر من دموع الدم المسفوحة من عيون من أحبونا وسعوا إلينا ، ومنذ المقام الأول انتهى أمرهم حتى لم يعد منهم أثر لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ! وصاحت رابعة : يا رب ! أطلعنى على بعض ما يناله هؤلاء العشاق لك من السعادة ! وما أن انتهت من كلماتها إلا وجاءها الحيض ، وزالت عنها الطهارة ، ومع ذلك هتف بها الهاتف : إن المرتبة الأولى التى يبلغها العشاق هى لأمثال من تقلب على أضلاعه سبع سنوات كى يزور بيتًا من الحجارة ، ولما اقترب من البيت حيل بينه والوصول لشيء من نفسه ! وكادت رابعة تياس ونادت : يا رب ! أنت لا تتركنى لحالى فى بيتى ولا تريد أن تقبلنى فى بيتك ! فيما أن أعود أدراجى إلى البصرة حيث بيتى ، وإما أن تقبلنى فى بيتك ! ولقد بحثتُ عنك قبل أن أدخله ، ولكن يبدو أنى لا أستحق دخوله فلم تأذن لى بمشاهدتك ، فلتأذن لى إذن بالانصراف ! وعادت رابعة إلى البصرة من غير أن تحج وأقامت فى خلوتها منقطعة للعبادة ولم تفكر مرة أخرى فى السفر إلى الكعبة .

ويروى أنها كانت يوماً فى بيتها وجاءها صالحان يزورانها ولم يكن لديها سوى رغيفين همّت بأن تقدمهما لهما ، إلا أن سائلاً طرق الباب فأعطته الرغيفين ، وتملّك الصالحين العجب ، وإذا بخادمة تطرق الباب وتقدم لرابعة صُرة تفتحها لها وتقول تفضل مع تحيات سيدتى ، وأخرجت رابعة منها أرغفة أحصتها فوجدتها ثمانية عشر ، فأعادتها للخادمة وطلبت منها أن تقول لسيدتها أنها أخطأت العدّ ، وذهبت الخادمة وعادت بالأرغفة ، فأحصتها رابعة ووجدتها عشرين ، وسألها الصالحان عن القصة ، فذكرت لهما أنها لمّا أعطت السائل رغيفين قالت: يا رب ! أنت قلت الحسنة بعشرة أمثالها ، وأنا من أجلك أعطيت الرغيفين فأعطينى عشرة عن كل واحد ! فلما حضرت الخادمة بالثمانية عشر رغيفاً قالت: إما أن أحدهم أنقص العدد رغيفين ، وإما أن هذه الأرغفة ليست لى ، ورددتها ، فلما عادت الخادمة بالعشرين عرفت أنها لى .

وحدث في إحدى الليالي وكانت رابعة في تهجدها أن دخلت قصبه في عينيها دون أن تحس بها ، فقد كانت مستغرقة في تعبدها بحكم إخلاصها لله ومحبتها الشديدة له وقد استحكمت في قلبها . ويحكى عنها أيضاً أن لصاً دخل بيتها وسرق بعض ملابسها ، وسعى إلى الباب يريد الخروج فلم يجده ، فوضع الملابس فوجد الباب ، فأخذهم فضّل عنه الباب ، وفعل ذلك سبع مرات ، فكلما أخذ الملابس ضلّ الباب ، فإذا أعادها وجده ، وسمع من يقول له : أيها اللص ! لا فائدة من محاولة الخروج بالملابس ، رابعة قد أكلت أمرها إلى الله فلا نسمح لأحد بالدخول إليها حتى إبليس نفسه ! وأنت تريد سرقتها ونحن موكلون بالسهر عليها في نومها !

ويروى عنها أيضاً أن خادمتها كانت تطبخ طعامها بالزيت ولم يكن لديها بصل ، فاستأذنتها أن تسأل جارتهم بعض البصل ، ولكن رابعة قالت لها أنها قد عاهدت الله أن لا تسأل أحداً شيئاً غيره منذ أربعين سنة ، فإذا لم يكن هناك بصل فلا لزوم له . وما كادت تنتهي من كلامها إلا وطائر يحمل بصلأ في منقاره ، عبارة عن قطع صغيرة يلقيها تباعاً في المقلاة ، ولم تغتر رابعة بما رأت ، ولم تتناول من هذا الطعام واكتفت بالخبز ، وقالت : ربما كان ما رأيته من خداع الشيطان .

ويروى عنها أيضاً أنها سعدت جبلاً فأقبلت الغزلان تطوف بها ولا تستشعر الخوف منها ، وجاء الحسن البصري فما أن رآته الغزلان حتى فرت هاربة ، فقال لها : يا رابعة ! أرى أن الغزلان فرّت لما رأتني ولم تفر منك أنت . فسألته رابعة عما تناول من طعام قبل حضوره فقال : إنه تناول طعام بالزيت ، فقالت رابعة : وكيف تريد منها إذن أن لا تفر منك وأنت تأكل من دهنها !

وفي رواية أخرى لفريد الدين العطار أن الحسن البصري خرج إلى رابعة في الصحراء وقد أحاط بها سرب من الحيوان من الغزلان وغيرها ، فما كادت ترى الحسن مقبلاً حتى فرّت من حولها ، فلما شاهد الحسن ذلك وفهمه استشعر الغيرة مما بلغته رابعة فسألها عن سبب فرارها وعما إذا كانت لم تره أهلاً لها مثلها . واستفسرت رابعة منه عما أكل قبل قدومه فقال : كان عندي بصل قديم وقليل من الدهن ، فأردت أن أتقوى ببعض ذلك وهو ما

أكلته قبل قدومي . وعندئذ صاحبت رابعة أكلت من دهن هذا القطيع المسكين فكيف لا تريدها أن تفر منك ؟ لو كنت إنساناً خفيف الزاد كالنملة لما نال منك الدود في قبرك . ولو كنت لا تأكل في اليوم إلا ثمرة واحدة لسلم جسمك في القبر من الدود فهل تريد أن تكون طعام الدود ؟ إن الثمرة الواحدة أفضل لك من أن تجعل نفسك هدف الدود ليسمن على حسابك . ولكنك صاحب مطبخ ومرحاض ، وتريد أن تملأ معدتك ، وما أرى إلا أنك تنوى أن تعين الدود في طعامه وشرابه ' وإن لم تتخلص من ذلك فلن يكون مآلك إلا الجحيم بعد الجحيم ، بذهابك من المطبخ إلى المرحاض . أنت لا تصبر على الطعام وتتصور أنك بالأكل ربحان ' ورغم ما قيل لك من أن تظهر روحك فأنت مُصر على تسمين جسدك ' فلنكن لباطنك عليك حرمة ، فما أرى إلا أن تعبدك في الظاهر فقط . لقد قال رجل أضاء الروح في نفسه إذا أكلت لقمة فاجلس واضرب جسدك '

ويروى أيضاً أن الحسن البصري رآها يوماً جالسة على شاطئ الفرات ، فنشر سجادته على الماء وطلب إليها أن تعبر إليه ليصليا . وتعجبت منه رابعة وقالت : شطارة أهل الدنيا تريد أن تظهرها لأهل الآخرة ' لو كنت تريد أن تظهر بشيء فأظهر ما لا يستطيع الناس فعله ' ثم ألقَت سجادتها في الهواء وطلبت إليه الصعود إليها حيث الأمان أكثر والعيون لا ترى عجيب فعلها ! وأردقت تريد التخفيف عليه : يا سيدي ' ما فعلته أنت يفعله السمك ! وما فعلته أنا يفعله الذباب ! والمهم أن نبلغ درجة أعلى من هاتين الدرجتين اللتين بلغناهما أنا وأنت '

ويروى عن الحسن البصري أنه قال أنه بقى ليلة ويوماً في ضيافة رابعة يتناقشان وقد أنستهما حرارة النقاش أنهما رجل وامرأة ، ولما انتهيا شَعُر الحسن أنه لم يكن في نقاشه إلا فقيراً بينما كانت هي غنية بإخلاصها .

وفي مرة أخرى توجه الحسن البصري وبعض أصحابه إلى رابعة وكان الوقت ليلاً ، فاحتاجوا إلى مصباح وعندئذ وضعت رابعة إصبعها في فمها ثم أخرجته فظل يضيء لهم مثل النور حتى مطلع الفجر . وإن تشكك أحد في هذه الكرامة فليعلم أن يد موسى عليه السلام كانت تضيء بالنور . وإن قيل إن موسى عليه السلام كان نبياً ورابعة ليست

كذلك ، فالجواب أن من يقوم بأوامر الله على لسان أنبيائه إنما يشارك في قدرتهم على تحقيق المعجزات وإذا كانت للأنبياء معجزات فللأولياء كرامات ، وهى حقيقة أكدها رسول الله ﷺ حين قال : « من رد دانقاً من الحرام فقد نال درجة النبوة » .

ويروى أن رابعة أرسلت يوماً إلى الحسن البصرى ثلاثة أشياء : قطعة شمع ، وإبرة ، وشعرة ، وطلبت إليه أن يشتعل كالشمعة فيضيء للناس ، وأن يبدأ بالتجرد ثم يعمل كالإبرة ، فإن فعل ذلك فإن مآلة أن يصير نحيلاً كالشعرة . وتلك نصيحتها له إن أراد ألا يذهب جهده سدى .

ولما سألها الحسن البصرى أن تتزوجه ردّت عليه بأن الزواج ضرورى لمن يكون له الخيار فى أمر نفسه ، وهى لا خيار لها فى نفسها ، فهى لربها ، وفى ظل أوامره ، ولا قيمة لشخصها . وسألها الحسن كيف بلغت هذه الدرجة فأجابت بفنائى بالكلية . وطلب إليها أن تخبره بشيء مما ألهمته ، فحكّت أنها ذهبت إلى السوق تبيع الحبال فباعتها بمثقالين من ذهب لتحصل على الطعام ، فجعلت قطعة فى كل يد لأنها لو أمسكت بهما معاً فى يد واحدة فربما تطمع وتضل الطريق القويم . وقال لها الحسن أيضاً . لو أنى كنت فى الجنة بعيداً من وجه الله مقدار نفّس لبكيت إلى درجة تُشفق على الآخرين . وردت رابعة بأن من يهمل فى الدنيا أو يسبح بحمد الله وهو يبكى ، فذلك هو نفسه ما سيكون عليه حاله فى الآخرة .

وسُئلت رابعة لماذا لا تتزوجين ؟ فقالت . إنها مهمومة بثلاثة أشياء ، وأن من يخلصها من همومها تتزوجه . أولها . هل إذا مت أستطيع أن أتقدم بإيمانى طاهراً ؟ والثانى . هل سأعطى كتابى بيومى يوم القيامة ؟ والثالث : إذا كنت يوم البعث وسبق أصحاب الميمنة إلى الجنة ، وأصحاب المشأمة إلى النار ، فمن أى الفريقين سأكون ؟ ورد عليها الجميع لا نعرف جواباً لما تسألين عنه . فقالت . والأمر كذلك ، وأنا مهمومة بما ذكرت ، فكيف تريدونى أن أتزوج وأفترغ للزوج ؟

وسُئلت رابعة من أين أنت ؟ فقالت من العالم الآخر ! وإلى أين تذهبين ؟ فقالت : إلى العالم الآخر ! وماذا تفعلين فى هذه الدنيا ؟ فقالت : أعبت بها . وكيف تعبثين بها ؟ فقالت : أكل خبزها وأعمل عمل الآخرة !

وقيل لها كذلك أنها بارعة في الكلام فهل عملت حارسة لرباط ؟ فأجابت : إنها فعلاً حارسة رباط ، فهي لا تترك شيئاً من خارجها يدخل إلى داخلها ، ولا شيئاً من داخلها يخرج إلى خارجها . ويسألونها فهل تحبين الله ؟ فقالت : نعم أحبه حقاً وصدقاً . فقالوا : والشيطان هل تكرهينه ؟ فردت أن حبها لله قد منعها عن أن يشتغل قلبها بكراهية الشيطان .

ويروون أن رابعة رأت الرسول عليه الصلاة والسلام في المنام يسلم عليها ، وسألها يا رابعة هل تحبينني ؟ فأجابته مستفهماً وهل هناك من لا يحبك ؟ وقالت إنما حبي لله قد ملأ قلبي فليس منه مكان لأن أحب غيره أو أكرهه !

وقالوا لها : هل ترين من تتعبدين له ؟ فأجابت : لو لم أكن أراه لما عبدته . ويروون عنها أنها كانت تبكي باستمرار وفُسرَت ذلك بخوفها من أن يقال لها في آخر الأمر أنها لا تستحق أن تمثل في الحضرة الإلهية . وسألوها : فهل تقبل توبة التائب ؟ قالت : إن الله إن لم يَمُنَّ عليه بالتوبة فلن يتوب ، فإذا تاب عليه فمعنى ذلك أن توبته مقبولة . ومن أقوالها أن المقامات في الطريق إلى الله يعسر التمييز بينها بيقظة القلب ، فإذا استيقظ القلب رأيت بعيونه الطريق ، واستطعت أن تصل إلى ما تنشد من مقامات . وقالت : من فوائد العلم الروحاني أنه يصرف قلبك عن المخلوق إلى الخالق ، لأن المعرفة هي المعرفة بالله .

ويروى عنها أنها رأت رجلاً قد عصب رأسه فسألته عن ذلك ، فردَّ عليها بأنها توجعه . فسألته عن عمره فقال : عمري ثلاثون سنة ، فسألته : وخلال ذلك هل كنت غالباً مريض أو مُعافى ؟ فقال مُعافى . فقالت : فهل كنت تعصب رأسك وأنت معافى علامة نعمة العافية عليك حتى تشكو الله تعالى الآن بسبب وجع يوم وتعصب رأسك هكذا ؟!

وقيل إن رابعة كانت تعتزل الناس في الصيف وتلزم بيتها لا تفارقه ، وعاتبتهَا خادمتها وطلبت إليها أن تخرج لتشهد قدرة الله في خلقه ، فأجابتهَا بلا أدخلى أنت واشهدي القدرة نفسها . إن عملي أن أشاهد هذه القدرة .

وقيل إن رابعة صامت في إحدى المرات سبع ليالى وسبعة أيام على التوالي ، فلم تكن تأكل شيئاً ولا تنام في الليل ، وانقطعت للعبادة وفي الليلة الثامنة وقد شق عليها قالت في نفسها إلى متى هذا العذاب ! فسمعت لتوها صوت الباب ، فلما فتحت ناولها أحدهم طعاماً في صحن فأخذته ووضعته لتوقد المصباح ، فجاء قط وأكل ما في الصحن ، وتبينت رابعة ما حدث ، فقالت أفطر على حبة ماء ، وذهبت لتحصيل الماء ، فانطفأ المصباح وسقطت جرة الماء من يدها ، فصرخت يا رب ! ماذا تريد بهذه المسكينة ! فسمعت هاتفاً يقول لها : يا رابعة ! لو شئت أعطيتك الدنيا ، ولكن في المقابل ينبغي أن تنزعى من قلبك حبك لله ، لأن الحب لله والدنيا لا يجتمعان ! وتقول رابعة : فعندما سمعت ذلك نزعيت عن قلبي كل حبٍ للدنيا وللدنويات ، ومضت لى الآن ثلاثون سنة لم أصل فيها لله دون أن أردد على نفسى أن صلاتى هذه هى آخر صلاة لى ، ولم أتوقف للحظة طوال ذلك أن أدعو الله أن يفرقنى في حبه ، فلا يشغل قلبى بحب آخر خلاف حبه .

وفي رواية ثانية لفريد الدين العطار : أن رابعة رغم أنها كانت صاحبة مقام وواصلة ، فقد كانت طوال الأسبوع لا تنقطع عن الصيام والصلاة ، حتى إذا اشتد بها الضعف وخذلته ساقها واشتدت بها أوجاع جسدها ، اضطرت إلى تناول شئ من الطعام والشراب وفي إحدى المرات وكانت آلامها مضاعفة وفي قلبها حسرات ، أوقدت المصباح فجاءت قطة وقلبت الطعام ، فذهبت رابعة تشرب من الكوز فوقع من يدها ، فناحت من قلبها واشتعل كبدها الظمآن ، واحترت واستشعرت كأن الدنيا مشبوبة بالنار ، ومادت بها الأرض ودارت رأسها وصاحت . يا رب ! ما هذا ! وماذا يراد بى ؟ وجاءها الجواب لو شئت يا رابعة أن يأتيك الرزق معلوماً لكان لك ذلك ، إلا أنه في المقابل لن تستشعرى الحزن الذى اخترنته في قلبك كل هذه السنين ، ففكرى لأن الاشتغال بى وبالدنيا لا يجتمعان في صدر واحد ، فإن تعلقت بى فاتركى التعلق بالدنيا بالكلية ، ولن يكون عشقك لى خالصاً حتى تتخلصى من إقبالك على الدنيا ، ولن تأتيك محبتى دون مقابل!

وكانت رابعة كثيرة البكاء والنواح وما من سبب لذلك من ألم أو وجع . وسألوها عن ذلك فقالت : إن علّتها التى تتوجع منها ما من دواء لها سوى مشاهدة الله تعالى . وأن ما يعينها على احتمال علّتها إنما هو رجاؤها في أن يتحقق لها ذلك في الآخرة .

وكان زوارها من الصالحين كثيرين ، وسألت مرة بعضهم عن سبب عبادته الله فقال أحدهم : إننا نعبده خوفاً من النار . وقال آخر : بل نعبده خوفاً من النار وطمعاً في الجنة . وقالت رابعة : ما أسوأ أن يعبد العابد الله رجاء الجنة أو مخافة النار ! وتساءلت: إذا لم تكن هناك جنة ولا نار ، أفما كان الله يستحق العبادة ؟ وسألوها : فلماذا تعبدون أنت الله ؟ فقالت . إنما أعبده لذاته . أفلا يكفيني إنعامه على بأنه أمرني أن أعبده ؟

وذهب بعض الصالحين لزيارتها ، وشقَّ عليهم أن يروها في ثياب بالية ، فعاتبوها بدعوى أن ما عليها إلا أن تطلب العون وسيقدمون لها ما تريد ، فقالت . إنها لتخجل أن تسأل الناس من متاع الدنيا لأنهم لا يملكونها ، وإنما هي عارية في أيديهم ! واستحسنوا ما هداها الله إليه من جواب وسألوها : كيف تحققت لك هذه المرتبة الرفيعة وهى المرأة ولم يسبق أن بلغت امرأة مثل ذلك من قبلها ؟ فكان جوابها أنها لم تغتر لذلك ، ولم تتكبر ، ولم تدع الألوهية ، وذلك شأن النساء العابدات عموماً .

ومرضت رابعة يوماً فسألوها عن ذلك فقالت كنت في الفجر ، فاشتقت أن أرى الجنة ، فأصابنى الله المحنة لأتبين من أنا فلا تشتط بى الأشواق . ويروى الحسن البصرى عنها أنه ذهب يعودها يوماً فرأى قبل أن يدخل إليها تاجراً وقد جلس يبكى ، فلما سأله عما يبكيه قال إنه جاء ليعطى رابعة هذا الكيس من الذهب ولكنه يخشى أن ترده عليه ، ورجاه أن يتوسط له عندها في ذلك . ودخل الحسن عليها وقال لها مقالته ، فما كاد ينتهى منها إلا ونظرت إليه بجنب عينيها وذكرته بأن الله الذى يرزق من يسبه ، ألا يرزق من يحبه ؟ وقالت له إنه منذ أن عرفت الله لم تتوجه إلا له ، فكيف لها أن تقبل مالاً من رجل لا تعلم إن كان هو حصّله من طريق الحلال أم الحرام ؟ وروت له أنها في يوم من الأيام وضعت في مصباحها بعضاً من الزيت من بيت السلطان ، ورَفَّت على ضوئه أمزاق ثيابها ، فاغتمت وأظلمت أيامها ، ولم ينور الله عليها إلا عندما أعادت الأمزاق إلى ثيابها التى رَفَّتْها في نور غير نور الله . وطلبت من الحسن أن يذهب إلى التاجر ويعتذر له عن قبول المال .

وانهار بيتها واشتراه منها أحد التجار بألف درهم ذهب ، وببيت كانت حوائطه تزينها التصاوير ، فظلت تتأملها لفترة وقد استغرقتهأ أعاجيبها ، فلم تتمالك إلا أن هتفت بالتاجر

تعيد له دراهمه والبيت ، معذرة بأن قلبها قد يتعلق بما فيه فلا تستطيع من بعد أن تشغل نفسها بعمل الآخرة فهي قد نذرت نفسها لعبادة الله ، وكل ما ترجوه هو أن تتفرغ تماماً لذلك .

وزارها عبد الواحد بن زيد وسفيان الثوري يوماً ، فأصابهما الحزن لما وجداها فيه من أوجاع ، وطلب إليها سفيان أن تدعو ربها يخفف عنها ، فسألتها يا سفيان : فمن رزقني بهذه الأوجاع ؟ فأجاب بأنه الله . فقالت : فإذا كانت هذه هي مشيئته فكيف أتوجه إليه وأشكو ضد إرادته ! وسألها سفيان مرة عما يتمناه قلبها ، فأجابته متسائلة : كيف تسنى لك وأنت عارف أن تسأل عن ذلك ! يعلم الله عنى أننى أتمنى البلح منذ اثنتى عشرة سنة ، وهو فاكهة ليست نادرة بالبصرة ، ومع ذلك لم أطعمه حتى اليوم ، لأنى لست إلا واحدة من عباد الله ، ولا أتصرف كما يتمنى قلبي لأنى لو أردت ولم يرد الله فما جدوى ذلك ؟ وسألها سفيان أن تحدثه عما تراه فيه ما دام هو لا يستطيع أن يحدثها عن نفسها ، فقالت له . أنت على ما يرام لولا أنك تميل لهذه الدنيا . وعندئذ بكى سفيان وتمنى لو يرضى عنه ربه ، فأثبته رابعة لتمنيته أن يرضى عنه الله دون أن يفعل ما يرضى عنه به .

ويروى أن مالك بن دينار ذهب إلى رابعة زائراً ، فشاهدها تشرب من جرة مكسورة ، وفراشها مبسوط على الأرض ، وقد اتخذت لها وسادة من اللين ، فقال لها محسوراً أن له معارف أغنياء ، ويمكنه أن يسألهم شيئاً لها ، فعاتبته لما قال ، وذكرته بأن الله هو الذى يرزقها ويرزقهم . أمّن يرزق الأغنياء لا يرزق الفقراء ؟ وإذا كانت هذه إرادته في فليس بوسعى إلا أن أرضى بما حكم .

وقيل إن مالك بن دينار والحسن البصرى وشقيق البلخى ذهبوا لزيارة رابعة ، فكان حديثهم حول الإخلاص ، فقال الحسن إن من لم يصبر على ضرب مولاه ليس بصادق في دعواه ، فاستدركت رابعة عليه وقالت : هذا غرور . وقال شقيق البلخى . إن من لم يشكر على ضرب مولاه هو الذى ليس صادقاً . واستدركته رابعة وقالت . هناك من هو أفضل من ذلك . فقال مالك : إن من لم يتلذذ بضرب مولاه هو غير صادق . وهتفت رابعة : هناك أيضاً من هو أفضل من ذلك . فسألوها عن ذلك فقالت : ليس بصادق في دعواه من لم ينس

الضرب في مشاهدة مولاه ، مثل نسوة مصر اللائي لم يلحظن أيديهن تقطع عندما رأين وجه يوسف !

وزارها أحد العلماء وأخذ يتحدث عن شرور الدنيا ، فقالت له رابعة إنه لابد يحبها لأن من يحب شيئاً يكثر من ذكره ، ومن يريد لو يشتري ثياباً فإنه لابد أن يكثر من الحديث في الثياب ، وأنهلوا تجرد حقاً من كل ما يتصل بالدنيا لم يكن ليهتم منها لخيراتها أو شرورها .

وقيل إن الحسن البصري ذهب إليها يوماً عند صلاة الظهر ، فتحدثا عن المعرفة بالله ، وكانت قد وضعت على النار قدراً فيه شيء من اللحم ، واستحسنت رابعة الحديث على أن تلتفت لطهو اللحم ، ولم توال النفخ في النار ، وجاءت صلاة المغرب ثم صلاة العشاء ، ولما فرغا منها ذهبت رابعة تحضر ماء وخبزاً جافاً ، وأفرغت ما في القدر فكان اللحم قد طهى بقدرة الله . ويقول الحسن : فأكلت وكان للأكل طعم لم أذوق مثله .

ويحكى سفيان الثوري أنه كان عند رابعة ذات ليلة فصلت حتى أنبلج الفجر ، وصلى هو كذلك ، وفي الصباح وجدها تدعوه لصيام اليوم شكراً لله على ما هيا لهما من الصلوات تلك الليلة . ويحكى سفيان أنها كانت تنادى ربها ملهوفة أنه لو بعث بها إلى النار لأذاعت سرّاً يباعد بينها وبين النار بألف عام . وكانت تقول يا رب ! كل ما كتبت له من خير في الدنيا فاعطه لأعدائك ، وكل ما كتبت له في الجنة فامنحه لأصدقائك ! إني لم أطلب إلا وجهك ! وكانت تقول : يا رب ! لو كنت أعبدك مخافة النار فاحرقني بها ! ولو كنت أطمع في الجنة فلتحرمني منها ! وإن كنت لا أعبدك إلا لوجهك فلا تحرمني مشاهدته !

ويروى أنها قالت يا رب لو أرسلتني إلى النار يوم القيامة فسأصرخ مولولة يا رب ! يا من أحببته كل هذا الحب ! هل ذلك ما تعامل به أحبائك ؟ ! ويروى أن هاتفاً هتف بها لاتظني هذا الظن بالسوء بالله يا رابعة ، لأنه أعد لك بين المؤمنين مقاماً تستطيعين فيه أن تبوحى بأسراره . وكانت رابعة إذا صلت سألت الله أن يصرف عنها الوسواس ، وأن يتقبل صلاتها مع ذلك إن خالطتها الوسواس .

وعندما قاربت الموت جلس حولها بعض الصالحين ، فطلبت منهم أن يتركوها لحالها ليفسحوا المكان لرسول الله ، فلما خرجوا سمعوها تتلو الشهادة ، فلما لفظت أنفاسها تجمعوا حولها وغسلوها وصلّوا عليها ودفنوها . ورؤيت في المنام فسئلت عن جوابها لمنكر ونكير ، فقالت إنهم أتياها وسألاها مَنْ ربك ، فطلبت إليهما أن يعودا أدراجهما إلى حضرة الله تعالى وينقلا عنها أنها لم تنس الله مرة حتى يبعث إليها بمنكر ونكير ويسألانها عن ذلك .

وزار محمد بن أسلم الطوسي ، ونعمى الطرطوسي قبر رابعة ، فسألاها عنده أين هي الآن وهي التي تباهى بأنها لم تنحن للدنيا ولا للآخرة ، وهتف هاتف من قبرها بأن ما هي فيه خير ، وأنها لم تفعل إلا ما كان ينبغي أن تفعله ، وأن الطريق الذي اتخذته هو الطريق الصحيح ، والله وحده أعلم .

★★★

وفي دائرة المعارف للبستانى أن رابعة هي أم الخير بنت اسماعيل العدوية ، البصرية مولاة آل عتيك ، الصالحة المشهورة بالعبادة والتقوى وكثرة الصلاة والصوم ، وكانت من أعيان أهل عصرها في ذلك ، قيل كانت تصلى الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر فتنهض فزعة وتقول : يا نفس ! كم تنامين وإلى كم تقومين ، يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا بصرخة يوم النشور ! وكان هذا دأبها حتى ماتت وكانت تقول في مناجاتها : إلهي ! أتحرق بالنار قلباً يحبك ! قيل فسمعت مرة هاتفاً يقول : ما كنا لنفعل ذلك ! وكانت كثيرة البكاء والحزن ، وإذا سمعت ذكر النار غشى عليها زماناً . وكانت ترد كل ما يعطيها الناس وتقول : مالى بالدنيا حاجة ! وكان كفنها لم يزل موضوعاً أمامها ، وموضع سجودها كهيئة مستنقع لما يجرى من دموعها ، وكانت تقول . ما ظهر من أعمالى فلا أعده شيئاً . وتقول : اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم ! وكانت وفاتها سنة ١٨٥ هـ ، وقيل غير ذلك ، وعمرها فوق الثمانين ، وقبرها في رأس جبل طور شرقى القدس ويزار . ذكرها بن خلكان والشعراني وغيرهما من الأئمة وأوردوا لها عدة مناقب ، وفي بعض الروايات أنها تابت على يد ذى النون المصرى وذلك أنها كانت في

سفينة مع جماعة يشربون الخمر ، فاتفق ركوب ذى النون تلك السفينة لغرض له فى بحر النيل ، فطلبت إليه رابعة على سبيل التهكم أن يسمعهم شيئاً من غنائه كما أسمعوه ، فأنشد :

أحسن من قينةٍ ومزمار فى عشق نغمه القار
يا حسنه والجليد سمعه بطيب صوتٍ ودمعه جار
وخده فى التراب منعفر وقلبه فى محبة البار
يقول ياسيدى وياسندى أشغلنى عنك ثقل أوزارى

وكانت بذلك توبة رابعة على يده . ولكن يظهر أن هذه القصة موضوعة لبعد العهد بين ذى النون ورابعة كما يُعرَف من تاريخ وفاتها .

وفى دائرة معارف القرن العشرين أن رابعة هى أم الخير بنت اسماعيل العدوية البصرية التقية المشهورة ، كانت من أكابر أهل عصرها . قال عندها سفيان الثورى : واحزنناه ! فقالت : لا تكذب بل واقلة حزنائه ، ولو كنت محزوناً لم يتهياً لك أن تتنفس ، وأورد لها السهروردي فى كتاب عوارف المعارف قولها :

وقد جعلتُ فى الفؤاد محدثى وأبحثُ جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليلس مؤانس وحبیبُ قلبى فى الفؤاد أنيسى

وتوفيت سنة ١٣٥ هـ وقيل سنة ١٨٥ هـ .

وفى دائرة المعارف الحديثة : أن رابعة صوفية من القرن الثانى الهجرى ، وهى أم الخير بنت اسماعيل العدوية ، نسبة إلى قبيلة بنى عدى ، ولدت بالبصرة حوالى عام ٩٥

هـ- ٧١٣ م ، وكانت جارية وأُعتقت ثم انقطعت إلى العبادة بعد مرض برأت منه ، فكانت تلبس الصوف الخشن وتصلّي وتبتهل الليل كله ، ومن معاصريها بالبصرة سفيان الثوري ، ومالك بن دينار ، وتوفيت في سن الأربعين .

★★★

وفي دائرة المعارف الإسلامية أنها : ولية متصوفة بصرية مشهورة ، وهى مولاة آل عتيك وهم قبيلة من قيس بن عدى تعرف أيضًا بالقيسية ، ولدت عام ٩٥ هـ (٧١٣/٧١٤ م) ، أو عام ٩٩ هـ ، وتوفيت بالبصرة ودفنت فيها عام ١٨٥ هـ (٨٠١ م) . وقد سُجِّلَتْ لها أبيات من الشعر قليلة ، وذكرها معظم كتّاب الصوفية وأصحاب طبقات الأولياء . ولقد ولدت في بيت فقير وأسرت وهى بعد طفلة ، ثم بيعت ، بيد أن صلاحها أكسبها حريتها ، وانصرفت إلى الإنقطاع عن الدنيا وصدفت عن الزواج ، وأقامت أول أمرها في البادية ، ثم انتقلت إلى البصرة حيث جمعت حولها كثيراً من المريدين والأصحاب الذين وفدوا عليها لحضور مجلسها وذكرها لله والاستماع إلى أقوالها ، وكان من بينهم مالك بن دينار ، والزاهد رياح القيسي والمحدث سفيان الثوري ، والمتصوف شقيق البلخي . وكانت حياتها عكوفاً على الزهد وانقطاعاً عن أسباب الحياة الدنيا . وروى أنها لما سئلت لماذا لا تطلب من أصدقائها العون أجابت : إني لأستحي الدنيا من يملكها فكيف أسأله من لا يملكها ؟ وقالت لصديق آخر : إن الله تعالى هو الذى يرزقنى ويرزقهم (أى الأغنياء) . أفمن يرزق الأغنياء لا يرزق الفقراء ؟ فإذا كانت هذه مشيئته فنحن من جانبنا نرضى عنها كل الرضا ! ونُسبت إلى رابعة كرامات شأنها في ذلك شأن غيرها من أولياء المسلمين ، فقد كان الطعام يأتيها بوسائل خارقة فتُقرى به ضيوفها وتسد رمقها ، ونفق بعير لها وهى تقوم بفريضة الحج فرُدَّتْ له الحياة ليقوم بخدمتها ، ولم تكن في حاجة إلى مصباح لأن النور كان يشع من حولها ، وقد روى أنه لما حضرته الوفاة قالت لأصحابها . انهضوا واخرجوا ودعوا الطريق مفتوحة لرسل الله تعالى ! - فنهضوا جميعاً وخرجوا فلما أغلقوا الباب سمعوا رابعة وهى تقول الشهادة فأجابها صوت : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى في عبادى الدخلى جنتى ﴾ (سورة الفجر الآيات ٢٧ - ٣٠) . ورؤيت رابعة في المنام فسئلت بماذا أجابت منكراً ونكيراً ، فقالت . أتانى منكر

ونكير فسألانى من ربك فأجبت . أيها الملكان ! إذهبا وقولا لحضرة الله تعالى أنت تأمر بسؤالى أنا المرأة العجوز بين هذا العدد من عبيدك ، أنا التى لم أعرف غيرك ؟ أفنسيك مرة حتى تبعث إلى بمنكر ونكير يسألاننى ؟

ومن بين دعواتها دعاء اعتادت أن تررده بالليل من فوق سقف لها . إلهى ! أنارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك ! - ومن دعواتها أيضًا . إلهى ! إذا كنت أعبدك خوفًا من نارك فاحرقنى بنار جهنم ، وإذا كنت أعبدك من أجل محبتك فلا تحرمنى من مشاهدة وجهك ! - وقالت فى التوبة - وهى أول مقامات الصوفية - مجيبةً من سألها : هل لو تبتُ يتوبُ على ؟ فقالت لا ! بل لو تاب عليك لتبت ! - وكان من رأيها أن الشكر يكون على رؤية المنان لا عن منته . ولما طُلب إليها فى يوم من أيام الربيع أن تخرج لتأمل آثار قدرة الله قالت لخادمتها : بل ادخلى أنت وتعالى تأمل القدرة فى نفسها ، وأضافت « إن مهمتى أنا أن أتأمل القدرة ! - ولما قيل لرابعة ما تقولين فى الجنة قالت الجار ثم الدار ! - وقد علق الغزالي على ذلك بقوله : كل من لم يعرف الله فى الدنيا فلا يراه فى الآخرة ، وكل من لم يجد لذة المعرفة فى الدنيا فلا يجد لذة النظر فى الآخرة ، إذ ليس يُستأنف لأحد فى الآخرة ما لم يصحبه فى الدنيا ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع (الإحياء الجزء الرابع ص ٢٦٩) ، ويظهرنا على انقطاعها عن الدنيا قولها لمن سألها من أين أتيت ؟ قالت : من العالم الآخر . وإلى أين تذهبين ؟ قالت : إلى العالم الآخر ! وماذا تفعلين فى هذه الدنيا ؟ قالت : أعبت بها ! وكيف تعبتين بها ؟ قالت : أكل خبزها وأعمل عمل الآخرة ! - وقال أحدهم ساخرًا : إنك بارعة فى الكلام أفلا تصلحين لحراسة رباط ؟ فقالت : إنى حارسة رباط فعلاً ، لأنى لم أدع شيئاً يخرج مما فى داخلى ، ولا أدع شيئاً يدخل مما هو خارج ، وأنا لا أحفل بما يدخل أو يخرج ، فأنا مشغولة بقلبى لا بمجرد الطين ! - ولما سئلت : وكيف بلغت هذا المقام من الولاية ؟ أجابت : بقولى - اللهم إنى أعوذ بك من كل ما يشغلنى عنك ، ومن كل حائل يحول بينى وبينك !

واشتهرت رابعة بأقوالها فى المحبة والأنس بالله ، وهو شغل محبة الشاغل ، وكل محب صادق يبحث عن القرب من محبوبه . ومما أنشدت فى ذلك هذين البيتين :

وإني جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس وحبیب قلبی فی الفؤاد أنیسى

وأظهرت رابعة الحاجة إلى هذا الحب الشامل والعبادة العاكفة بوضعها النار في يد والماء في اليد الأخرى ، ثم أنشأت تقول : سأشعل النار في الجنة ، وأسكب الماء في النار ، حتى ينجاب الغشاء عن طريق السالكين إلى الله ، ويتبين مقصودهم ، ويشاهدون الله لا يحدوهم أمل ولا يفرزعهم خوف . أفئن لم يكن جنة ولا نار لم يعبد الله أحد ولم يطيعه أحد ! (الأفلاكي : مناقب العارفين) . ولما سئلت : كيف حبك للرسول ؟ قالت إني والله أحبه حباً شديداً ، ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين ! - وقالت أيضاً : إن حبي لله لم يترك في قلبي مكاناً لمحبة ما سوى الله ! - وقالت عن عبادتها لله والباعث عليها : ما عبدته خوفاً من النار ، ولا حباً في الجنة فأكون كالأجير السوء ، بل عبدته حباً له وشوقاً إليه ! - وأبياتها عن الحبين يبحث - أولهما عن هواه فحسب ، ويبحث ثانيهما عن ذات الله وجلاله - مشهورة يتردد ذكرها :

أحبك حبين : حب الهوى وحباً لأنك أهل لـذاكـا
فأما الذى هو حب الهوى فذكر شغلته به عن سواكـا
وأما الذى أنت أهل له فكشفك الحجب حتى أراكـا
فما الحمـد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمـد في ذا وذاكـا

ويعلق الغزالي على ذلك مرة أخرى بقوله : ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله ، لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة ، وبحبه لما هو أهل له الحب ، لجماله وجلاله الذى انكشف لها ، وهو أعلى الحبين وأقواهما (الإحياء الجزء الرابع ص ٢٦٧) . وكانت رابعة - كالصوفية جميعاً - تنشد الوصل ، وقالت في بعض أبياتها إن أملها هو الوصل ، وهو غاية منيتها . وقالت أيضاً إنها انقطعت عن الوجود وانسلخت من نفسها واتصلت بالله وأصبحت كلها له !

ونخلص من هذا إلى أن رابعة تختلف عن متقدمى الصوفية الذين كانوا مجرد زهاد ونسّاك ، وذلك أنها كانت صوفية بحق ، يدفعها حب قوى دفاق ، وكانت واعية أن حياتها اتصلت بالله ، كما كانت من أوائل الصوفية الذين قالوا بالحب الخالص الذى لا تقيده رغبة سوى حب ذات الله وحده ، وكانت من أوائلهم أيضاً فى الجمع بين الحب والكشف (المصادر . أهمها العطار تذكرة الأولياء ، وتاج الدين الحصنى سير الصالحات ، وذهنى مشاهير النساء ، وابن خلكان وفيات الأعيان ، والمناوى الكواكب الدرية ، والشعرانى الطبقات الكبرى ، ونفحات الأنس . وأهم المراجع فى أقوالها الغزالي الإحياء الجزء الرابع ، والكلاباذى كتاب التعرّف ، والقشيري الرسالة ، والمكي قوت القلوب ، والكتاب الوافى فى حياتها وبيان مصادرها لمرجريت سميث « رابعة الصوفية وأصحابها من الصالحين فى الإسلام Margaret Smith : Rabbia the Mystic and Her Fellow - Saints in Islam » .



وفى وفيات الأعيان لابن خلكان أنها : أم الخير بنت اسماعيل العدوية البصرية ، مولاة آل عتيك ، الصالحة المشهورة ، وكانت من أعيان عصرها وأخبارها فى الصلاح والعبادة مشهورة . وذكر أبو القاسم القشيري فى الرسالة أنها كانت تقول فى مناجاتها : إلهى ! أتحرق بالنار قلباً يحبك ؟ - فهتف بها مرة هاتف : ما كنا نفعل هذا فلا تظنى بنا ظن السوء ! - وقال عندها يوماً سفيان الثورى : واحزنناه ! فقالت . لا تكذب ! بل قل وأقللة حزنناه لو كنت محزوناً لم يتهياً لك أن تتنفس ! - وقال بعضهم : كنت أدعو لرابعة العدوية فرأيتها فى المنام تقول : هدايك تأتىنا على أطباق من نور ، مخمرة بمناديل من نور ! - وكانت تقول : ما ظهر من أعمالى فلا أعده شيئاً ! - ومن وصاياها . اكنتموا حسناكم كما تكتمون سيئاتكم ! - وقالت لأبيها : يا أبت ! لست أجعلك فى حلّ من حرام تطعمنيه ! فقال لها : رأيت إن لم أجد إلا حراماً ؟ قالت : نصبر فى الدنيا على الجوع خير من أن نصبر فى الآخرة على النار ، - وكانت إذا جن عليها الليل قامت إلى سطح لها ثم نادى . إلهى ! هدأت الأصوات وسكنت الحركات وخلا كل حبيب بحبيبه ، وقد خلوت بك أيها المحبوب ، فاجعل خلوتى منك فى هذه الليلة عتقى من النار !

ولقى سفيان الثوري رابعة - وكانت زرية الحال - فقال لها : يا أم عمرو! - أرى حالا رثة فلو أتيت جارك فلاناً لغير ما أرى . فقالت له : يا سفيان ! وما ترى من سوء حالي ؟ ألسْتُ على الإسلام ، وهو العز الذي لاذل معه ، والغنى الذي لا فقر معه ، والانس الذي لا وحشة معه ! والله إنى لأستحي أن أسأل الدنيا من يملكها ، فكيف أسألك من لا يملكها ؟ فقام سفيان وهو يقول . ما سمعت مثل هذا الكلام . وقالت رابعة لسفيان : إنما أنت أيامٌ معدودة ، فإذا ذهب يومٌ ذهبَ بعضُك ، ويوشك إذا ذهبَ البعض أن يذهب الكل ، وأنت تعلم فاعمل !

وكان أبو سفيان الهاشمي له بالبصرة كل يوم غلة ثمانين ألف درهم ، فبعث إلى علماء البصرة يستشيرهم في امرأة يتزوجها ، فأجمعوا على رابعة العدوية ، فكتب إليها . أما بعد ... فإن ملكي من غلة الدنيا في كل يوم ثمانون ألف درهم ، وليس يمضي إلا قليل حتى أتمها مائة ألف إن شاء الله ، وأنا أخطبك لنفسى ، وقد بذلت لك من الصداق مائة ألف ، وأنا مصيرُ إليك من بعد أمثالها فأجيبيني . فكتبت إليه : أما بعد ... فإن الزهد في الدنيا راحة القلب والبدن ، والرغبة فيها تورث الهم والحزن ، فإذا أتاك كتابي فهى زادك وقدم لمعادك ، وكن وصى نفسك ولا تجعل وصيتك إلى غيرك ، وصم دهرك واجعل الموت فطرك ، فما يسرنى أن الله خولنى أضعاف ما خولك ، فيشغلنى بك عنه طرفة عين والسلام !

وقالت امرأة لرابعة : إنى أحبك في الله ، فقالت لها : أطيعي من أحببتنى له ، وكانت رابعة تقول : اللهم قد وهبت لك من ظلمنى فاستوهبني ممن ظلمته ! - وقال رجل لرابعة : إنى أحبك في الله ، فقالت : فلا تعصِ الذى أحببتنى له ! - وأورد لها الشيخ شهاب الدين السهروردي في كتابه عوارف المعارف .

وقد جعلتُك في الفؤاد محدثي وأبحثُ جسمي من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس وحبيبُ قلبي في الفؤاد أنيسى

وكانت وفاتها في سنة خمس وثلاثين ومائة ، ذكره ابن الجوزي في شذور العقود ،

وقال غيره سنة خمس وثمانين ومائة ، رحمها الله تعالى ، وقبرها يزار ، وهو بظاهر القدس من شرقيّه على رأس جبل يسمى الطور .

وذكر ابن الجوزي في كتاب صفة الصفوة في ترجمة رابعة المذكورة ، بإسناد له متصل إلى عبدة بنت أبي شوال - قال ابن الجوزي : وكانت من خيار إماء الله تعالى يقصد عبدة بنت أبي شوال ، وكانت تخدم رابعة ، قالت : كانت رابعة تصلّي الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر ، فكنّت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذاك وهي فزعة : يا نفس ! كم تنامين ! وإلى كم تقومين ! يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور ! - وكان هذا دأبها دهرها حتى ماتت ! ولما حضرتها الوفاة دعتنى وقالت : يا عبدة ! لا تؤذنى بموتى أحداً ، وكفنينى في جُبتى هذه - وهي جبة من شعر كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون - قالت : فكفناها في تلك الجبة ، وفي خمار صوفٍ كانت تلبسه . ثم رأيتها بعد ذلك بسنة أو نحوها في منامى ، وعليها حُلّة استبرق خضراء وخمار من سندس أخضر لم أر شيئاً قط أحسن منه ، فقلت : يا رابعة ! ما فعلت بالجبة التى كُفناك فيها والخمار الصوف ؟ قالت : إنهما والله نزعا عنى ، وأُبدلت بهما ما ترينه علىّ ، فطويْتُ أكفانى وخُتم عليها ، ورفُعت في عليّين ليُكَمَل لى بها ثوابها يوم القيامة ! فقلت لها : لهذا كنت تعملين أيام الدنيا ! فقالت : وما هذا عندما رأيت من كرامة الله عز وجل لأوليائه ! فقلت لها : فما فعلت عبدة بنت أبي كلاب ؟ فقالت هيهات هيهات ! سبقتنا والله إلى الدرجات العلا ! فقلت : وبم ؟ قد كنت عند الناس أكبر منها ؟ قالت : إنها لم تكن تبالى على أى حال أصبحت من الدنيا وأمست . فقلت لها : فما فعل أبو مالك (أعنى ضيغماً) ، قالت : يزور الله عز وجل متى يشاء . قلت : فما فعل بشرى بن منصور ؟ قالت : بيح بيح ! أعطى والله فوق ما كان يؤمل . قلت : فمرينى بأمر أتقرب به إلى الله عز وجل . قالت : عليك بكثرة ذكره ، يوشك أن تغتبطى بذلك فى قبرك ! رحمها الله !

★★★★★

وفي البداية والنهاية لابن كثير : هى رابعة بنت إسماعيل مولاة آل عتيك ،
العدوية البصرية ، العابدة المشهورة ذكرها أبو نعيم في الحلية ، وابن الجوزى في صفة
الصفوة ، والشيخ شهاب الدين السهروردى في المعارف ، والقشيري في الرسالة ، وأثنى
عليها أكثر الناس ، وتكلم فيها أبو داود السجستاني ، واتهما بالزندقة ، قلعه بلغه عنها
أمر . وأنشد لها السهروردى في المعارف .

وقد جعلتُ في الفؤاد محدثي وأبحثُ جسمي من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس وحبيبُ قلبي في الفؤاد أنيسى

وقد ذكروا لها أحوالاً وأعمالاً صالحة ، وصيامَ نهار وقيامَ ليل ، ورؤيت لها منامات
صالحة ، قاله أعلم ، وتوفيت بالقدس الشريف ، وقبرها شرقيّه بالطور ، والله أعلم .

★★★

وفي الحب الإلهي في التصوف الإسلامى للدكتور محمد مصطفى حلمي : أن المتأمل
فيما أثر عن ذى النون من أقوال منثورة وأبيات منظومة ، يلاحظ أنه يصطنع لفظتى الحب
والمحبة اصطناعاً صريحاً ، سواء في التعبير عن حب الله للإنسان ، أو حب الإنسان لله ،
وذلك على نحو ما فعلت رابعة العدوية . ولا يقف التشابه بينهما عند هذا الحد من المشاركة
اللفظية فحسب ، وإنما تجاوز اللفظ إلى الفكرة الكبرى والغاية العليا التى وجهت الحب
الإلهي عند كل منهما ، فكما كانت غاية رابعة العدوية القصوى هى أن ينكشف عن عين
قلبها كل غين ، وأن لا يكون بينها وبين الله أى بين ، وبحيث يتهيأ لها من مطالعة جمال
الربوبية ما يصرفها عن كل ما سوى الله ، فكذلك كانت غاية ذى النون إذ اتخذ من الله
معقد رغبته ومنتهى مراده ومنيته ، كما يدل على ذلك مناجاته ربه في هذه الأبيات :

أموت وما ماتت إليك صبابتي ولا رويت من صدق حبك أوطاري
منأى المنى كل المنى أنت لى منى وأنت الغنى كل الغنى عند إقصارى
وأنت مدى سؤلى وغاية رغبتي وموضع شكواى ومكنون إضمارى

وفي الحياة الروحية في الإسلام لطفه عبد الباقي سرور : أن الزهد كان هو السمة الأولى التي تميزت بها القلة المستمسكة بالعروة الوثقى ، وكان رأس هؤلاء الرجال في القرن الأول هو الحسن البصري ، ولكن الزهد بذاته مجرداً هو انطواء على النفس وانكماش في ساحات الحياة ، وأما الحياة الروحية الكاملة فانطلاق وانفساح وقوة وإشراق . إنطلاق في آفاق المعرفة ، وانفساح في حياة القلب ، وقوة تدفع إلى خالد العمل ، وإشراق إيمانية عامرة بالفيض والإلهام ، وفناء في المثل الأعلى . ولم تحدث كلمة بعد كلمة التوحيد دويًا كالذي أحدثته كلمة محبة الله التي هتفت بها رابعة ففتحت آفاق المعارف الصوفية ، وفجّرت ينباعها ، ورابعة أبرزتها وأجلتها وأدارت حولها حياتها ، وأقامت رسالتها ، والمحبة هي رسالة التصوف وقامت عليها أكبر رسالة روحية عرفها العالم وجعلتها رابعة سر الحياة وطابعها وهدفها الأعلى ، ومن محبة الله تنبثق محبة كل ما في الوجود ، وعلمت رابعة الناس أن الحياة محبة للناس جميعاً ولكون بكل ما فيه لأنه من صنع الله ، وعلمتهم أن عبادة الله أساسها الحب وبذلك أقامت صلة العبد بربه على أقوم نهج تعبدى : نهج الشوق والأنس والرضا فالحب الإلهي هو المصدر الحقيقي الذي استمدت منه الموجودات وجودها وهو بذلك حقيقة كونية روحية ، ورابعة هي صاحبة مدرسة الحب الإلهي ومؤسستها في الإسلام وكل من قفا اثارها على نهجها لم يأت بجديد حتى بن الفارض شيخ العشاق وإمام المحبين في عالم الأشواق والمواجيد لم يزد مع سموه في الحب الإلهي شيئاً عما قالته رابعة .

★★★

ويقول الشيخ مصطفى عبد الرازق عن رابعة : إنها السابقة إلى وضع قواعد الحب والحزن في هيكل التصوف ، وهي التي تركت في اثاره كثيراً من نفثات صادقة بالتعبير عن محبتها وعن حزنها ، وإن الذي فاض به بعد ذلك الأدب الصوفي من شعر ونثر لهو نفحة من نفحات السيدة رابعة العدوية إمامة العاشقين والمحزونين في الإسلام .

★★★

وفي كتاب رابعة العدوية لمحمد زكي عبد الرحمن أن رابعة كانت لها سميات ، فرابعة القيسية كانت معاصرة لها في البصرة ، ورابعة بنت اسماعيل عابدة من العابدات

الصالحات (١٤٥ هـ) ، أقامت بمصر سبع سنوات ، وكان يتردد عليها الإمام الشافعى ، وكان يصل التراويح في رمضان في مسجدھا ؛ ورابعة البغداديّة (٥١٨ هـ) عابدة من عابدات الشام ، وتوفيت ودفنت بدمشق ، ويسمّيها نساء دمشق السيدة رابعة ؛ ورابعة البدويّة ، وقبرها في ضواحي القدس الشريف ، وقيل اسمها رابعة بالياء . ويقول بعض كتّاب السير من خصومها أن رابعة بعد تحررها من الرق احترفت مهنة العزف على الناي مدة ، ثم رجعت واعتزلت عن الناي في خلوتها للتفرغ للعبادة . وحاشا أن يكون العزف على الناي اندفع برابعة في طريق الغناء والشهوات مع ما كانت عليه من جمال باهر ، ويعلم كل من اتصل بحلقات الذكر في ساحات التصوف أن العزف على الناي وسيلة من وسائل الترنم بذكر الله وتسبيحه ، ولأن الطبل والدف والناي لها تأثير كبير في حلقات الذكر في كل مكان . وكانت رابعة شاعرةً مجيدة ، ومما نسب لها في حبها الإلهي من البحر الكامل .

كأسى وخمرى والنديم ثلاثة	وأنا المشوقة في المحبة : رابعه
كأس المسرة والنعيم يديرها	ساقى المدام على المدى متتابعه
فإذا نظرت فلا أرى إلا له	وإذا حضرت فلا أرنى كلا معه
يا عاذلى إنى أحب جماله	تالله ما أذنى لعذلك سامعه
كم بت في حرقى وفرط تعلقى	أجرى عيوناً من عيوني الدامعه
لا عبرتى تُرقأ ولا وصلى له	يبقى ولا عيني القسريحة هاجعه

★★★

وفي كتاب رابعة العدوية لسميح عاطف الزين . أنه قد برز من أوائل الصوفية الذين اعتنقوا مذهب العشق الإلهي ثلاثة لهم صيت ذائع في عالم التصوف ، وهم رابعة العدوية ، وأبو يزيد البسطامي ، وأبو المغيث الحسين بن منصور الحلاج . على أن رابعة العدوية اعتُبرت من بين هؤلاء رائدة العشق الإلهي ، ووُصفت بأنها شهيدة العشق الإلهي . وإذا

كان قد نشأ للصوفيين من بعد رابعة فِرَق عديدة متنوعة في الأفكار والطرق ، فإن أيًا من المتقدمين أو المتأخرين منهم لم يبلغ ما بلغته رابعة في العشق الإلهي ، حتى أن ابن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ هـ ، الملقب بشيخ العشاق وإمام المحبين في عالم الأشواق والمواجيد ، لم يزد في الحب الإلهي شيئًا عما قالته رابعة العدوية . ومن قبله ببضعة قرون ذو النون المصري المتوفى سنة ٢٤٥ هـ ، أستاذ من تحدّث عن الحب والمعرفة في التصوف ، إنما كان يردد ما ادعته رابعة في مواجهتها ، ولهذا تقول عنه دائرة المعارف الإسلامية : والمتأمل في كلمة بروحها أثر عن ذى النون من أقوال منثورة وقصائد منظومة ، يلاحظ أنه يصطنع لفظتى الحب والمحبة اصطناعًا صريحًا ، سواء في تعبيره عن إقبال الله على العبد أو إقبال العبد على الله ، وأنه باستعماله لفظة الحب بنوع خاص إنما يشارك رابعة العدوية التي تعد أول من استعمل هذه اللفظة استعمالًا صريحًا فيما كانت تناجي به ربها ، أو كانت تتحدّث به عن علاقتها به وإقبالها عليه وإيثارها له . ومن هنا يتبين أن رابعة العدوية هي رائدة العشق الإلهي عند صوفية المسلمين بالحقيقة والأساس .

وأيًا كان الاتجاه الذى اعتمده الرواة أو الباحثون ، وأياً كانت دوافعهم فيما رووا أو كتبوا عن رابعة ، فإن التاريخ يحفظ لنا ولاشك ذكرى امرأة صوفية أوجدت في تصوفها مذهبًا خاصًا كانت له آثاره التى راحت تتفاعل مع الزمن حتى بقى إلى وقتنا لحاضر ، وهو المذهب القائم على العشق الإلهي ، الذى يتنافى مع عقيدتنا الإسلامية ، ويخالف مخالفة صريحة الكتاب والسنة . وما يمكن اعتباره تطرفاً عند رابعة هو ما ادّعت من عشق لله تعالى ، ثم مخاطبتها للعزة الإلهية كأنه جلّ وعلا إنسانٌ يجوز لنا أن نتعامل معه وفقاً لتصوراتنا ومشاعرنا ، فهنا خطأ رابعة الذى أوقعت فيه نفسها ، وقادها لأن ترى في الله سبحانه وتعالى معشوقها وفق المفهوم البشرى ، تناجيه بغرام العشاق المشبوب .

وينتقد سميح الزين في رابعة بخلاف ذلك موقفها من الحج ، والكرامات المنسوبة إليها فيه ، وتجراها على مخاطبة الله تعالى ، معاتبَةً بكلمات مثل أكذا يفعل الملوك بعبيدهم الضعفاء ، وقولها وما أريده هو أن أشاهد وجهك الكريم ، وذهاب الكعبة للقاء رابعة . وقولها عن الكعبة أنها ليست سوى صنم معبود في الأرض إنكارٌ لكعبة المسلمين التى جعلها

الله تعالى قياماً لهم . وتفسير البعض ذلك بأنه تحقيق للخُلة بينها وبين الله سبحانه ، والخُلة هي المودة ، وكذا المحبة ، فأما أن يراد بالحب حبة القلب ، وبالخلة التخلل ، فحاشا لله ، ورابعة تعاملت مع الله تعالى باعتبار التصوف تَخَلَّلَ نفسها ، والصوفي إذا بلغ مرتبة الخلة بينه وبين الله سبحانه سقطت عنه التكاليف ، واستباح لنفسه ما لا يبيحه الله تعالى لغيره من الناس . وفي حالة الخلة يكون العبد الخليل بنظر الصوفيين بمثابة الله ، أو على الأقل يستحل لنفسه من أموره ما لا يمكن لغيره أن يستحله ، فإذا كان كل شيء في الدنيا ملكاً لله ، فلخليله الصوفي أن يستحل ما يشاء من هذا الملك ... وإن رابعة لتستخدم الخلة بمعنى استهلاك وجودها في وجود الله سبحانه ، وفي ذلك تقول . « قد تخللت مسلك الروح منى » ، وتقول عن الله تعالى « إنى جعلتك في الفؤاد » ، وهو الذى لا يحتويه سبحانه مكان ولا يحده حد . وإن قولها أنا ذاهبة إلى السماء كى ألقى بالنار في الجنة وأصب الماء في الجحيم ، فلا تبقى هذه ولا تلك ، ويظهر المقصود فينظر العباد إلى الله دون رجاء ومن غير خوف ، ويعبدونه على هذا النحو بلا طمع في جزاء أو خوف من عقاب ، ذلك أنه لو لم يكن ثمة رجاء في الجنة وخوف من الجحيم أفكانوا يعبدونه ويطيعونه — هذه الرواية تعبر عن التخيلات والأوهام التى ملأت عقل رابعة وقلبها حتى تمثلت في نفسها القدرة على التصرف في الجنة والنار كما تريد . وإيمان رابعة كما تصوره هذه الرواية واعتقادها في البعث والحساب يخالفان الشريعة والسنة . وإن عبادة لا تقوم على الخوف من نار الله والطمع في الجنة ، لهى عبادة جوفاء ، لأنه ينتهى معها الثواب والعقاب ، ويتساوى الناس في مصير واحد في دار الآخرة . والمتتبع لسيرة رابعة يجد أنها ذهبت إلى أبعد من ذلك بكثير عندما اعتبرت شوقها إلى الجنة إنما يشكّل خطيئة تقترفها في قولها « عُرِضْتُ عَلَى الجنة فملت بقلبي فأحسست أن مولاي غار على فعاتبنى ، وهذا يعنى أنها صارت تعد الميل بقلبها إلى الجنة بمثابة إثم اقترفته . وإن تجرأها على الله تعالى ومعاتبته على خلقه النار لتأديب العاصين منتهى الشطط والزلل حيث تقول يا رب ! أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار ! ؟

★★★

وفي كتاب رابعة العدوية بين الغناء والبكاء للدكتورة سعاد على عبد الرازق : أن رابعة تعد بحق عالماً من أعلام الحياة الروحية في الإسلام ، ويرتبط اسمها بالنظرية الروحانية ، ونظرية الحب الإلهي ، ونظرية الخلّة ، ونظرية الحجّ بالهمّة . وقد تكلم كبار الصوفية عن مذاهبها وأيدوا عباراتها ، ومن هؤلاء أبو طالب المكي ، والقشيري ، والغزالي ، والسهروردي ، وصورها لنا مؤرخو التصوف تقف موقف المعلم الروحي لمجموعة من أشهر عبّاد الإسلام وفقهائهم ومحدثيهم ، من أمثال عبد الواحد بن زيد ، وعُتْبَة بن أبان بن صمعة ، ورياح القيسي ، وسفيان الثوري . وعلى هذا النحو وتلك الصورة كان تأثير رابعة في مدارس التصوف من بعد .

ورغم كل التساؤلات حول الأصل الجنسي لرابعة العدوية فإن الذي أجزم به مستندة إلى النصوص أن رابعة كانت مغنية قبل أن تسلك طريق الهجرة إلى الله ، وأنها كانت تغني على أنغام الناي وقرع الدقوف والطبول ، وسنرى لسان الدين الخطيب عالم الأندلس الكبير ، وصاحب كتاب روضة التعريف بالحب الشريف ، الذي أرّخ فيه لنظريات الحب الإلهي ، يقول : يا رابعة من أنت ؟ قالت : كنت أضرب الدف بالطبل فما سمع غيري :

بِاللّهِ يَا رِيح الصَّبَا	مُرَى عَلَى تِلْكَ الرِّبَا
وَبَلَّغِي رَسُولِي	بِنَصِّهَا أَهْلَ قَبَا
وَاحِرْبَا وَهَلْ يَرُدُّ	فَانْتِهَا وَاحِرْبَا

★★★

ورابعة كما وصفها الهجويري بداية التصوف ونهايته لأن مقامات التصوف وأحواله وألحانه ومواجيدته وكشوفه وإلهاماته لا تزال على ما رسمته وكما عبرت عنه وتذوقته .

★★★

رابعة في كتابات الشرق والغرب

- ٢ -

في الغرب

رابعة في الموسوعة الصوفية لـ **ليجون فيرجسون** : هي شاعرة ومتصوفة توفيت عام ٨٠١ م ، ولم يعرف شيء عن ميلادها وعائلتها ، إلا أنها كانت تسكن البصرة ، وكانت لا ترى سوى الله فكل ما عداه باطل ، وشكّت مرضاً فسرتّه تفسيراً غريباً ، فزعمت أنها لم تجد له سبباً سوى أنها عُرِضت عليها الجنة ، فمالت بقلبها إليها ، فأحسب أن مولاي غار على فعاتبني ، فله العتبي . واعتذرت عن الزواج لأنه إذا كان الزواج ضرورياً لمن له الخيار فإنها في نفسها لا خيار لها ، لأنها لربها وفي ظل أوامره . وبالنسبة لرابعة فإن طريق الوصول إلى الله بطهر المحبة . وكانت هي التي أدخلت فكرة الحب الإلهي في التصوف الإسلامي ، وتعبّر عن ذلك في أبيات قوية تقول فيها :

أحبك حبين : حب الهوى	وحباً لأنك أهل لذاك
فأما الذي هو حب الهوى	فذكر شغلته به عن سواك
وأما الذي أنت أهل له	فكشفك الحجب حتى أراك
فما الحمـد في ذا ولا ذاك لي	ولكن لك الحمـد في ذا وذاك

There are two ways of love
My selfish way , and yours above
My selfish love is when I find
I yearn to grasp you in my mind .
Pure love is when you took
The veil from my devoted look .
I can not glory in either phase
Two ways of love - in both be yours the praise !

وكانت رابعة تقول إن حبها لله لم يترك في قلبها مكاناً لتكره ، حتى ولو كان هذا الذي ستكره هو إبليس . ومن الرؤى التي رأتها شجرة هائلة عليها ثمار ذهبية رائعة ، وقيل لها إن الشجرة شجرتها ، وإن الثمار هي تسابيحها لله ، ولكن بعض الثمار كانت ملقاه على الأرض ، وسألت أفما كان الأولى أن تكون بالشجرة ؟ فقيل لها بل ! كانت بالشجرة ولكنك أثناء تسبيحك في إحدى المرات ، وكنت قد عجنت عجينة للخبز ، توقفت لتسأل نفسك ما إذا كان العجين قد خمر ، فسقطت هذه الثمار ، لأن العبد الذي يتمنى أن ينال القرب من الله ينبغي أن لا يفكر ، ولا أن يسأل عن شيء في الدنيا ولا في الآخرة سوى الله . وكانت رابعة في دعائها تشبه إبراهيم بن أدهم . ومن مآثورات هذا الدعاء قولها : إلهي ! إذا كنت أعبدك مخافة النار فأحرقني بنارها ، أو طمعا في الجنة فحرّمها عليّ ! وإذا كنت لا أعبدك إلا من أجلك فلا تحرمني من مشاهدة وجهك !

★★★

وفي دائرة المعارف البريطانية . أن رابعة العدوية يرجع لها فضل إدخال عنصر الحب في التصوف الإسلامي ، فلم يعد مجرد زهد . وهي امرأة من البصرة ، وكانت أول من صاغ فكرة الحب لله حباً لا مصلحة فيه للمحب ، ولا يصدر عن خوف من النار ولا عن طمع في الجنة . وبعد رابعة تعددت المدارس الصوفية وكثرت في العالم الإسلامي ، ويرجع ذلك نسبياً إلى تأثير الاتصال بالرهبان المسيحيين وتبادل الأفكار معهم .

★★★

وفي كتاب رابعة العدوية الصوفية وصحابها من الصوفية لمرجريت سميث تذكر « أني ماري شميل » في مقدمة طبعة ١٩٨٤ : أن رابعة العدوية كانت فيما يبدو أول من أكد على مفهوم الحب الإلهي ، بمعنى الحب من أجل الحب ، وليس خوفاً من النار أو طمعا في الجنة ، وذلك هو إسهام رابعة التاريخي ، وصار حبها المتأجج الذي استشعرته لله ، والذي صرفها عن كل شيء مخلوق ، وهو حجر الزاوية في التصوف الإسلامي ولذلك صار اسم رابعة من الأهمية بمكان في هذا التصوف . وقد أورد العطار سيرتها بشكل رومانسي ، بينما ذهب غيره من كتّاب السيرة إلى إيراد فصول من حياتها جعلت اسمها مرادفاً للمحبة

ذاتها . ونُسجت القصص حول حياة رابعة ، وعيد فيها وزيد ، وكتب عنها الفيلسوف المصرى الدكتور عبد الرحمن بدوى ، وأطلق عليها اسم شهيدة العشق الإلهى ، وأخرجت عنها السينما المصرية فيلماً كان ناجحاً واستمر عرضه لفترة . وكان اسم رابعة العدوية قد بدأ يتردد فى أوروبا بعد أن نُبّه إليها أحد المفكرين الفرنسيين ويدعى جوانفيل ، وكان من مستشارى الملك لويس الرابع عشر ، وقد ذكرها من كتاب فرنسا من يدعى كامى سنة ١٦٤٤ م ، وأشاد بذكرها الكاتب النمساوى ماكس ميل ، وكان اسمها معروفاً فى بريطانيا كما يبدو من قصائد ريتشارد مونكتون التى اعطاها عنوان « أقوال من رابعة » ، وأراد أن يعظمها فأعطاه اسم ابنة السماء Daughter of God .

وتقول مرجريت سميث فى الكتاب: إن رابعة بلاشك أعظم متصوفات الإسلام ، وكان لها أكبر إسهام يمكن أن تشارك به امرأة متصوفة فى التصوف . وترجع مرجريت سميث مولدها احتمالاً إلى سنة ٩٥ أو سنة ٩٩ هـ ، وتقول إنها رغم كونها من أشرف بيوتات البصرة إلا أنها ولدت فقيرة فقراً مدقعاً وأنها تشبه المتصوفات المسيحيات فى نبذها للزواج ، وتفضيلها أن تكون عروس السماء ، وقد فعلت ذلك مع الأمراء الذين تقدموا لخطبتها ، كما فعلته مع اخوانها من الصوفية ، فالأمر لديها سواء . وماتت رابعة يقيناً سنة ١٨٥ هـ ، وكان دفنها بالبصرة .



الفصل الثانى

رابعة بين الأسطورة والحقيقة

ما قدمناه من كتابات عن رابعة يرسم صورة لها يختلط فيها الخيال بالواقع أو أنه يبدو كذلك ، فالروايات عنها كثيرة ، وأغلبها روايات متوافقة ، وأقلها روايات متعارضة .

والخلاف حول رابعة بين المؤرخين حول وفاتها ونسبها والكرامات التى ألصقت بها ، ولم يكن هناك خلاف بالمرّة حول مذهبها فى التصوف وأقوالها فيه . ونخلص من كل ما قيل فيها أن رابعة عربية صميّة ، وكانت تتحدث العربية وتفكر بها ، ولها أسلوبها الخاص والتميز ، ولها ألفاظها التى تتكرر معها ، ومعارجها الفكرى متسق وفى صعود يتدرج معها ، وليس فى أفكارها طفرات أو مراوحات بين أقصى اليمين وأقصى اليسار ، ونستطيع فى سهولة ويسر أن نؤكد عن يقين أن هذه الأقوال جاءت على لسان رابعة وأن نستبعد أقوالاً أخرى نُسبت لها .

وكانت رابعة العدوية بصرية تأثرت بالثقافة الواسعة التى كانت للبصرة فى زمانها ، والبصرة مدينة عربية إسلامية دماً وروحاً ، أسسها عتبة بن غزوان عام ١٦ هـ ، أو عام ١٧ هـ ، بأمر من الخليفة عمر ، وتقول دائرة المعارف الإسلامية أنه كان فى المكان الذى شيدت فيه المدينة معسكر ضُرب هناك منذ سنة ١٤ هـ ، وقصدوا من بناء هذه المدينة أن تكون مركزاً للجيش العربى ، - ولذلك اختير مكانها فى بقعة بالقرب من النهر عند أطراف السهل والوادى الخصب القريب من المشارب والمراعى ، وسميت المدينة بالبصرة أى الحجر الأبيض ، لأن الأرض التى شيدت عليها من الحجر الأبيض .

وكانت البصرة مهد الخلافات القبلية بين العرب ، وفى أواخر عهد معاوية هاجر الأزدي إليها وتحالفوا فيها مع ربيعة على تميم وقيس ، وكان على الولاة دائماً أن يحافظوا على

النظام فيها . وقد ازدحمت البصرة بالسكان واختلط بالعرب فيها عدد كبير من الموالي ، حتى لقد قَدَّروا عدد سكانها سنة ٥٠ هـ بنحو ثلثمائة ألف نسمة .

وكانت دسائس الخوارج من الأسباب التي زادت من المنازعات القبلية ، وكانت من عوامل الإخلال بالأمن بها وكانت — مثلها في ذلك مثل الكوفة — مرتعاً للحروب الأهلية ، وميداناً للفتن ، وربما لذلك عانت كثيراً من المجاعات ، وتفاوتت أقدار الناس فيها بين الفقر المدقع والغنى الفاحش . ولم يكن غريباً أن نجد بين سكانها مثل والد رابعة الذي لم يكن في بيته قطرة من زيت يوقد بها السراج ، أو يمسح بها على ابنته رابعة عند ميلادها ، ولا قطعة القماش التي يديرها بها ، أو مثل محمد بن سليمان الهاشمي الذي تقدم لخطبة رابعة ، وكان قد ولي البصرة منذ سنة ١٤٥ هـ حتى سنة ١٧٢ هـ ، وكان من أوسع الناس ثراء ، حتى بلغت غَلَّة ملكه ثمانين ألف درهم في اليوم ، وقال إنها عما قريب تبلغ مائتي ألف درهم .

وبلغت مدينة البصرة أوج ازدهارها زمن رابعة فقد كانت هي وضاحتها الأُبْلَّة مركز تجارة العرب البحرية التي انتشرت حتى بلغت بلاد الصين ، وتفرعت القناتان الكبيرتان اللتان تربطان المدينة بالنهر — وهما نهر الأُبْلَة ونهر المعقل — إلى جملة مجارٍ مائية تجري في شوارع البصرة وحدائقها ، وذلك حقاً هو ما جعل الدكتور بدوي يقول عنها قينسيا العربية .

وتطور حي المدينة القائم عند الباب الغربي حيث تنيخ القوافل على المربد حتى حي الأعمال بالمدينة ، ولكم يتشابه وصف الدكتور بدوي ووصف مؤلف دائرة المعارف الإسلامية ، والأخير يقول إن قصص ألف ليلة وليلة تعطينا صورة عن الحياة المرحية التي كانت عليها الأسواق في المدينة وقنواتها ، وقد ازدهرت الحياة العقلية فيها نتيجة لتقدمها الاقتصادي ، فكانت المكتبات العامة والمساجد أسمى ما يتوق إليه الأهالي في حياتهم ، وظهر فيها وفي الكوفة النحو العربي ، وكان أحرار الفكر يعقدون اجتماعاتهم فيها وذلك ما جعل ماسينيون يقول عنها إن البصرة هي البوتقة الحقيقية التي اتخذت فيها . الثقافة الإسلامية شكلها ، وبين القرنين الأول والرابع تبلورت الثقافة وأخذت شكلها العربي

الإسلامى ، وظهر النحويون والشعراء والمؤرخون ، وأشرق سنا علوم الدين ، ووطد الحسن البصرى ومريدوه دعائم التصوف .

ولو كانت رابعة قد عاشت في مدينة أخرى غير البصرة فربما ما كانت تبرز كداعية صوفية وصاحبة مذهب في التصوف ، فرابعة والبصرة مرتبطان ، وثقافة رابعة عربية إسلامية قح ، وهى وريثة الثقافة العربية الإسلامية المزدهرة في البصرة ، وفي مساجدها ووسط حلقات الدرس فيها كان تلقىها للغة والدين وأصول التصوف . ولقد كان محيط رابعة الثقافى مثاليا فقد اجتمع فيه الكبار من أمثال سفيان الثوري - وهو كما قيل فيه عالم الأمة وعابدها ، وعبد الواحد بن زيد الذى يعتبره الإمام ابن تيمية أول الصوفية على الحقيقة ، ورياح القيسى وهو المتأله وصاحب المجد والفخر ، القانت معه في السر والجهر كما يقول العطار .

وتلعب الوراثة والبيئة بالإضافة إلى الاستعداد الشخصى دوراً حاسماً في تشكيل شخصية رابعة وفكرها ، ويحكى ابن خلكان عن رابعة وكانت بعد طفلة لم تجرّب اليتيم ولا التشرد والأسر ، أنها قالت لأبيها : يا أبى ! لست أجعلك في حلٍ من حرام تطعمينه ! فقال لها الأب والذى كان جيرانه يطلقون عليه اسم العابد : رأيت إن لم أجد إلا حراماً فأجابت رابعة : نصبر في الدنيا على الجوع خير من أن نصبر في الآخرة على النار ! - فأى منطق لهذه الطفلة في سنّها ! وأية ثقافة يمكن أن تكون لها ! وأية تربية تلقّتها منذ نعومة أظفارها ! وما هى تلك القيم التى نُشأت عليها لتقول مثل مقالتهّا ! وكما يقال فالأطراف في تماس ، وهذه البنت الصغيرة التى كانت متعبدة منذ طفولتها بالاكراة هى نفسها المرأة الناضجة التى حكّت عنها خادمتها عبدة أنها كانت تصلى الليل ، فإذا طلع الفجر وثبت فزعة من مرقدّها تقول : يا نفس ! كم تنامين وإلى كم تقومين وقد أوشكت أن تنامى نومة لا تقومى منها إلا بصرخة يوم النشور !! - وكان ذلك دأبها حتى ماتت ، وكانت تقول لسفيان الثوري : يا سفيان ! أما علمت أن السلامة من الدنيا ترك ما فيها ؟ - وقالوا لها من أين أتيت ؟ فكان جوابها من العالم الآخر . وإلى أين تذهبين ؟ قالت : إلى العالم الآخر ! وماذا تفعلين في هذه الدنيا ؟ قالت : آكل خبزها وأعمل عمل الآخرة ! - وكأنى بها التصوف وقد تجسّد !

وما كان من الممكن أن يحكى أحد عن أبيها أو عن حياتها الأولى معه إلا أن يكون على صلة وثيقة بها وبأسرتها في طفولتها ، فإذا كان المؤرخون قد أجمعوا على أنها مولاة آل عتيك فما كانت رابعة في صغرها مولاة أحد ، وما كان أبوها كذلك وهو على هذه الدرجة من الفقر والتوكل والتبطل ، وإنما رابعة كانت حرة حتى قيض لها أن تؤسر وتباع كما يقول العطار بستة دراهم ، ومن المؤكد يقيناً أنها بيعت لآل عتيك وأُطلق عليها من ثم العدوية والقيسية ، حيث كان بنو عدوة من البطون القيسية التي سكنت البصرة وأسسها ، وما كانت صحبتها لرياح القيسى إلا لأنه من هذه القبيلة ، فهو بمثابة الأهل والسكن لها .

وما كان من الممكن أن تكون رابعة من أصول فارسية أو مسيحية كما يقول الدكتور بدوى ، لأنها لم يحدث أن أشارت ولو مجرد إشارة بكلمة فارسية ، وكان الأولى بالعطار أن يذكر أنها فارسية لو كانت حقاً كذلك ، فمؤرخو التصوف من الفرس كانوا يتيهون بانتساب الصوفية لجنسهم . وقد تحدث الدكتور بدوى عن اللاشعور عند رابعة ، وأغلب الظن أنه يقصد به اللاشعور الجمعي الذي من رأيه أنه يحيلها إلى مقولات المسيحية عند حديثها عن المحبة الإلهية ، وأقول إن هذا اللاشعور الجمعي أو الأجناسي الذي يمكن أن تستقى منه ثقافة رابعة وتختلف به عن أقرانها القائلين بالمحبة الإلهية كعبد الواحد بن زيد ، لم يحدث أن ظهر من كلماتها المشبوبة بالعاطفة والمتقدة بالانفعالات أنها مسيحية الأصل أو تربت على مسيحيين أو أصدرت في أفكارها عن تعليم مسيحي ، وما كان من الممكن وهذه تنشئة رابعة أن يفلت زمامها بعد عتقها فتغرق في بحر الشهوات كدعوى الدكتور بدوى فيها !!

ويقول الدكتور بدوى : فنحن نفترض أن رابعة لما أُعتقت ، اندفعت بفضل الحرية التي وهبتها إلى المشاركة في حياة الدنيا ، ومثل هذه الفترة من حياتها مثل تلك الفترة التي أمضتها القديسة تريزا الأبلية منذ أن غادرت دير التجسد من أبلية إلى سنة ١٥٥٥ م حيث بدأت حياتها الثانية ، فانطلقت رابعة تسعى لرزقها فلم تجد غير حرفة العزف على الناي والإطراب ، وهذا يجعلنا أن نفترض أنها كانت على حظ من الجمال ولعل هذا ما يفسر لنا ما روى من أخبار لعلها أسطورية عن تقدم الكثيرين للاقتراح بها ، ودعاها إلى اتخاذ هذه المهنة خاصة أنها كانت ذات مزاج فني يمتاز بحكم طبيعتها الروحية العالية ، فلم تجد في

غير الفن للظهور في الدنيا والمشاركة في الحياة . والمشاهد عامة في حياة النسوة اللائى وهبن قدرأ من سمو الروح أنهن يحترفن الفن إذا ما قُضى عليهن بتلمس أسباب الرزق بوسائلهن الخاصة ، ويحتمل كذلك أنها إبّان هذه الحياة الفنية بما تقتضيه من ملابسات قد اندفعت في طريق الشهوات إلى مدى بعيد ، فهذه المهنة في ذلك العصر كان من غير الممكن أن تستقل بنفسها ولا أن تكون بمنجاة عن ألوان الإغراء بأنواع الأحابيل التى تُنصّب لمثيلاتها في هذا المضمار ، ويخيل إلينا أنها قطعت شوطاً طويلاً في طريق الإثم ، وغرقت في بحر الشهوات ، واقتاتت بقوت الحواس حتى الثمالة ، لأنها تابت من بعد ذلك ، فهذه التوبة نفسها هى أصدق دليل لدينا على اندفاعها إلى أبعد حد في طريق الشهوة ، والأطراف في تماس كما يقولون ، والاعتدال لا يمكن مطلقاً أن يؤدى إلى التحول الحاسم ، فهذه الانقلابات الروحية الكبرى إنما تقع دائماً نتيجة لعنف وإفراط ومبالغة في الطرف الأول المنقلب عنه ، فعنف إيمان القديس بولس كان نتيجة لعنف إنكاره للمسيحية ، وعنف الحياة التقية لدى القديس أوغسطين كان لازماً طبيعياً لعنف الحياة الشهوانية الحسية التى حَيَّها قبل تحوله إلى الإيمان ، والاعتدال من شأن الضعفاء والتافهين ، أما التطرف فمن شيمة الممتازين الذين يبدعون ويخلقون التاريخ ، وما كان يمكن لرابعة أن تتطرف في إيمانها وحبها لله إلا إذا كانت قد تطرّفت من قبل في فجورها وحبها للدنيا ، ومن أعماق الشهوة العنيفة تنبثق الشرارة المقدسة للطهارة ، ومن عمائق الإنكار والتجديف تنطلق الموجة التى تنشر الإيمان في الدنيا بأسرها ، ولهذا فإننى أدعو إلى التطرف المطلق كل من يريد أن يكون خالقاً للقيم .

هذا هو رأى الدكتور بدوى — وهو يصدر عن مذهب في التأريخ للسّير يقوم على الفروض والاحتمالات ، وذلك قد يكون صحيحاً إلا أنه بشروطه كما يقول توينبى ، فلا بد أن تأتى الفروض والاحتمالات من مقدمات صحيحة ، ولا بد أن تكون هناك إرهابات لما سيقدّم من سلوكيات مستقبلة عند الشخصية المؤرخ لها .

ولا أرى إلا أن الدكتور بدوى اعتسف الفروض والنتائج ، وكان حاله كما قال سارتر عن الشيوعيين في فرنسا ، أنهم يجبرون الأحداث على الدخول في فروضهم الفلسفية ، فما لا يتوافق معها ذهبوا إلى إنقاصه من هنا وهناك ، أو الزيادة فيه ، ليناسب قوالب فروضهم ، وتكون النتيجة أن الحدث يشوّه ، وذلك نفسه ما اعتقد أن الدكتور بدوى قد فعله مع رابعة العدوية ومع كثير من الشخصيات الفلسفية التى تناولها بالتأريخ والتحليل .

والدكتور بدوى يصدر فى أحكامه عن أفكار مسبقة ، ويختار من الشخصيات ما يظن أن مذهبه الفلسفى ينسجم عليها عند التطبيق . وكتاب « رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهى » لم يكن سوى تطبيق من هذه التطبيقات الفلسفية الكثيرة التى يلجأ إليها لإثبات صحة مذهبه الفلسفى ، ولسوف نطرح هذا المذهب وتطبيقه فى حالة رابعة لنرى إلى أى حد قد غالى الدكتور بدوى فيما قصد إليه .

الفصل الثالث

فلسفة الوجود الفردى متحققة

فى الصوفية

وفى رابعة العدوية بالذات

★★★

إن فهم كتاب رابعة للدكتور بدوى لن يكون إلا بفهم المذهب الوجودى الذى يعتنقه الدكتور ، وهو مذهب يسير فيه كما يقول هو نفسه فى اتجاه الفيلسوف الألمانى الوجودى مارتن هايدجر .

ويميل الدكتور إلى الثقافة الأوروبية بنوع خاص ، واهتماماته الفكرية العربية والإسلامية يطبعها هذا الميل ، وكما يقول عن نفسه فإنه تتلمذ كطالب فى كلية الآداب على أوروبيين من أمثال لالاند ، وباول كرواس . وهو مصرى من مواليد قرية شرباص سنة ١٩١٧ ، وكتاباته يهتم بها كثيراً المستشرقون خاصة ، وكان حصوله على الماجستير عن مشكلة الموت فى الفلسفة الوجودية ، وعلى الدكتوراه برسالة عن الزمان الوجودى ، وله أكثر من مائة وعشرين كتاباً أغلبها فى موضوعات تدخل ضمن دائرة الاستشراق ، وخاصة ما يتصل منها بالتصوف .

ومن رأى الدكتور بدوى : أن الوجود مطلق ومعين ، فالمطلق تصوره أعم وغير قابل لأن يُحدّ ، ومن ثم فهو غير معروف الماهية . وفى الواقع فهو ليس وجوداً على الحقيقة ، لأنه إما قد صرف فيه النظر عن كل تعين ولا سبيل للوصول إليه إلا بالتجريد عن الواقع ، وإما وجود كلى على هيئة الروح المطلقة أو الصورة وهو أيضاً نوع من التجريد .

والوجود الحقيقي الذى لا سبيل إلى إنكاره والذى يفرض نفسه فرضاً هو **الوجود الفردى أو وجود الذات** ، وهو وجود شاعر بوجوده ، والذات تحيل إلى نفسها وتوغل فى الاستبطان الذاتى ، وتحقق فيه إمكانياتها عن طريق الفعل باستخدام الذوات الأخرى كأدوات ، وهى تريد فى حرية ، وتختار ، وكلما زادت حريتها زادت همومها بمسئولية اختياراتها ، وشعورها بالقلق والتضحية نتيجة ما تدخل من مخاطر ، ووجودها لذلك **وجود متوتر** مفتوح على إمكانيات لانهائية ، وتستشعر فيه الذات بمعنى لانهائى لنفسها ، ووجودها الذاتى الممكن ، أو ما يسميه الدكتور بدوى **الوجود الماهوى** ، وهو نمط الوجود الذى للشخصيات الصوفية النبيلة من أمثال رابعة العدوية وشبيهتها تريزا الأبلية التى يذكر لها الدكتور بدوى مقالتها « **أنا وحدى مع الله وحده** » ، فهى معزولة كاملاً مع مسئوليتها الهائلة ، وشاعرة بماهيتها وحريتها المطلقة .

ومثل هذا الوجود هو **الوجود الأصيل** ، لأن الذات فيه تملك نفسها ولا يملكها غيرها ، على عكس **الوجود الموضوعى** الذى تكون فيه الذات مملوكة للغير ، أو مستعبدة لأشياء . **والسقوط بالنسبة للذات** هو هذا الوجود الموضوعى الذى يتحصل للذات بكثرة اتصالها بالذوات الأخرى وبالأشياء ، وكلما قلّ هذا الاتصال وكان استبطان الذات لنفسها كلما ارتقت فى سلم الوجود .

ووجود الذات لا بد فيه من **الزمانية** ، والوجود بما هو كذلك لا بد أن يكون وجوداً فى الزمان ، أما ما يقال له **الوجود فوق الزمان أو العالم الآخر** ، فإنه طالما ينسب إلى الوجود فهو زمانى ، ولا يرى له الدكتور بدوى وجوداً على الحقيقة ، فهو وجود موهوم ، ومصدر القول به محاولة الإنسان القضاء على الجزع من الزمان ، وكل إحالة إلى وجود غير زمانى إحالة إلى اللاشئ .

وأما الوجود بما هو كذلك فهو هذا الوجود الحى المنشب أظافره فى الحياة المضطربة بالتجارب الحية ، وليست التجربة الوجودية إلا معاناة الذات الوجدانية لما عليه الوجود فى نسيجه الحى من تناقضات .

والتوتر الوجودى عند الدكتور بدوى هو اسم آخر للديالكتيك ، ويعنى أن الذات فى

وجودها الماهوى تتردد بين متنافرين ، وينساق وجودها فى وحدة تجمع بين النقيضين ، فالذات تتألم إذ تشعر أن هناك ما يحدها فى وجودها العينى ، وهى تريد أن تحقق إمكانياتها فى العالم لأن الأصل هو تحقيق الإمكانات بقدر التوسع والطاقة ، ولكنها تلقى المقاومة من الغير ، وكلما زادت الإمكانات التى ترى أن تحققها زاد الألم الناتج تبعاً لزيادة المقاومة التى تلقاها .

والتضحية هى أعلى درجات التألم ، وبها يكون أيضاً أعلى تحقق للذات بالسرور ، أى أنه فيها يلتقى أعلى الألم وأعلى السرور وهو سرور بتحقيق الإمكانات ، ومع زيادة إمكانية هذا التحقق تكون زيادة السرور ، وأعلى درجات السرور هى التى تتحقق عندما تستشعر الذات أنها هى نفسها بكل ما وسعها تحقيقه من إمكانات .

وفى التضحية تكون الذات فى أوج إثارها المحقق لأكثر الإمكانات الذاتية ، مع إغناء أكبر قدر من الذوات الغيرية فى نفس الآن . والإيثار يتضمن معنى الحب للغير ، ولكن الحب بالمعنى الوجودى معناه استغراق الذات للغير فى نفسها ، لتشعر الذات أنها وحدها الموجودة حقاً ، وذلك يعنى أنها ستكره كل ما عداها .

وفى التصوف تنتشر الذات لتشمل كل الغيرية ، والمحبة من الصوفية هو الذى يتسع وجوده لينتظم كل الذوات والأشياء ، وفى الحب تكون الغيرية ، والغيرة هى اجتماع أعلى حب مع أعلى كراهية ، فيكّن المحب لمحبه أشد الحب ويضمّر لمن سواه أشد الكراهية .

وأيضاً فإنه إذا كان على الذات أن تختار بين الممكنات فإنها تخاطر فى اختيارها ، والمخاطرة هى الفعل الأول للذات المريدة ، وكلما قل اليقين فى الممكنات زاد مقدار الخطر . وأيضاً فكلما زادت قيمة الفعل زادت فيه المخاطرة ، والأمان هو المقابل للخطر ، والخطر والأمان الخالصان مستحيلان ، لأن ذلك مضاد للوجود الحى ، ولا يتبقى إذن إلا وحدة الخطر الآمن ، كما لم يتبقى إلا وحدة الحب الكاره ، والتألم السار ، وذلك ما يكفل للذات أن توجد وتحقق الإمكانات فى حرية ومسئولية .

ولما كان مذهب الدكتور بدوى يقوم على افتراض أن الذات لكى تكون نفسها لابد أن تكون معزولة أو منفصلة ، فإن الذات فى سيرها من مخاطرة إلى مخاطرة لا يتم لها ذلك على

التواصل ، ولكن في وثبات أو طفرات ، وتعنى الطفرة التعالى ، لأن تحقيق الإمكانيات فيه السمو والارتفاع بالذات وإغناء مضمونها ، وليست عملية الوجود إلا محاولة الذات أن تعلق على نفسها نحو المستقبل .

هذا إذن هو مذهب الدكتور بدوى ، وقد سبق أن قدمنا تحليله لحياة رابعة ، وكما ترى فإن التحليل يتفق تماماً مع المذهب ، فرابعة من الشخصيات المبدعة التى تعيش في قلق ، وحياتها متوترة شديدة التوتر ، وقد شدتها إليها من أول الأمر حياة المجون ، ثم مالت من بعد إلى حياة الزهد ، والحياتان قمة التطرف ، وهو التطرف الخلاق ، ففى المجون هى العازفة والمنشدة المبدعة ، وفى الزهد هى الرائدة صاحبة الفكر المؤصل الفريد ، ونصيحة الدكتور بدوى لكل من يريد الإبداع أن يتطرف .

ويفسر الدكتور انحراف رابعة الجنسى بأنها ذات مزاج فنى ، فلم تجد في غير الفن مجالاً للظهور والمشاركة في الحياة ، والفن والجنس مرتبطان ، ورابعة كان لها الكأس الملقى في المجالين ، فهى عازفة ممتازة ، وهى أيضاً كما يقول الدكتور قد قطعت شوطاً طويلاً في طريق الإثم ، وغرقت في بحر الشهوات ، واقتاتت بقوت الحواس حتى الثمالة ، ودليله على ذلك أنها ثابت من بعد ذلك ، فهذه التوبة هى أصدق دليل على اندفاعها إلى أبعد حد في طريق الشهوة .

ويبدو أن المذهب الوجودى الذى يعتنقه الدكتور والذى يقال فيه ما يسميه منطق التوتر هو الذى حاد به أن يفترض هذه الفروض في حياة رابعة ، وأن يفسر كلام العطار فيها هذا التفسير ، وقد بدأ الدكتور كتابه بأن رسم لمدينة البصرة حيث منبت رابعة ومنشؤها صورة فيها التناقض والتطرف ، فقد جعلها مدينة تجمع بين الحياة اللاهية والأشواق الصاخبة والمساجد والربط والمكتبات ، وجعل سكانها أحد اثنين ، فهم إما ابن أبى عيينه صاحب الشعر الماجن ، وإما رياح بن عمرو القيسى الصوفى المولء البكاء ، الذى كان يصرخ إلى الله فيفتت صراخه من يسمعه شفقة عليه ورحمة به .

وكانت هذه الصورة للبصرة بمثابة التمهيد لما سيكون عليه صورة رابعة نفسها ، فرسمها موعلة في الفجور ، ودائبة على الاستغفار . وطالما أنها تطلب التوبة فلا بد أنها

ارتكبت المعاصي ما وسعها ، وبذلك فقد تكون في تماس . وواضح من مذهب الدكتور في الوجودية أن من تكون الموصفات التي وضعها للوجودى هى سمات شخصيته فإنه لابد أن يكون عصابياً ، فتلك أعراض العصابية التي يذكرها علماء النفس للمرضى بها ، غير أنهم يميزون بين العصابية المُمرضة السلبية وتلك الإيجابية الخلّاقة ، ومبدأ التوتر الذي يقيس إليه الدكتور بدوى شخصية رابعة هو في حالتنا هذه ينطبق على المبدعين ويتحراه أصحاب القيم .

وقد تتسائل عن سبب استهجان الدكتور بدوى لأساطير العطار حول رابعة وخوارقها التي تعرف باسم الكرامات ، وتعجّله في قبول واقعة أن رابعة امتهنت العزف كسبيل لتعيش ، وقد يشدنا إلى الإجابة على ذلك أن نعلم أن المذهب الوجودى للدكتور يملئ عليه ذلك ، فهو مذهب إلحادى ، وكما يقول الدكتور أنه « لاوجود خارج الزمان » بمعنى أنه ينكر الآخرة ، وذلك نفسه ما يطرحه القرآن عن الملحدين في قول الله عز وجل : ﴿ إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ . والدكتور من ثم يشك في أن رابعة في شدتها وكرها قد طمأنها الله وَحْيًا بهاتف يقول لها « لاتحزنى ! ففى يوم الحساب يتطلع المقربون إليك ويحسدونك على ما ستكونين فيه » ، وأنه من قبيل الخيال الجامح أن ينسب إليها العطار تشعع النور ، بحيث يملأ البيت ويشاهد ذلك مخدومها فيعتقها في الصباح . ويصف الدكتور أقوال العطار بأنها أسطورية ولا يستطيع المؤرخ إلا أن ينعتها بذلك ، ويفسر هذه الظواهر أو الكرامات تفسيراً نفسياً فينسب لرابعة وللعطار ازدواجية نفسية ويقول : « إنها أمور لا تتأبى على منهج البحث النفسانى العلمى إذا ما فُهمت على أنها أحوال من الكلام النفسى الصادر عن ازدواج النفس حينما تلم بها المللمات » .

والآن ما قول الدكتور في علم النفس الغيبى أو الباراسيكولوجيا ، وهى الميدان في علم النفس الذى يشتغل فيه مئات من العلماء والفلاسفة ، وكان منهم سدجويك وچود ، ووليام جيمس ، وهنرى برجسون ، وجيلبرت موراي ، وجاردنر مورفي ، وهؤلاء أسسوا أول جمعية للبحوث النفسية العصبية ، وكان من أهدافها طبقاً لما جاء في بيان تأسيسها إثبات وجود الروح ، وأن الموت ليس نهاية للحياة ، وأنه بعد الموت هناك عالم آخر وخلود ؟

ويبدو أنه كانت هناك حاجة ملحة إلى هذه البحوث مع ظهور الفكر المادى الملحد وانحسار القيم الروحية ، وقد انتشرت الجمعيات النفسية من هذا القبيل في بلاد العالم المتقدم كفرنسا وانجلترا والسويد وسويسرا وكندا والولايات المتحدة وإيطاليا ، وفي جمعية لندن اشتهر ستانلى هول وچوسيا رويس ومورتون برنس ، وكلهم من العلماء الأفاضل في علم النفس والطب النفسى والفلسفة .

ويذكر تاريخ هذه الحركة النفسية الغيبية أن أول معمل نفسى غيبى أنشئ سنة ١٩٢٧ ، وأشرف على تأسيسه عالم النفس الأشهر وليام مكدوجال وعهد برئاسته إلى تلميذه جوزيف بانكس راين ، وشغل راين كرسي الباراسيكولوجيا بجامعة ديوك الأمريكية من سنة ١٩٣٧ إلى سنة ١٩٥٠ ، ويصف راين إدراك الظواهر النفسية الغيبية بأنه إدراك فوق حسى extrasensory perception ، ولما نشر كتابه بهذا الاسم كانت له شهرة ودوى فكرى كبير .

والكرامات مجال من مجالات علم النفس الغيبى ، والاعتقاد فيها من بين دراسات هذا العلم ، والكرامة لا تكون إلا لولّى ، والمعجزة للنبي ، وقد شهد للكرامة وللمعجزة فلاسفة وعلماء كبار من بين المسلمين والمسيحيين واليهود ، وشهاداتهم بالقطع ترجّح على تقرير الدكتور بدوى . ولنا أن نتساءل : هل من الممكن أن يكون هذا الكون بما عليه من أنظمة تستهدف غايات بعينها قد وُجد من قبيل الصدفة أو العبث ؟ وهل هناك من يقول بالقطع أن هذا الكون لم يكن له مريد وخالق مبدع ؟ ومثلما نقول إن العبقريّة والأفكار الملهمة من خصائص أهل الفكر الكبار ، فكذلك الكرامات من خصائص الأولياء ، وكلاهما العبقريّة والكرامة هبة من الله لمن يشاء من عباده .

وإذا كان للدكتور أن يشكك في أقوال العطار عن كرامات رابعة وتأكيدات العطار لها ، فلماذا لا ينسحب التشكيك على قول العطار عنها أنها بعد أن أعتقت « اتخذت مهنة العزف على الناي زمناً ، ثم تابت بعد ذلك وابتنت لنفسها خلوة انقطعت فيها للعبادة » ؟ ولماذا يقول عن هذه الرواية للعطار « أنها وإن كانت لا تتفق مع ما أراد أن يرسمه عن رابعة من صورة خيالية مسرفة فإنه - أى الدكتور بدوى - يقطع بصحتها ، لأن العطار أو غيره ما كان يمكن

أن يذكرها لو لم تكن صحيحة ، لأنها ليست مما يشرف به قدرها ، وهو وغيره من رواة أخبار الصالحين كانوا حريصين كل الحرص على أن يُرَوِّقُوا ما استطاعوا في ترجماتهم لحياة أولئك الصالحين » !!

ويبدو أن الدكتور قد نسى أن العطار نفسه كاتب هذه الترجمة لم يكن يجد إلا الشرف كل الشرف للصوفي في العزف على الناي . وقد نبيح لأنفسنا أن نذكر الدكتور بأن مدرسة العطار في التصوف وفي الشعر الذي كان ينشده في حلقات الذكر والحضرة يقومان على الموسيقى ، وأخصها الموسيقى التوقيعية بالدفوف ، والموسيقى المرسلة بالناي . وكان شعر العطار إما رباعيات أو مثنويات ، ليسهل توقيعه وتأثيره على السامعين ومصاحبته بالحركات الراقصة المعروفة عند الدراويش . ولقد تأثر به المولوية كثيراً ، وكان أغلب شعره من بحر الهزج . وكان شعر رابعة كذلك من بحر الكامل ويسهل إنشاده وتوقيعه ومصاحبته إرسالاً بموسيقى الناي ، ولم يكن من المعقول أن يؤلف العطار تذكركه الصوفية ويستشعر أن عزف رابعة على الناي يمكن أن يحرّجها تاريخياً ويكتب عنها ذلك إصراراً حتى ولو كان امتهانها على الحقيقة . وكان مقصود العطار من تأليفه للتذكرة أن تكون لقراءة إخوانه من الصوفية والمريدين ، ليكون بها اعتبارهم ، وأطلق عليها لذلك اسم « تذكرة الأولياء وتبصرة الأصفياء » ، فهل كان من المعقول أن يكتب عنها ما يقصد عليه هدفه من كتابة التذكرة ؟

ومع ذلك فلربما - ولنستخدم منهج الاحتمال مثل الدكتور بدوى - انتحلت هذه الفقرة ودُست في التذكرة كما انتحل الكثير من شعر العطار ، ومن أحاديث الرسول عليه السلام . غير أنى أعتقد أن هذه الفقرة قد كتبها فعلاً العطار ، وما كان يقصد بها تجريحاً أو قدحاً في رابعة ، وما كان يعلم أن أستاذاً عظيماً مثل الدكتور بدوى سيستغلها لتشويه سيرة هذه الصوفية المتألّهة !!

والعطار لا يمكن أبداً أن يكون قادحاً لرابعة وهو العابد الصالح ابن الصالحين ، والذي كان قلبه منذ طفولته الباكرة يطفح بحب أهل الله من الصوفية ، وقد كتب في مقدمة تذكركه أنه يريد بهذا الكتاب أن ينفعه في الآخرة ، وتكون له به الشفاعة يوم القيامة ،

ووصف كتابه هذا بأنه لا يرى في الدنيا ما هو أحسن منه من تأليف بشر ، وأنه به ستبقى
ذكراه في الدنيا فيدعو له من يقرأه .

فهل من الممكن بعد ذلك أن يكون قَصْد العطار من إيراد مهنة رابعة أن يستخلص
منها الدكتور بدوى أنها كانت من بنات الهوى ؟ ولم أجد في الحقيقة ذريعة تذهب بالدكتور
هذا المذهب في التخريج إلا أن يكون ذلك ما يمليه على الدكتور مذهبه الوجودى ، ولقد تبينت
تأثر الدكتور بدوى الشديد بكتاب لسيمون دى بوقوار رفيقة سارتر على الدرب ،
واقتباسه منه . هذا الكتاب هو الجنس الثانى Le Deuxieme Sexe ، حيث تقول
سيمون مقالة الدكتور بدوى نفسها ضمن باب « البغايا والمحظيات » : فقد كانت هناك
دائماً صلة غامضة بين البغاء والفن بحكم هذا الارتباط الغامض بين الجمال والملاذات
الجنسية . وتقول سيمون في باب « الصوفيات » : إن الحب كان رسالة المرأة وتخصصها
الأسمى . وعند ما توجهه مباشرة نحو رجل من الرجال فإنها في الحقيقة تبحث فيه عن الله ،
فإذا لم تواتها الظروف وحيل بينها وبين أن تحب إنساناً على السوية ، أو إذا فشلت في
حبها ، فقد تختار أن تتوجه بحبها مباشرة لله ، ويستغرقها حبها له عن كل الدنيا . ومن
الرجال من اكتوى أيضاً بحبه لله ، غير أن المحبين لله قلة لو قيسوا عدداً بالمحبات لله .
وتجربة النساء في ذلك لها طبيعة عاطفية خاصة ، فالمرأة - كامرأة - في طبيعتها أن تركع إذا
أحبت ، بينما الرجل يحب وقد زانه حبه وكأنه المجد يكلله ، والمرأة والرجل في حبهما
يتواصلان مع الحضرة الإلهية بالرموز ، والرجل يستفتى قلبه في حبه ، والمرأة تتسامى
بحبها الأرضى وترتفع به إلى السماء . وهى في حبها تبدو كالمسوسة الوالهة بالحب
erotomaniaque ، فما أشبهها بالمرضى الذين يشكون هوس الحب . وتختلط على
الصوفيات الصورة الإنسية للذكر بالصور الإلهية حتى لتخاطب الواحدة الله وكأنها
تتوجه بخطابها لرجل .

وتقول سيمون . إن علماء النفس متفقون اليوم على أن هوى الحب يمكن أن يظهر في
شكل أفلاطونى ، كما يكون أيضاً له شكل جنسى صريح ، ولذلك فإن المرأة المتصوفة قد لا
تربط في حبها لله بين توجدها له وبين ملاذات جسدها .

وتقتبس سيمون من مآثورات القديسة تريزا قولها : إن قلبها ينزف لأن الله قد اختار أن ينفذ إلى داخلها ويشعله بالمحبة له ، وإنها لتتألم لذلك أشد الألم .

وتقول سيمون : ولربما تضطر المرأة المتصوفة — عجزاً منها عن التعبير إلا بلغة أرضية — أن تستخدم مصطلحات المحبين ، وتتحدث كما لو كانت تهب نفسها إلى رجل من أهل الأرض وليس إلى الله ، وقد يتسبب ذلك في الكثير من النقد للغة التصوف عند الحديث عن هذه اللغة في مجال المحبة الإلهية ، فمثلاً تشكو القديسة أنجيلا الفولينية أنها قد هزلت وشحب وجهها وصار قلبها رهيفاً لا يحتمل ، وأنها صارت ترقيق مدرار الدموع . وتلك أعراض نعرفها لبعض المحبين الوامقين ولا يمكن أن نصفها بالروحانية ، إلا أنها فعلاً كذلك وإن كان الوصف بما نعرف من الكلمات المرتبطة بالشهوات الحسية . ولقد كانت القديسة تريزا تتهالك وتسقط على الأرض وكانت تنبطح باكية ومتشنجة ، ولو لم تكن هي الصوفية التي نعرف عنها استواء الطبع لقلنا إنها مريضة بنوع من أنواع الهستيريا .

ذلك إذن رأى سيمون دى بوقوار الوجودية ، ومدرستها قريبة من مدرسة الدكتور بدوى ، فماذا يقول الدكتور بما يشبه ذلك أو يتطابق معه ؟ يقول : لأبد لتفسير الانقلاب الروحي عند رابعة أن تكون قد عانت تجربة يائسة من دنيا الناس ، ولأبد أن نفترض هنا خصوصاً تجربة حب مخفق يستشرف إلى سراب زواج أو ما إليه . ويفسر الدكتور بدوى بذلك استخدامهما لألفاظ المحبين في مجال الحب الإلهي من مثل قولها إلهي ! أنارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه ! - وقولها : فليت شعري أقبِلت منى فأهناً ! - وإنشادها للشعر الذي تقول فيه :

يا سرورى ومنيتى وعمادى	وأنيسى وعهدتى وممرادى
أنت روح الفؤاد ، أنت رجائي	أنت لى مؤنس وشوقك زادى
أنت لولاك يا حياتى وأنسى	ما تشئت فى فسيح البلاد
كم بدت منة لك عندى	من عطاء ونعمة وأيادى
حبك الآن بغيتى ونعيمى	وجلاء لعين قلبى الصادى
ليس لى عنك ما حييت بهراح	أنت منى ممكن فى السواد
إن تكن راضياً على فإننى	يا منى القلب قد بدا إسعادى

ويقول الدكتور بدوى . « والطابع الحسى ظاهر بجلاء فى هذه الأبيات ، ويلوح منها أن الأمر كان لا يزال مختلطاً عليها ، لأن الخطاب يصلح هنا أن يتجه إلى شخص حسى كما يصلح بصعوبة أن يتجه إلى الله ، بل هى فى هذا الشعر قد تناست أو نسيت أنها تخاطب الله ، فتحدثت عن حبيب لها يلوح أنه كان متنقلاً ، فاضطرت هى تحت ستار الترحل لكسب العيش بالعزف — كما هى الحال بالنسبة للموسيقيين عامة فى تجوالهم لإحياء حفلات فى مختلف البلدان — أن تلاحقه فى الأماكن التى كان يتنقل بينها ، ولهذا اضطرت إلى التشتت فى فسيح البلاد ، لعل ذكرى هذا لحبيب الذى يمكن افتراض أنه كان العلة فى إحداث خيبة الأمل عندها فى الحياة والناس ، قد اختلطت فى ذهنها آنذاك فعبرت بهذه الكلمات المشبوبة الحسية عن تجربتها معه وإن كان الخطاب موجهاً إلى الله ، ذلك أنها لن تستطيع أن تتحدث عن حبها له إلا إذا صدر ذلك عن تجربة حية عانتها ، وتلك كانت تجربتها العنيفة الحية ، فحدثت هنا ظاهرة القلب للموضوع مما يحدث دائماً فى أمثال هذه الأحوال إذا كانت العبارة مخلصنة وليست مجرد صياغة لفظية خالية من كل حياة .

وينصح الدكتور كل مؤرخ إذا صادف إخلاصاً فى التعبير عند الصوفى أن يفترض وجود تجارب حية صدر عنها ، فقلّب موضوعها من المحسوس الإنسانى إلى الكائن الأعلى الإلهى . وواضح من هذا الكلام استماتة الدكتور أن يطابق بأى شكل بين حياة رابعة العدوية وبين ما يذهب إليه من مقولات وجودية ، ويفترض لذلك أن كل ما يقوله الصوفى المخلص من باب المحبة الإلهية لابد أن يكون له أصل فى تجاربه الحسية ، وعلى ذلك فإن كل طائفة المحبين من الصوفية لابد قد كانت لهم تجارب فى الحب يائسة صرفتهم عن الحس الإنسى إلى الحب الإلهى ، وكأن هؤلاء لم يكن فيهم الذى كان يجد سعادة نفسه فى الوقوف على حقائق الأشياء وماهيتها وصلح الحال فيها ، ويبصر الموجودات فى ذاتها وخالص جوهرها ، ويعلم عن المبدع الأول وشرفه ما هو عليه من الفضل والعزة والعلو والكمال ، ويعرفه ويتحصل له بمعرفته السرور والفناء فى حبه ، ويعالج أخلاقه ليكون شبيهاً بالخير المحض ، ويصرف عن نفسه شواغل الجسم ، ويترقى فى معراج المحبة والشوق إلى ذلك الكمال الذى هو الله ، فيبصر من نوره ، ويقع فى لذة المشاهدة وقهر العشق ، وتلك حالة عرفها الفلاسفة المتألهون ، وعانها الصوفية العارفون ، وطريقتهم تزكية النفس بالجسد فى احتمال العبادات ، وملازمة الأذكار ، والسلوك بأسرار الحروف .

وإننا لنجد نفس الأفكار عند الدكتور بدوى وعند سيمون دى بوفوار ، فتقول سيمون : إن المرأة الصوفية فى محبتها لله لا يمكن إلا أن تكون قد عانت فى أول أمرها من رغبات عشق تتحول بها إلى معشوق من الرجال ، ثم تتجرد عندها عند الإحباط ، وتكون محبتها لله خلاص لها من كل محبة أرضية تلحق بها المذلة أو العار ، وإن القديسة تريزا لتجهد لكى تتوحد بالله وأن تعيش هذه الوحدة فى جسدها .

والدكتور بدوى يضرب المثل صراحة بالقديسة تريزا ويشبّه بها رابعة وينقل عنها أيضاً قولها : « من ناحية كان الله يدعونى ، ومن ناحية أخرى كنت أشارك فى الدنيا ، وكنت أجد فى الأمور الإلهية نعيماً كبيراً ، بيد أن قيود الدنيا كانت لاتزال تأخذ بمخنقى حتى ليبدو لى أنى كنت قد أردت أن أحالف بين هذين الضدين برغم ما بينهما من عداوة . الحياة الروحية بنعماتها وحياة الحواس بشهواتها » .

وهذه المقارنة بين الصوفية المسلمة والأخرى المسيحية هى التى تجعل الدكتور يصوغ حياة رابعة على منوال تريزا ويشابه بين حياتيهما . وذلك التحليل لسيمون دى بوفوار لحياة تريزا هو الذى يستلهم منه الدكتور تحليله لحياة مزعومة لرابعة يفترضها افتراضاً وينشئها إنشاءً ليناسب بين مقولاته الوجودية وبين هذه الصوفية المسلمة . وخطابه الذى يتوجه به فى الكتاب هو خطاب موجّه للمستشرقين أكثر منه للمسلمين والعرب . ومقارناته قد تقنع المستشرقين إذ يحيل فيها لأمثال تريزا وبولس وأوغسطين ، ولكنها لا تقنعنا يقيناً ، وذلك أننا لا نجد مشابهة بين حياة رابعة وحياة تريزا . وقد نعذر الدكتور إذ يجعلهما متشابهتين قسراً ، ويقارن بينهما من بعد ذلك ، ولكننا لا نعذره فى مقارنته للانقلاب الروحى عند بولس ورابعة ، أو عند أوغسطين ورابعة ، فيولس كان قبل اعتناقه المسيحية مؤمناً شديداً التعصب لليهودية ، ولم يكن منحللاً داعراً أو فاسقاً شهوانياً ، وعلى ذلك لا نسمى انصرافه عن اليهودية إلى المسيحية انقلاباً روحياً ، ولكنه تحول عقدى وليس روحانياً . وكذلك فعل أوغسطين ، فقد كانت حياته السابقة على اعتناقه المسيحية متمشية مع وثنيته ، فكان فى الوثنية المفكر المجلى ، فلما تحول إلى المسيحية نبغ فيها نبوغه فى الوثنية ، وصار علماً من أعلامها . والخلط الذى يتردى فيه الدكتور ويجعله يشبّه رابعة بتريزا أن هذه وتلك كانتا من المحبات لله ، والمحبة لله فى الإسلام تختلف عنها فى المسيحية ، وذلك ما سنتناوله فى الباب القادم إن شاء الله .

الفصل الرابع

محبة الله في الإسلام وفي المسيحية

المحبة في اللغة العربية أصدق اشتقاقاً منها في اللغات الأوروبية ، واسم المحبة أو الحب سواء كان love أو amity في الإنجليزية ، أو amour في الفرنسية ، أو amore في الإيطالية أو amor في اللاتينية ، أو liebe في الألمانية ، فإنه لا أصل له ينسب إليه ، بينما في اللغة العربية نسبوه للحب وهو اسم صفاء المودة ، لأن العرب يقولون في صفاء بياض الأسنان حبيب الأسنان ، والحباب ما يعلو الماء عند المطر الشديد ، وعلى هذا كانت المحبة ، فهي غليان القلب واهتياجه عند العطش إلى لقاء المحبوب . وحباب الماء معظمه ، وسميت المحبة به لأنها غاية معظم ما في القلب المحب . ويقال أحب البعير بمعنى يبرك فلا يقوم ، وهكذا المحب المقيم على حبه . وقيل الحب في اللغة هو القرط للزومه الأذن ، وحبّة القلب ما به قوامه ، ومثلما الحبة لباب النبات فكذلك الحب لباب القلوب والحياة .

والمحبة عند المشايخ إيثار المحبوب ، أى الله سبحانه على كل ما عداه ، وموافقته في المشهد والغيبة ، ومحو الصفات الإنسانية للمحب الصوفي ، وإثبات المحبوب أى الله بذاته ، وفي ذلك يقول الجنيد فيلسوف لصوفية والذي قام بتعريف مصطلحات التصوف إن المحبة لله هي دخول الصفات الإلهية على البذل من صفات المحب الصوفي ، فأشار بذلك إلى استيلاء ذكر الله المحبوب على قلب المحب الصوفي ، حتى ليكون الغالب على قلبه ذكر صفاته تعالى متغافلاً بالكلية عن صفات نفسه والإحساس بها .

والمحبة لله تعظيم له سبحانه ، فلا يستجيز الصوفي تعظيم سواه ، ولا يقر من دونه ، ولا يصبر عنه ، ويؤثر رضاه ، ويحتاج إليه ، ويستأنس بذكره له في قلبه .

ومحبة الحق سبحانه للعبد إرادته لإنعام مخصوص عليه كما أن رحمته له إرادة الإنعام ، فالرحمة أخص من الإرادة ، والمحبة أخص من الرحمة ، وإرادة الله تعالى لأن يوصل إلى العبد الثواب والإنعام تسمى رحمة ، وإرادته لأن يخصه بالقرب والأحوال العلية تسمى محبة .

★ ★ ★

والحب أو المحبة التي يقول بها الصوفية تحدثوا فيها على طريقة الفلاسفة فصنفوها أصنافاً وجعلوها مراتب وعرفوها فقالوا إنها الموافقة ، ثم الميل ، ثم المودة ، فيكون الهوى ، فتكون الخلّة ، ثم المحبة ، فالشغف ، فالتيّم ، فالوَلّة ، ثم العشق . فالمرتبة قد تُسَلِّمُ للتيّ بعدها ، وقد يستمر الترقى حتى يتحقق العشق وهو تمام المحبة ومنتهاها . ورابعة العدوية كانت لها هذه المرتبة فهي المتعشقة لله تعالى .

ولقد أخطأ سميع الزين في كتابه عن رابعة حيث قال : إن الحب الإلهي كما اعتقده الصوفية لا يعدو كونه وجهاً من الوجوه المغلوطة عن حقيقة حب الله ، لأنه خرج عن مفهوم التقديس والخشوع والذلّ للإله الواحد الأحد ، وهذا ما قاد أصحابه إلى الزلل والخطأ ومخالفة أوامر الله ونواهيه وبالتالي إلى الابتعاد بالكلية عن العقيدة الإسلامية ، وذلك لأن وقوف مخلوق مع الخالق واتخاذ محبواً وعشيقاً له على نفس الأسس التي يحب ويعشق بها مخلوقاً مثله ، إنما هو خلع لطاعة الله ، ومخالفة للعقيدة ، وخروج على أبسط قواعد المحبة الربانية الصادقة التي هدانا إليها القرآن الكريم .. ولم يكن في الدعوة (الإسلامية) أى أساس لحب بين عاشق ومعشوق كما في دنيا الأرض تمرغ بوحل عشق الجسد وترابه .

وواضح أن مشكلة فهم الحب الإلهي أو المحبة الصوفية في الإسلام عند هذا الكاتب هي مشكلة اللغة والتعبير بها عن المشاعر الإنسانية لله سبحانه ، ولقد سبق أن ظهرت مشكلة اللغة في الدين عموماً في الخلاف بين أهل الظاهر وأهل الباطن ، وتفسير الآيات التي وردت

بها صفات تشبيهية عن الله تعالى ، من مثل أن يكون له يد ، وأن يأتى ، وأن يجلس ، وأن يتكلم ، ويحب ، ويريد . إلخ . ومشكلة التعامل مع لغة الصوفية هى قضية هذا العلم الأولى ، وهى قضية كل اللغة فى مجال الميتافيزيقا أو الإلهيات ، وإلا فكيف نفسير الآية الكريمة : ﴿ فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ ، والحديث الشريف : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » ، والحديث القدسى : « ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنواقل حتى أحبه ، ومن أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً » ؟ فكيف لعبد محب لله تعالى إلا أن يقول مثل ذلك فى محاولة لإدخال المعنى اللغة التى يعرفها والتى مؤداها تجاربه الحية اليومية . والمحبة عند الفلاسفة المتألهين حال شريفة يشهد بها الحق سبحانه . للعبد فأخبر عن المحبة له ، والحق سبحانه وصف نفسه بأنه يحب العبد ، ووصف العبد بأنه يحب سبحانه وقالوا محبته تعالى للعبد من صفات فعله ، بينما محبة العبد له سبحانه حالة يجدها من قلبه ، وتلطفُ عن العبارة .

★ ★ ★

ولقد قَسَمَ الصوفية المسلمون المحبة أقساماً ، فجعلوا خمسةً منها مقامات للمحبين السالكين ، أولها الألفة ، ثم الهوى ، فالخلة ، ثم الشغف ، فالوجد . وجعلوا الخمسة الأخرى مقامات للعشاق دون غيرهم ، وهى الغرام ، ثم الاقتتان ، فالوله ، ثم الدهش ، فالقناء . فكأن الوجد أعلى مقامات المحبين ، بينما القناء هو أسمى ما يصل إليه العاشقون .

ورابعة كانت متوجدة وفانية فى الله ، فكانت شهيدة عشقها ، ومن ثم كان اشتهاها باسم شهيدة العشق الإلهى الذى أوردها به الدكتور بدوى ، وسبقه إلى ذلك مؤرخو سيرتها . والصوفية عندما يتحدثون عن كل ما سبق من المداخل أو المراتب أو الصنوف يسلكونها جميعاً ضمن المحبة ، باعتبار المحبة شاملة لها ، ويقولون إن الحب إما أن يستعمل المحبة أو تستعمله المحبة ، فإن استعملها وكان فيها كسب واختيار سمي محباً على الاصطلاح ، وإن استعملته المحبة فلا يكون له فيها كسب ولا اختيار ولا نظر لنفسه فهو العاشق .

ورابعة كانت العاشقة لله لذاته سبحانه ، وحبها له سبحانه ما كان لخوفها من عذابه ،

أو لرجائها في ثوابه ، ولكنها تسامت بمشاعر العشق حتى كانت في حبها أو عشقها المعلمة والمربية ، فكان الصوفية يسعون إلى مجالسها ويدقون بابها ، ليسمعوا لها ويأخذوا عنها وتدعو لهم بالخير .

وكانت رابعة صادقة لا تدعى المحبة ، وعشقها لله أذواها وأذواها واستهلكها ، فكانت أول شهداء العشق الإلهي في الإسلام ، واستحقت مرتبة الشهادة ، وأن يقرن اسمها بالحب والمحبة ، فلقد كانت جميلة في سميتها ونفسها وسلوكها ، والله تعالى جميل يحب الجمال ، والمحبة هي ميل الجميل إلى الجميل ، والشئ ينجذب إلى أصله وجنسه كما يقولون ، وينزع إلى أنسه ووصله ، وليس انجذاب الحب إلى جمال المحبوب إلا أنه وجد فيه صنو الجمال ، ووجود الجميل دليل وجود الجمال المطلق الذى نقيسه إليه ، وليس الجميل المطلق إلا الله تعالى ، والجمال الحقيقي صفة أزلية ، شاهده الحق سبحانه في ذاته أولاً مشاهدة علمية ، فأراد أن يراه في صنعه مشاهدة عينية ، فخلق العالم كالمرآة هي عين ذاته . والحب الإلهي وراء حب العقلاء ، وحب العقلاء قائم بهم فيحبونه بحبه تعالى لهم ، وذلك معنى قوله تعالى . ﴿ يَأْتِي بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ .

والحب الإلهي في التصوف الإسلامى هو بمثابة الروح ، والتصوف هو فلسفة الإسلام الروحية ، والتصوف النظرى والسيكولوجى هما مصدر الدهشة للمستشرقين ، ولهذا يقول الدكتور بدوى أنه من الواجب البحث في أصول الحب الإلهي في التصوف الإسلامى ، وفي أقوال رابعة بالذات ، حيث أنها كانت ضمن الجيل الأول من الصوفية المسلمين الحقيقيين الذين أشاعوا في التصوف نغمة الحب الإلهي فكانت بمثابة الروح الجديدة كل الجدة على التطور العام للحياة الروحية في الإسلام . ويقول الدكتور إنه يجب البحث خصوصاً في التأثير المسيحى .

ونحن نرى أن الجواب على هذا الاقتراح مرفوض من أساسه ، وذلك لاختلاف الجذرى بين المحبة الإلهية في الإسلام وبين هذه المحبة في المسيحية ، لسبب جوهرى هو اختلاف طبيعة المحبوب وهو الله سبحانه وتعالى في الحالىن ، واختلاف هذه الطبيعة يترتب عليه اختلاف الحب المتوجه منه تعالى أو إليه .

والإسلام دين توحيد ، بمعنى أن المسلم يشهد أن الله واحد لا تنقسم ذاته ، والتوحيد يعنى نفى التشبيه عن حقه وصفاته سبحانه ، ونفى الشريك معه في أفعاله ومصنوعاته .

والمسيحية تقول بالتثليث، أى الإله الواحد فى ثلاثى هى الآقانىم : الآب والإبن والروح القدس ، فالآب هو الله أصل الوجود ، والإبن هو الكلمة ويمثل العقل ، وروح القدس هى الحياة ، لأن الروح هى الحياة ، فإذا لم يتصف الله بالعقل والحياة فلن يكون موجوداً .

ويقول القديس بولس إن يسوع المسيح هو الرب الواحد ، ابن الله الوحيد ، مولود ولكنه غير مخلوق ، وهو إله حق من إله حق .

ومن هنا فقد أدخلت المسيحية فى التفكير الدينى مبدأ لم تسبقها إليه أى من الديانات السابقة عليها ، وخاصة اليهودية ، حيث أن التوراة تقضى فى أكثر من خمسين موضعاً فيها بأن الله واحد لا شريك له ولا مثيل . وهذا المبدأ الذى أدخلته المسيحية هو « التجسد الإلهى » ، ويعنى أن اللامتناهى والمتناهى يمكن أن يجتمعا فى شخص واحد وهو فى المسيحية شخص المسيح .

وبينما نجد لذلك أن محبة الصوفى المسلم لله هى نار تحرقه وتقنيه عن نفسه وتبقيه بالله ، فإن المحبة المسيحية تعنى إمكان الاتحاد بالله .

والصوفى المسلم لن يجد خلاصه إلا إذا كف عن الوجود واستغرقته الحقيقة الإلهية ، والفناء الصوفى فى التصوف الإسلامى هو تبديل الصفات البشرية بالصفات الإلهية فيما عدا الذات ، وكلما ارتفعت بالمجاهدة صفة بشرية عن الصوفى حلت محلها صفة إلهية ، وبذلك وحده يتحقق معنى الحديث القدسى فىكون الحق هو سمعه وبصره .

وفى حالة رابعة العدوية نجدها قد فنيت عن أهوائها ، وتركت التكالب والتعلق بالأسباب فى جلب المنافع ودفع المضار ، كما لو كانت قد غُيّبت فى رحم ، أو كما لو أنها قد تحولت طفلاً رضيعاً فى المهد ، وفى ذلك يقول السرى السقطى : إن الصوفى الفانى لو ضُرب وجهه بالسيف وهو فى حاله لما أحس بألمه . وقد ذكروا أن رابعة كانت فى الصلاة فسجدت على البوارى ، فدخلت قطعة قصب فى عينها فلم تشعر بها حتى انصرفت من الصلاة ، وكأن معنى الفناء أن يستحيل الصوفى إلى روح خالص ، ولذلك قد سموا طائفة الصوفية باسم الروحانية ، ومعناه أنهم الفئة التى يبلغوا فى تعبدهم لله وتركهم للدنيا أن تَضُمُّ

أجسادهم ، وتشف أرواحهم ، فإذا أدركهم الموت كانوا الأرواح الهائمة المتعلقة بعرش الله سبحانه .

وقد صنف الصوفية الموت أصنافاً ، فمنه موت أحمر يكون به فناء النفس عن شهوات الجسد ، وموت أبيض به يتنور الباطن بالجوع فيبيض وجه القلب ، وموت أخضر تكون به القناعة فيخضر عيش الصوفي ، وموت أسود يكون به احتمال أذى الخلق والفناء في الله لشهود الأذى منه ، برؤية فناء الأفعال في فعل محبوبه .

وأما في المسيحية فإن الموت لم يعد نهاية أو خاتمة بل أصبح مجرد عرض أو حادثة ، وأصبح موت الذات بمثابة حياة جديدة تبدأ هنا والآن ، وتنتشر إشعاعاتها فتعم كل الدنيا . وليست الحياة في الدنيا زمانية وإنما الحياة الخالدة هي هنا والآن **hic et hunc** ، مادامت الكلمة الإلهية قد تجسدت وأقامت بيننا ، وبذلك فقد تم الصلح بين السماء والأرض ، والروح والجسد ، وبانتصار المسيح بقيامته على الموت فقد عاد من القبر ليدعو إلى ديانة الحب وينادي بالحب ، ومن ثم كان طابع المحبة المسيحية هو الإحسان ، كالنور الإلهي الذي يفيض من الحق على الأبرار والأشرار على السواء .

ولا تعنى المحبة المسيحية الفناء عن الإنسى للبقاء بالإلهي كما في الإسلام ، ولكنها زواج المسيح والكنيسة ، وفي حالة القديسة تريزا فقد تزوجت صراحة الكنيسة ، أو تزوجت المسيح ونذرت نفسها له على الحقيقة ، بينما رابعة شبيبتها في تقدير الدكتور بدوى - لم تتزوج الله ، وكان اعتسافاً من الدكتور بدوى أن يتحدث عن رابعة حديث تريزا عن زواجها بالمسيح أو بالكنيسة ، حيث يقول : إن رابعة نذرت نفسها لله ، فإذا كان الزواج الحق هو زواج الحب ، وحبيبها الوحيد هو الله ، فإنه ما كان لها أن تقترن بغير الله ؟ !

وهكذا لا يبنى الدكتور نظريته في رابعة على وعى سليم بالفروق بين التصوف المسيحي والتصوف لإسلامي ، وإنه لخرق أى خرق أن يحاول أحدهم رد التصوف الإسلامى في أصوله إلى المسيحية ، أو يربط بين رابعة التى توفيت سنة ٨٠١ م وتريزا التى توفيت سنة ١٥٨٢ م !!

فما هى حكاية تريزا ورابعة ؟ وهل هما كما قال الدكتور بدوى مؤكداً « ما أقوى الشبه بين هذه الصوفية المسلمة وبين تلك الصوفية المسيحية » ؟

سنرى ذلك في الفصل القادم .

الفصل الخامس

تريزا الأفيلية ورابعة العدوية

إن مقارنة رابعة بتريزا الأبلية كما يقول الدكتور بدوى تجلو المشابهات بينهما ، ولا أدري بدءاً لماذا أطلق الدكتور بدوى على تريزا اسم الأبلية ، وذلك أن صحيح الإسم هو الأفيلية ، نسبةً إلى القرية التي ولدت بها وهى أفيلا **Avila** فاشتهرت من ثم في غير بلدها أسبانيا بأنها **Thérèse D'Avila** وفي بلدها بأنها تريزا اليسوعية **Teresa de Jesus** .

ولا أدري أصلاً لماذا المطابقة بين رابعة وتريزا حيث أن كلاً منهما كانت في واد ، ومع أنهما تحدثتا في المحبة إلا أن حديثهما عنها كان مختلفاً تماماً .

وكانت حياة رابعة وحياة تريزا مختلفتين ، وكذلك شخصيتاهما .

ورابعة بالإجماع لها حس وجدانى عال جداً ، ولغتها هى الفصحى ، وأقوالها تتميز بالطلاقة والوضوح ، وكلامها مناسب ، وأفكارها متصلة ، وتريزا وإن كانت مؤلفة كُتِبَ إلا أن أسلوبها فيها هو أسلوب الحديث العادى ، ولغتها هى اللغة الدارجة السائدة ، ولم تحاول أن تكتب بالوعى والطلاقة اللذين كانت عليهما كتابات القديس أوغسطين مثلاً ورغم أن كتاب السيرة الذاتية الذى ألفته تريزا هو من طراز كتاب الاعترافات للقديس أوغسطين إلا أنه لا يرقى إليه أسلوباً وموضوعاً .

ولا تحاول تريزا أن يكون لها تكنيك معين في الكتابة ، وتعتمد على السرد المرسل ، وأفكارها متقطعة ، وكما نقول تكتب بالبركة ما يعن لها من خواطر ، وعلى أيام متفرقة ، وقد تتذكر واقعة فتكتب عنها ، ثم تسقطها من حسابها لتعود إليها بدون مناسبة في صفحات تالية ، ربما كانت في وسط الكتاب ، أو نهايته ، دون مبرر لذلك .

ولو قارنا بين تريزا ورابعة فلسوف نجد من ناحية أن تريزا راهبة علّمت نفسها من الكتب ، وجعلت حياتها في الكتاب المقدس ، وكانت تخطئ في فهم الكثير من أجزائه ، وتكره أن يُظنّ بها الجهل فتخجل أن تسأل عما يعن لها ، ولكنها برعت في التأمل أو ما تسميه الصلاة العقلية ، والتأمل هو طريقها في الاستنباط ، وفي التوجه إلى الله ، والاتحاد به ، وهو محور حياتها الروحية ، وهو خصوصيتها في التصوف ، وكان التأمل قوتها في الشدائد والحن ومعاركها ضد الشيطان . ورابعة أيضاً كانت كثيرة الصلاة ، وكانت إذا صلّت انخرطت في صلاتها بالكلية فاستغرقته ، وكانت تنصح مريديها بأن يتوبوا إلى الله ويطيعوه ويصلحوا مطعمهم وأن يكون ذلك بدافع المحبة له لا خوف العقاب ولا طمعاً في الثواب .

إلا أننا أمام تريزا نجد نسقاً تعليمياً واضحاً ، فهي ابنة الكنيسة بلا ريب ، ولقد تزوجت من الكنيسة أو من المسيح ، ونذرت نفسها لخدمتها ، وتفرغت في أواخر أيامها لإنشاء الأديرة وتعليم البنات الدين ، وكانت المعلمة والمربية .

ورابعة لها معراج روحي انتهى بها إلى التجرد والتجريد . ولم تكن كذلك تريزا ، وهي تقول إنها ما كانت تقوى على التفكير المجرد ، وأنه ليس من طبعها أن تجرّد الأمور ، أو أن تتفلسف عليها ، وعلى ذلك فلم يحدث أن كانت لتريزا شطحات صوفية كما لرابعة .

وتريزا من عائلة كبيرة إسماً ورسماً ، فأبوها كان من الأعيان ، وإخوتها كانوا كثيراً من الجنسين ، وتعليمها كان في الدير منذ طفولتها الباكرة ، وكان نموذجها في التعبد أمها والعذراء ، ولما ماتت أمها توجهت بكليتها إلى صورة العذراء وهي بعد في الثالثة عشر من عمرها ، وشكت إليها يتمها ، وتوسلت إليها والدموع تنهمر من عينيها أن تكون لها أمّاً وهادياً ومعيناً . وفي السابعة فكرت وأخوها أن يهربا إلى المغرب العربي ليستشهدا من أجل المسيح ، ويقتلها المسلمون ، ولما اكتشف عمهما الأمر وأفضل خطتهما جمعت أترابها وكونت منهم مجتمعاً كنسياً صغيراً وكأنهن في الدير ، وأخذن يمارسن التقشف ويتمرسن بالعبادة .

وتريزا في مراهقتها انكبت على قراءة القصص عن الحب ، وذلك ما كان يعذبها من بعد ،

وقد ندمت على ذلك . وطبيعى أن تدفعها تلك القراءات إلى طريق تتمنى فيه أن تحب ، ولقد استشعرت في كثير من أوقات حياتها أنها ترغب أن تحب وأن تكون محبوبة ، فكانت تسمح لنفسها أن تحدث بعض الشبان من أقاربها أو الشخصيات التى تعرفت بها وهى راهبة ، وبالنسبة لراهبة مثل تريزا صارت رئيساً لدير ، ونُشرت لها المؤلفات الدينية ، فإن ذلك كان زلة كبيرة كثيراً ما استغفرت عنها ربها ، وكثيراً ما توسلت أن يغفرها الله لها .

ولم يكن كتاب تريزا فى السيرة ، أو كتابها طريق الكمال ، أو كتابها الخواطر فى محبة الله ، إلا اجترارات لوقائع حياتها ، وترديدًا مستمرا للندم وطلب المغفرة ، وهذا ما جعل بعض النقاد يفسرون هذا الاتجاه عندها بأنها ربما قد عرفت الإثم وتوغلّت فيه ، وساعد على ذلك وصفها لنفسها بأنها حقيرة ، وأنها من أسوأ النساء ، لا تُستحق أن تكون فى معية الله والمسيح وإنما فى صحبة الشيطان ، ومناقفة خدعت مَنْ حولها فيها ، وأن الله كان يستر مساوئها ويظهر فضائلها .

وقد قوّى عند النقاد ميلهم إلى اعتبارها من الخاطئات التائبات أنها فى كتابها السيرة نوهت باعترافات القديس أوغسطين التى يقول فيها أنه غرق فى شهواته الجسدية ، وكان يحب الممارسات الجنسية وأنه اتخذ عشيقة له فلما تركته بعد سنوات ظل يتحسر عليها إلى أن عثر على عشيقة له ثانية . وقرأت تريزا ذلك فتقول « فكأن الرب دبر هذا الأمر لأنى ما سعيت للحصول على الكتاب ولا كنت رأيت ، وكنت أكرّم القديس أوغسطين بصفة خاصة ، لأن أول دير تعلمت به كان يخص رهبانيتيه ، وقرأت أنه كان من قبل خاطئاً وكنت أجد العزاء الكبير فى القراءة عن القديسين الذين تابوا بعد أن تردوا فى الخطيئة ، وأحسبني أجد فى هذه القراءة مساعدة كبرى لى ، وأخال أن الرب كما غفر لهم سيغفر لى أيضاً ، وما كان يضايقنى سوى أمر واحد ، وهو أن الرب قد دعا هؤلاء مرة واحدة فاستجابوا له ولم يعودوا إلى السقوط ، وأما أنا فقد دعانى مرات كثيرة ، وكنت أستجيب وأعود إلى الخطيئة وهذا هو ما كان يكدرنى ، وكلما سقطت تذكرت حب الله لى فاستعيد شجاعتي وأتوب ، وياطالما ارتببت فى نفسى كل الارتباب ، ولكنى ما يئست أبداً من رحمة الله » .

وتقول تريزا عن اعترافات القديس أوغسطين « منذ بدأت أطلع الاعترافات رأيت

نفسى فيها فشرعت من فورى استشفع هذا القديس ، وحين بلغت الفقرات التى يحكى فيها عن ارتداده ، وطالعت كيف سمع ذلك الصوت فى الحديقة ، خلتنى أسمع هذا الصوت بقلبى ، وأن الرب أسمعنى إياه ، فبكيت بشدة ، وغرقت فى دموعى وشعورى بالندم .

والمثير فى كتابها السيرة الذاتية أن الفقرة الأولى منه بمثابة دعوة حارة للقارىء أن يواصل القراءة ، وخاصة إذا كان يعانى من مشاعر الذنب ، وأنت يا عزيزى القارىء لن تملك نفسك وأنت تقرأ تريزا تقول « لقد تلقيت الأمر الإلهى أن أعرض طريقتى فى التصوف التى تقوم على التأمل وشرح الأنعام التى خصنى الله بها ، وإنى لأود أن أروى عن خطاياى الكثيرة ، وأقص عن حياتى بالتفصيل والوضوح ، وإذن لكان فى ذلك كل العزاء الروحى لنفسى المعذبة . وإنى لأرجو من يطالع قصة حياتى هذه أن يتذكر جيداً أن حياتى كانت من السوء بحيث أنى لم يكن يكفينى لأعدل عنها أن أقرأ أخطاء القديسين وتوبتهم » ، إلا أن تعجب لها ومنها وتصدق حكاية ولوغها فى الإثم .

تلك وغيرها كانت الفقرات التى أثارت النقاد ، ويبدو أن الدكتور بدوى كان منهم فاعتبرها من الخاطئات ، ووجد فيها نموذجاً يطبق عليه فلسفته فى التطرف والتوتر المتطرف ، إلا أن تريزا فى اعترافاتها كانت تؤكد باستمرار أنها « كانت تحذر اقتراف خطيئة مميتة » وأنها لم تكن « ترضى أن تقترف خطأ جسيماً ضد الله مهما كلفنى الأمر » .

وتروى تريزا قصة الكاهن الذى كانت تعترف له ، فلقد أذهلته أنها وهى الفتاة فى ميعة الصبا لم تكن تسمح لنفسها أبداً بالتردى فى الخطيئة ، فأثر هو أمام فضيلتها أن يعترف لها ، وتقول تريزا « لقد مضى عليه سبع سنوات تقريباً وهو يعانى بشكل حاد من معاشرته امرأة فى القرية كان مولعاً بها ، ومع ذلك كان يقيم القداس ، وكان الأمر مشهوراً حتى فقد كرامته وصيته ، وحاولت أن أعرف عنه وأزيد معلوماتى عن حالته من أهل بيته ، وازداد علمى بضياعه ، ولكنى علمت أن تلك المرأة الشقية كانت تسحر له ، ورغم أنى لا أعتقد بصحة ما يروونه عن الرقى إلا أنى أروى ما عرفت ، ليحذر الرجال النساء اللاتى يسعين أن يكونوا لهن عشاقاً ، ولتعلم هؤلاء النسوة أنهن إذ يفقدن الحياء أمام الله لا يعدن أهلاً لأية ثقة من أى نوع ، وأمثال هؤلاء النسوة اللاتى لا يلتزمْنَ الاحتشام لا يتورعن عن شئ من

أجل إشباع رغباتهن والهوى الذى يلزمهن كالمرض لأنه من فعل الشيطان . « أما أنا وإن كنت يائسة فلم أسقط فى هفوة كهذه ولا نويت أن أفعل السوء قط ، ولا أريد - حتى لو استطعت - أن أسحر لآخرين وأرغمهم على حبى ل ، أن الرب عصمنى من هذه الأمور » .

ويبدو أن الدكتور بدوى لم يقرأ هذه الفقرات وأثر أن يقتبس من الكتاب فقرات أخرى تناسب مقولة التوتر المتطرف فى مذهبه الوجودى حيث تقول تريزا فى اعترافاتها :

« كانت حياتى رهقاً شديداً لأنى فى التأمل كنت أعى أخطائى بوضوح أكبر ، فقد كان الله يدعونى من جهة ، وكنت من جهة أخرى أتبع العالم ، وكانت كل أمور الله تسرنى سروراً عظيماً ، لكن أمور العالم كانت تقيدنى كانى كنت أريد التوفيق بين هذين الضدين ، والعداوة ضاربة بين الواحد والآخر ، بين الحياة الروحية وتعزياتها ، وملذات الحياة الحسية ولهوها » .

وهذه الفقرة هى التى يستشهد بها الدكتور البدوى ويترجمها عنها فيقول « من ناحية كان الله يدعونى ، ومن ناحية أخرى كنت أشارك فى الدنيا . أجل ! لقد كنت أجد فى الأمور الإلهية نعيماً كبيراً بيد أن قيود الدنيا لاتزال تأخذ بمخنقى حتى ليبدو لى أنى قد أردت أن أحالف بين هذين الضدين برغم ما بينهما من عداوة : الحياة الروحية بنعماتها ، وحياة الحواس بشهواتها » .

وهذه الفقرة نفسها هى التى ألهمت الدكتور بدوى أن يكتب عن رابعة : « نستطيع أن نفترض أنها إبان انتهابها للذات كانت بين الحين والحين تخلو بنفسها وتتذكر تلك الرسالة التى ألهمتها ، فكان يطوف بها إذن الفنية والفنية طائف من التآنيب والتذكير بالطريق السوى ، وهذه الفينات خصوصاً هى تلك التى تشعر فيها إما باليأس من عاطفة اندفعت فيها نحو شخص ثم خاب رجاؤها فيه ، وإما بأنها قد اندفعت فى طريق الإثم إلى حد بالغ الإفراط ، فلاشك فى أن هذه التنبيهات المتوالية قد أثرت فى منطقة اللاشعور لديها ، لكننا لا نستطيع أن نقول إنها كانت كافية لإحداث الإنقلاب الروحى ، وقصارى أمرها أن تكون حالها تلك التى وصفتها القديسة تريزا

الأبلية إبان محنة صراع الدنيا والدين في داخل نفسها فقالت .. » ثم يذكر الدكتور بدوى الفقرة السابقة .

وكما نرى فإن الدكتور بدوى يعتسف الكلمات اعتسافاً ويطبق على رابعة حالة تريزا ، مع أن حالتيهما لا تتطابقان إلا في نواح إنسانية عامة هى عند الناس جميعاً في أمثال هذه المواقف .

وقصة الصراع بين الدين والدنيا ، وبين الروح والجسد ، معروفة ، وهى موضوع من موضوعات الأدب والدراما ، إلا أن كل شخصية لها نسيجها الحى من التجارب التى تجعل من الشخصية نسيج وحدها ، وأغلب ظنى أن قراءة الدكتور بدوى لقصة تريزا مشوهة هى التى ألهمته أن يكتب قصة رابعة على نفس المنوال ، وأن ينسج لها أحداثاً ووقائع كالتى ظن أنها حدثت لتريزا فى رأى بعض نقادها .

ومشكلة تريزا لم تكن الجنس كما يظن الدكتور بدوى ، ولكنها كانت الشك ومنازعات الدنيا ونزغ الشيطان ، وتريزا تقول إنها قضت في عذابات الشك وتأنيب الضمير لمخالفاتها النفسية - وأكرر النفسية وليست الجنسية - لله قرابة عشرين سنة « أسقط تارة وأنهض أخرى على السواء » ولأنى كنت أعود إلى السقوط فحياتى على درك متدن من النقص ، ويمكننى القول أنها كانت حياة من أكثر الحيوانات مشقة في تصورها ، فما كنت أنعم بالله ولا كنت أغتبط بالعالم ، فحين كانت مسرات العالم تغمرنى وأتذكر واجباتى نحو الله كان الأسى ينتابنى ، وحين أكون مع الله كانت أهواء العالم تسلبنى السكينة ، وتلك كانت حرباً شاقة لا أدرى كيف استطعت احتمالها شهراً ، فما بالك بالسنوات العديدة .

وتستطرد تريزا « ومع هذا كنت أرى رحمة الله الكبرى التى غمرنى بها ، فرغم علاقاتى الدنيوية بقيت لى نعمة أن أتجراً وأمارس التأمل ، وأقول أتجراً لأنى لا أعرف فى هذه الدنيا جرأة أكبر من خيانة الإنسان لربه وإصراره على أن يستمر في البقاء فى حضرته رغم معرفته بأن الله يحيط بأمره ، ولئن كان الناس جميعاً فى حضرة الله إلا أن الذين يمارسون التأمل شأنهم مختلف ، لأنهم يعرفون أن الله يراهم ، وأما الآخرون فقد تنقضى أيامهم فلا يتذكرون إلا لما أن الله يراهم . »

ثم تقول تريزا إنها قضت صدر شبابها في « هذا الصراع بين مصاحبتى العالم ومعاشرتى الله » وكأنى بتريزا إذ تعتبر مصاحبة الدنيا هى الخطيئة ، تستغفر لنفسها وتبدى التوبة بعد التوبة . ولم يكن استغفارها إذن من خطايا مميتة ، وقد أخطأ الدكتور إذ ظنها قد أوغلت في شبابها في الخطيئة ، وأخطأ إذ يظن التوبة ودوام الاستغفار « أصدق دليل على اندفاعها (أى رابعة وبالمثل تريزا) إلى أبعد حد في طريق الشهوة » .

وللتوبة معنى خاص في التصوف ، لأن العامة توبتهم من الذنوب ، وأما الصوفية فتوبتهم من الغفلة ، أو كما قال رويم . أن تتوب من التوبة ، وهو المعنى الذى قصدت إليه رابعة في قولها : استغفر الله من صدقى في قولى استغفر الله ! وهى قمة التوبة ، وتوبتها إذن عن كل شىء سوى الله ، وذلك هو الفرق بين توبتها وتوبة تريزا ، فتريزا كما رأينا من الفقرات السابقة توبتها من خواطر المعصية التى هى التعلق بالدنيا ومصاحبة أهلها ، ورابعة توبتها هى توبة أهل مقام الصديقية ، لأنها تتوب من أن يخطر غير الله على بالها ، فمقام رابعة في التوبة أكبر من مقام تريزا .

ومع ذلك لم يحاول الدكتور بدوى أن يفهم ذلك وحسب توبة رابعة وتريزا من توبة العوام أى من المعاصى والذنوب ، واعتبر التوبة دليل صدق على فسوقهما ، فاعتبرهما من عامة الناس ، ولم يدرجهما ضمن الخاصة الذين قالوا فيهم أنهم أصحاب القيم والمبادئ .

ويقول أبو دقاق التوبة ثلاثة أقسام ، الأول التوبة ، والثانى الإنابة ، والثالث الأوبة ، فمن يتوب لخوف العقاب فهو صاحب توبة ، ومن يتوب بطمع الثواب فهو صاحب إنابة ، ومن يتوب بمحض مراعاة أمر الله من غير خوف العقاب ولا طمع الثواب فهو صاحب أوبة .

وكما ترى عزيزى القارئ أن التوبة التى يقصد إليها الدكتور بدوى توبة عامة المؤمنين التى خاطبهم بها المولى عز وجل فقال : ﴿ توبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون ﴾ وأما الإنابة فهى صفة العقلاء المقربين حيث قال تعالى : ﴿ وجاءوا بقلب منيب ﴾ ، وأما الأوبة فهى صفة الأولياء والمرسلين فقال تعالى : ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾ .

وتريزا كانت تتوب وتصلى لفوائد التوبة والصلاة - تقول . كثيرون من الصالحين كتبوا في الفوائد التي يجنيها المؤمن الذي يمارس التأمل أى الصلاة بعقله ، وأنا أستطيع أن أحدث فيما أعرفه بالتجربة ، وهو أن من بدأ يمارس التأمل فلا ينقطعن عنه مهما فعل من زلات ، لأنه الوسيلة التي تساعد على معالجة أموره ، وبدون التأمل (أى الصلاة العقلية) سيشق على المؤمن أن يتوب ، ولا ينبغي أن يترك الشيطان يجربه كما جرّبني فيترك التأمل ، وليثق بالله فهو لا يُخلف وعده إذا تبنا توبة نصوحة وعزمنا على أن لا نعود إلى الزلل ، فإنه تعالى لا يقطع إنعامه عنا بل ، وسيظل ينفحننا بنعمه ، بل وسيكثرها أحياناً إذا كانت توبتنا تستحق ذلك .

ومع ذلك فقد كانت تريزا في أواخر أيامها لا ترجو من الله سوى أن يجعل في طاقتها أن تحبه وأن تذوب بكليتها في محبته ، وقالت إنها تشاهد الله بقلبها في تأملاتها . واستخدمت مصطلحاً جديداً هو اللاهوت الصوفي *teologia mystica* وتعنى به الحالة الروحية التي يكون عليها الصوفي في حضور الله ، والتي يستشعر فيها أن الله تعالى حاضر فيه ويستغرقه تماماً ، فالله يغمر النفس كما تقول تريزا فيستشعر الصوفي أنه أقوى من ذي قبل ، والقوة التي تأتيه مصدرها الآخر أى الله الحالّ فيه ، وتريزا تسمى هذا الحلول قراناً روحياً .

وأما رابعة فلم تقل بالحلول ولا الاتحاد أبداً ، ولا خطرت على بالها مسألة القران الروحي ، وكان اعتسافاً وأى اعتساف أن يفسر الدكتور بدوى قول حيونة لرابعة : « قومي ! قد جاء عرس المهتدين . يامن زين عرائس الليل بنور التهجد » بأنه نص على أكبر درجة من الخطورة « لأنه يتحدث عن وجود فكرة الزواج من الله والاقتران به لدى الصوفيات المسلمات حتى منذ القرن الثاني الهجري أى الثامن الميلادي ، وهى الفكرة التي لعبت دوراً خطيراً في التصوف المسيحي ابتداء من القديسة تريزا الأبلية التي عاشت في القرن السادس عشر الميلادي ، أى بعد أولئك الصوفيات المسلمات بثمانية قرون ، وإذا كنا لا نستطيع أن نتحدث عن تأثير مباشر لهؤلاء الصوفيات المسلمات في القديسة تريزا فإننا نترك هذه المسألة مفتوحة أمام الباحثين .

وأقول إن ذلك الذي يذكره الدكتور بدوى اعتساف وأى اعتساف ، فهو يعرف أن الذي

أذكى فكرة القران الروحى فى المسيحية تَعَبَّدَ المسيحيين للمسيح ، وتصورهم له فى لوحاتهم وتمثيلهم شاباً غاية فى الجمال ، وأن المسيح هو ابن الله عندهم صراحة ولا لبس فى ذلك ، وهو « إله وابن إله » على الحقيقة ، ولقد عاش المسيح عزباً ، وما كان يمكن للصوفية المسيحيين أن يتزوجوا الكنيسة والدنيا ، أو أن يخدموا سيدين فتكون لهم الزوجة ويخلصوا فى محبتهم لله ، وفى ذلك يقول القديس أوغسطين فى الاعترافات « إن من يريد الله فعليه أن ينصرف عن كل اتصال بالنساء ، وأن يسعى فقط إلى أن يكون عبداً مخلصاً لله ، لأن المتزوج همومه دنيوية وسعيه لأن يرضى زوجته وليس الله » .

والشطط الذى يقع فيه الدكتور بدوى أن يجعل القران الروحى الذى قالت به المتصوفات المسيحيات من تأثير الصوفيات المسلمات وخاصة رابعة العدوية ، اعتماداً على مجيء رابعة قبل تريزا تاريخياً ، ومن ثم يكون التأثير من رابعة على تريزا هذه المرة ، وقد كان فى مسألة المحبة الإلهية من تأثير المسيحية عموماً على رابعة !! وذلك اضطراب فكرى نحسبه لايجوز ممن هو على درجة عالية من المعرفة كالدكتور بدوى ، وقد تمرس طويلاً بتدريس المنطق ، ولو كانت هذه الفكرة مسلمة لتطورت مع الصوفيات المسلمات تطور كل المفاهيم الصوفية الأخرى ، مع ملاحظة أن رابعة من صوفية القرن الثانى الهجرى ، أى أنها كانت فى بداية حركة التصوف ، والمقالة التى أوردها الدكتور بدوى والتى يذكرها المؤرخون تنسب لحيونة ولم تنسب لرابعة ، ومع ذلك فلو كان لرابعة مثل خواطر حيونة ، ولو كانت تعتبر نفسها عروساً فقد زينها الله بنور التهجد ، وأن الإقبال عليه فى الصلاة بمثابة الإقبال على عريس هو عريس المهتدين فإن ذلك لم يتعد بلاغة المقال التى تناسب علو الحال ، وحتى رابعة تشكو حبها لله وتبثه عذابها فيه وتصفه بأنه روح الفؤاد والمؤنس من أمثال « أنت روح الفؤاد أنت رجائى ، أنت لى مؤنس وشوقك زادى » إلى آخر ذلك من مخاطبات ، إنما كان يقتضيهما الخطاب . ولغة رابعة أو حيونة فى ذلك هى قضية التعبير فى التصوف عن أحوال لا يمكن التعبير عنها إلا بلغة هى أصلاً المقابل للمحسوسات ، وحتى الصوفية من الرجال فى الإسلام والمسيحية على السواء لم يجدوا فى تعبيرهم عن محبة الله إلا هذه اللغة المتداولة عموماً بين المحبين .

ولسوف نتناول فى الفصل القادم بإذن الله لغة التصوف فى المحبة عند الصوفية ، وعند رابعة وتريزا والفروق بينهما .

الفصل السادس

لغة التصوف عموماً وعند رابعة وتريزا خصوصاً

يقول ابن خلدون عن التصوف والصوفية : هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة ، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تنزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد في الخلوة للعبادة ، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف ، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة .

وهذا إذن هو الأصل في حركة التصوف : أنه عزوف عن الدنيا وزخارفها وزينتها ، والزهد في اللذة والمحسوسات . والجنيد يقول عن التصوف والمتصوفة : « من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يُقْتَدَى به في هذا الأمر ، لأن عملنا هذا مقيد بالكتاب والسنة » . وقال « الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ ، واتبع سنته ، ولزم طريقه » . ويقول سهل التستري : « أصول طريقتنا سبعة ، التمسك بالكتاب ، والاقتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، وتجنب المعاصي ، ولزوم التوبة ، وأداء الحقوق » .

وأى تفسير لأقوال الصوفية ينبغي أن يؤخذ فيه ذلك الأصل ، وكان الإنكار على الصوفية دائماً بسبب اللغة التي استخدموها في التعبير عن الوجدانيات بلغة هي أنسب للمحسوسات ، وعن المجردات بلغة الماديات . وليست المشكلة هي مشكلة الصوفي في أن يعثر

على ما يصب فيه وجدانياته من كلمات ، أو يجسد مجرداته من المعانى ، ولكن المشكلة هى مشكلة **المتلقى عن الصوفى** ، وهما اثنان : إما صوفى مثله ، وذلك تبلغه من أخيه فى الله الرسالة تَوْأً ، ويطرق قلبه المعنى فوراً ، فيشجيه أو يذهله ، أو يجذبه ويتخطفه حتى لقد يغشى عليه ، فالاتصال بين الصوفى والصوفى قائم غير منقطع ، ومباشر فى الحال . وإما أن المتلقى من العامة فكأن الصوفى يتحدث بلغة غير اللغة المعروفة ولا المتداولة . وقد يكون المتلقى فقيهاً فهو مثل العامى ، لأن التصوف علم أحوال ومن ذاق عرف ، ومن لم يذوق لم يعرف . وما لم يتهياً المتلقى بالاستعداد لفهم حقيقة ما يقوله الصوفى فإنه لحرى به أن يرميه بالادعاءات الباطلة فى أنواقه ومشاربه وعلومه ومعارفه ومواجيده وأحواله ، كما أن عبارته ستدق عليه وهى التى ترمز إلى المعانى الرفيعة ، والتى لا يمكن بحال أن تخرج عن التوحيد والتنزيه المطلقين . ولو أن المنكر على الصوفى قد أخذ نفسه بما أخذ به الصوفى نفسه من النظر والسلوك ، لما أنكر عليه ما أنكره ، ولما رماه بما يرميه به . وقد قيل إن الصوفى ترقى مداركه ، ومن هذه الرقة كان الطعن عليه فى علومه وأحواله ، لأن النفس البشرية تسرع لإنكار ما لا يتقدم لها علمه .

ورابعة لم تكن من المبطلين فى الدعاوى ، والطالبيين لأغراض الدنيا بالديانة ، حتى نتأول كلامها ولو بحجة خوف الإضلال للعامة . والتأويل والتخريج لأقوال الصوفية من شح النفوس ، وقد سئل يوماً **أبو على الجوزجاني عن البسطامى** تعبيراته فى المحبة لله فقال « يسلم له حاله ، ولعله تكلم بها على حد غلبة أو سكر ، ومن أراد أن يرتقى إلى مقام أبى يزيد (البسطامى) فليجاهد نفسه كما جاهدتها أبو يزيد ، فهناك يفهم كلام أبى يزيد » .

والصَوْلُ فى التصوف هو الاستطالة باللسان ، والصوفى المحب لله لا يمكن أن يخون الله فى نفسه ، وهو عندما يصول فإنه يصول بالله . وكان النبى عليه الصلاة والسلام يقول فى دعائه « اللهم بك أصول وبك أحول » . وكان **إبراهيم الخواص** يقول « وأصول بالله » . وكانت رابعة تصول ، وصولها كان لله وبالله ، وكانت لها مواقف صححت فيها

الرجال ، فكانت كما قيل تصحح للحسن البصرى ، وعبد الواحد بن زيد ، وسفيان الثورى ، وغيرهم الكثيرين .

وكلام رابعة الذى لم يفهمه الدكتور بدوى وفسّره إلى ما فسّره به وإليه هو من قبيل المناجاة ، والمناجاة بلغة الصوفية مرموزة ، وقالوا فيها إنها لغة إشارة ، وقد ذكر أبو العباس بن عطاء عندما سأله عن لغة المتصوفة أن عبارات التصوف إشارية .

نشير بها فنجعلها غموضاً تقصر عنه ترجمة العبارة
ونشهدها وتشهدنا سروراً له في كل جارحة إثارة
ترى الأقوال في الأحوال أسرى كأسر العارفين ذوى الجسارة

ولغة التصوف لطائف وإشارات إلى القلب في دقائق الحال ، تلوح في الفهم وتلمع في الذهن . وللصوفية آداب ومن ذلك أنهم يقرّبون المعانى للخلق بما يفهمونه من عبارات وإشارات . وما يقوله الصوفي هو الظاهر ، غير أن لكل ظاهر باطناً ، وما تقوله رابعة العدوية في المحبة الإلهية قد نفهمه على الظاهر . وقد ندرك منه الباطن وقد ذكر عالم النفس يونج في تصانيفه في مجال الشخصية أن من الناس من يفهم المحسوس والظاهر ، ومنهم من يكون له من نمط الشخصية أنه يغوص إلى المعانى ويطلب الباطن ويتنكب الظاهر ويميل إلى المجرد ، وكلام رابعة قد نفسه ظاهرياً ومن ثم قد يكون مجافياً لما عهدناه وللمألوف والمعتبر ، وقد يقبله غيرنا لأنه فهم مراميه وعرف مراده وأحاط ببواطنه ، وكما قلنا إن من ذاق عرف ، ولغة التصوف لغة ذوق . وقد قيل :

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحبّ لمن يحب مطيع

والدكتور بدوى لم يحب الصوفية ولم يفهم لذلك رابعة ، ولو كان محباً على الصدق للصوفية ولرابعة لطاوعها فيما قصدت إليه وفهم منها الإشارة والرمز ، فهل إذا قال ابن عبد الصمد « أصمّنى الحب » نفسه على أنه الصمم أصابه من الحب ، مثلما فعل الدكتور بدوى إذ يفسر أبيات رابعة التى تقول فيها إن الله هو الحبيب وروح الفؤاد والحياة والأنس :

يا سرورى ومنيتى وعمادى	وأنيسى وعىدى ومـرادى
أنت روح الفؤاد ، أنت رجائى	أنت لى مؤنس وشوقك زادى
أنت لولاك يا حياتى وأنسى	ما تشئت فى فسيح البلاد
كم بدت منذ لك عندى	من عطاء ونعمة وأيادى
حبك الآن بغيتى ونعيمى	وجلاء لعين قلبى الصادى
ليس لى عنك صاحبيت براح	أنت منى ممكن فى السـواد
إن تكن راضياً على فىانى	يا منى القلب قد بدا إسعادى

بأن الطابع الحسى ظاهر فى هذه الأبيات ، ويرجع الدكتور ذلك إلى أن الأمر مع رابعة كان لا يزال مختلطاً عليها من أول أمرها فى التصوف ، فالخطاب فى هذه الأبيات يصلح تفسيره بأنه يتجه إلى شخص حسى كما يصلح بصعوبة أن يتجه إلى الله ، بل إنها فى هذا الشعر قد تناست أو نسيت أنها تخاطب الله فتحدثت عن حبيب لها يلوح فى أنه كان متنقلاً ، فاضطرت هى تحت ستار الترحل لكسب العيش بالعزف كالحال مع عامة الموسيقيين فى تجوالهم لإحياء الحفلات فى البلاد المختلفة ، أن تلاحقه مما اضطرها إلى التشتت فى البلاد (١١) وهذا أغرب ما يمكن أن يذهب إليه مفسر لهذه الأبيات ، وأحسب أن الدكتور بُعد كثيراً فى تفسيره حتى لأقول إن الذى تشئت هو الدكتور نفسه حيث يذكر أن ذكرى هذا الحبيب قد اختلطت فى ذهنها فعبرت بهذه الكلمات المشبوبة الحسية عن تجربتها معه وإن كان الخطاب موجهاً إلى الله .

ومن رأى الدكتور أنها ما كانت تستطيع أن تحكى عن حبها لله بهذه الصورة إلا إذا كانت قد عانت تجربتها بدقائقها فعلاً ، ثم جعلت من هذه التجربة لها إطاراً تعرض فيه حبها لله . ودليل الدكتور الذى يسوقه على صدق دعواه أن رابعة فيما قالت فى حبها لله لها هذه المناجيات التى تقول فيها « إلهى ! أنارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك » و « إلهى ! هذا الليل قد أدبر ، والنهار قد أسفر ، فليت شعرى أقبلت منى ليلتى فأهناً ، أم رددتها على فأعزى » فوعزتكم

هذا دأبى ما أحييتنى وأعنتنى ! وعزتك لو طردتني عن بابك ما برحت عنه لما وقع في قلبي
من محبتك ! » . فالإطار لكلامها في محبة الله إطار غرامى ، فيه هدوء الليل وضياء النجوم
ونوم العيون ، وهو ما قد عرفته عياناً في قصة أو قصص غرامياتها السابقة قبل التوبة ،
ووعيتها بهذه التفاصيل دليل على أنها قد خرجت توأ من التجربة ، وأنها لاتزال في أعماق
نفسها تحن إلى هذا الحب ، ولعلها تذكرت ليلاتها الحُمر بين مخارف النخيل على ضفاف
نهر الأبلّة ، وقد غفلت عيون الرقباء من الناس ومن الشرطة خاصة كما تبين من عبارتها
ذات الدلالة الكبيرة « وغلّقت الملوك أبوابها » وتقصد بها أن الحاكم والشرطة والتابعين له لم
يعد لهم سلطان على مجلسها ، وفي وسعها أن تختل بحبيبها تساقيه ما تود من اللذات
المحرمة (!!) .

ويطلب الدكتور بدوى من القارئ أن يتأمل خصوصاً الشوق المتحسر في قولها
« وخلا كل حبيب بحبيبه » ، ففيه قشعريرة قلب طالما نَعِم هذه اللحظات العالية !

ويتسائل الدكتور : أتراها نادمة في قولها هذا « نادمة على تركها طريقها السابقة
وانصرافها عن الحب الإنسى إلى الحب الإلهى . كلاً بل هى قلقة لاتزال موزعة الأهواء بين
الدنيا والآخرة ، وحبيبها الجديد (يقصد الله تعالى) لايزال بمنأى عنها لأن الطريق إليه
شاق طويل ، وما هى ذا تتضرع إليه فتقول « وهذا مقامى بين يديك ! » ، فأية لوعة فى هذه
العبارة النارية ' وأية صورة فاتنة تستثيرها فى الخيال !

ولقد بدأت رابعة تستشعر الحب لله ، وإنه لينمو وتواكبه مشاعر مختلفة ، لعل من
بينها ومن أقواها الشعور بأنها نذرت نفسها لهذا لمحب الأسمى ، وعمّا قليل ستعلن
خطبتها إليه ، ولعل ذلك أن يفضى فى النهاية إلى الزواج الروحى بينها وبين الله !!!

والله هذا أغرب كلام يمكن أن يقال فى تفسير هذه الأبيات ! ولست أجد ما أقوله فى ذلك
إلا أن الدكتور يريد بهذا التفسير أن يصادق على دعواه فى الوجودية ، وهو يعاند كل ما قيل
عن لغة التصوف ويأبى إلا أن يذهب فى تفسير المذهب الذى يخدم فلسفته ، وقد تناقض إذ
ذيل تفسيره بمقارنة بين قول رابعة « وعزتك لو طردتني عن بابك ما برحت عنه لما وقع فى

قلبي من محبتك » ، وقول صوفي آخر هو **الحلاج** : « يا أهل الإسلام أغيثوني ! فليس الله يتركني ونفسي فأنس بها ، وليس يأخذني من نفسي فأستريح منها ، وهذا دلال لا أطيقه ! » ، ويعلق على ذلك بأن الدلال في نص الحلاج أن نفسه تتدلل على الله ، وأما في نص رابعة فالله هو الذى يتدلل عليها ، ويفسر ضراعة رابعة بأنها منتهى الحب لأنه يرى أن الحب الوجودى هو أن يحب المحب بلا أمل ومن طرف واحد فيتألم في حبه ، وذلك وأمثاله من الآراء في الحب يطرحه الدكتور في كتابه **الزمان الوجودى** .

غير أنى أرى أن أقوال رابعة إذا أضفناها إلى أقوال غيرها من المسلمات اللاتى تصوفن تشكل ما يمكن أن نسميه « **الأدب الصوفي النسائي** » . وما يُحكى عن معاذة العدوية ، ورابعة العدوية ، وماجدة القرشية ، وعائشة بنت جعفر الصادق ، وامرأة رياح القيسى ، وفاطمة النيسابورية ، ورابعة بنت اسماعيل الشامية ، وأم هارون ، وعمرة امرأة حبيب ، وأمة الجليل ، وعبيدة بنت أبى كلاب ، وحفيرة العابدة ، وشعوانة وآمنة الرملية ، ومنفوسة بنت زيد بن أبى الفوارس ، والسيدة نفيسة ابنة الحسن بن زيد بن الحسن بن أبى طالب ، وريحانة ، وحيونة ، وسلمونة ، وميمونة ، لما يمكن إدخاله في باب هذا الأدب ، بل إن بعض الأقوال المنسوبة إلى هذه أو تلك لتتشابه في المعانى والألفاظ وجميعها تتسم بسمات خاصة تميزها عن أدب الرجال في مجال المحبة ، وفيها ألفاظ أليق بالنساء حتى لنقرأها فنذكر فوراً أن قائلها لابد أن يكون امرأة ، وتلك طريقتهم في التعبير عن المحبة حتى لو كانت محبة الله .

والنساء تخصصهن المحبة ، وكلما استبدت العاطفة بالمرأة كان الشَّعر وسيلتها في التعبير ، وأشهر النساء في مجال المحبة الإلهية كن شاعرات ، وكانت رابعة متميزة بالشعر ، وكذلك الشامية ، وريحانة ، وحيونة ، وميمونة ، والشعر النسائي الصوفي فيه التوتر والوجد الميرير والحب الواله والعشق الغالب ، ولغة الحب هى اللغة الأوفى في الشعر لأن الشعر لغة القلوب ، والحب قوت القلوب ، فالحب من الشَّعر عصبه .

وفي أخبار الصوفية عموماً يعتريهم الجذب عند السماع لشعر الغزل ، لأن طاقاتهم الشهوية يصرفونها إلى الحب الإلهي ، ولقد أولوا رموز الغزل البشرى إلى معان إلهية ،

والفرق بين شعر الغزل الحقيقي والغزل الصوفي أن الرمز في الأول مقصود لمعناه الشهوى ، وهو في الثاني يحيل إلى حالات وجدانية ومعان سيكولوجية . والغموض في شعر الغزل تمويه من الشاعر لكي يفيض على شعره المشروعية فلا ينافي الآداب ، وهو في الشعر الصوفي يتعمده الشاعر . ورابعة الشابة الحلوة ذات الصوت الشجي والمحيا اللافت وهي تنشد الشعر قد يظنه السامع منها للإطراب ، ولما صار أمرها إليها وغلبتها أحوالها الصوفية عبرت في شعرها عن الأنس والخوف والرجاء والمحبة والتوبة والرضا ، واستخدمت في ذلك لغة الحب المتعارف عليها ، وذلك من قضايا الشعر الصوفي ، لأن شعراء الصوفية لم يجدوا وسيلة أقوم ولا أجدر من شعر الغزل للتعبير عن مواجيدهم ، فما بالك إذا كان الشاعر امرأة .

وقد نقبل الشعر الغزلي الصوفي من رجل كابن الفارض ولا نتقوّل عليه في حياته الجنسية ، ولكن ها قد ثبت أنه حتى الدكتور بدوي — الفيلسوف الذي لاشك في مكانته وقدره وعلمه — يشك في المرأة إذا قالت الغزل في مجال التصوف ، والشاعر الصوفي إذ يفيض بالمعاني فإنه ينسجها شعراً يحكى عن الجمال والحق والخير . والمحبة أصل كل المعاني العظيمة والنبيلة ، وشعراء الصوفية تغنوا بالمحبة مما جعل باب الشعر في المحبة من أبواب عبقرية اللغة العربية ، ومما أضفى على الأدب العربي من أسرار عظمة المصطلحات الصوفية ما استلقت انتباه المستشرقين فراحوا يترجمون منه وينقلون معانيه ويعجبون مما فيه أشد العجب .

وإن المرأة ليقرأ شعر رابعة ، وأشعار فريد الدين العطار ، وجلال الدين الرومي ، وعبد الرحمن جامي ، وابن الفارض ، وابن عربي ، ويستشعر فيها الإعجاز المذهل . ولم تكن رابعة تقصد أن تتفلسف في شعرها ، ولم يقصد إلى ذلك أي من الصوفية المحبين ، ولكن الشاعر الملهم منهم ، والفنان صاحب المشاعر الجياشة والوجدان الرهيف ، كان يترك لقلبه أن يفيض بمشاعر الحب ويرتقى بها حتى يتجاوز بمحبته كل حدود البشرية ويتسامق إلى السماء ، فينشد الحب لله تعالى حباً يملك عليه كل نفسه وتفكيره ، فيصيرُه عاشقاً متيماً ، فلا يجد ما يعبر عن لوعته إلا اللغة التي يكون بها التعبير عن محبة المحبين .

والشاعر الصوفي يرى الله أصل الوجود ، والله هو المحبة ، وقدرته وكماله وجلاله وعلمه وإبداعه يتخلل الوجود فيضاً عن فيض كنوره الذى أضاء بأسمائه العلية فاستبانته به الموجودات من العدم فكانت بعد أن لم تكن . ولم يكن من الممكن أن تأتى الشاعر الصوفي هذه الرؤى لولا أنه يحب الله ويشهده في أفعاله وصفاته ، وإذ يشاهد فيه الكمال والجلال والجمال ليتمنى أن يكون شهوده متصلاً ودائماً ، ويصوره باعتباره المطلق المعشوق في كل جميل ، والمتجلى في كل صور الجمال كى يعيش .

والحب طريق للوصول إلى الله . والنفوس في توهمها أنها موجودة بخلاف الله وقد حُجبت عنه لاتزال تشتاق للاتصال به والرجوع إليه ، لأنها مجلى من مجاليه ، وليس السبيل لعودتها إلا بالشوق الذى تعانى به الجذب والوجد وبالحب الذى يفنيها عن ذاتها ويتجاوز بها التفكير ، لأنه في التفكير تكون الإثنيانية ، وإما في الحب فليس إلا الواحدية فتتمحى الأنا والأنت .

وليس عند شعراء الصوفية إلا ديانة واحدة هى ديانة المحبة ، فالقلب سر كل تدين ، والقلب عندما يحب الله فإنه يقبل كل صور الجمال فيكون مرعى لغزلان وديراً لرهبان ، ويكون الكعبة والمعبد والكنيسة ، ويكون التوراة والإنجيل والقرآن . وبمقدار ما يحب الشاعر الصوفي الله بمقدار ما يعلم عنه ومنه وبه ، فينجلى بصره ويعرف الخير والشر . وإذا تتحد إرادة المحب والمحبوب لا يكون هناك جبر ولا اختيار ، والمجبور على الحب لا حب له ، والحب الذى هو غاية المقرب إلى الله لا جبر فيه . وأوزان الشعر الصوفي تعكس كل ذلك وتساعد على التعبير عن الوجد وانتقاله عبر الأحوال ، ويزداد أثرها في السامع بإنشادها . ولأنه شعر ينبع من القلب فالقلب مقصوده ، وإنشاده في حلقات الذكر عندما تفيض المشاعر ، وتتمايل الأجساد ، وتحن الأعضاء إلى بعضها ، وتهفو النفوس إلى بارئها فتشرئب إلى عليين ، كأنها في سموها النخلات البارغات تطاول السماء وتتشعب إلى مواطنها .

وشعر رابعة فيه كل ذلك ولو لم تقل سوى هذه الأبيات .

أحببك حبين : حـب الهوى وحباً لأنك أهل لـذاكـا
فأما الذى هو حب الهوى فذكرُ شُغِلْتُ به عن سواكـا
وأما الذى أنت أهل لـه فكشُفُك الحُجُب حتى أراكـا
فما الحمـد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمـد فى ذا وذاكـا
ولُخِـد اسمها بين العاشقين والشعراء الموهوبين . ولقد نسبوا إليها هذه الأبيات الرائعة .

وقد جعلتك فى الفـؤاد محدثى وأبحت جسمى من أراد جـلـوسى
فالجسم منى للجـليس مـؤانس وحبـيب قلبى فى الفـؤاد أنيسى

ومن الغريب أنهم نسبوا إليها فى هذه الأبيات الحلول المسيحى واتهموها بالكفر لمخاطبتها الله بالندبة .

وزادى قليلٌ مـا رآه مُبلَغى أـلـزاد أبكى أم لـطول مسافـتى !
أـتـحرقنى بالنار يا غايـة المنى فأين رجائى فيك أين مخافـتى !

وكان لرابعة بعض النثر فى حكايات وأمثال وأدعيات ، ونثرها يتحدث عن حبها الإلهى وفيه ما فيه مما ينبىء أن المحدث امرأة . ولا يطيب النثر للسامع كما يطيب الشعر ، ونثرها يستدعى التفكير أكثر مما يستدعى الوجد ، ويميل إلى المعرفة التى أساسها الإقرار بالوحدانية . والمعرفة طريقة للوصول وغايتها أن يتعلم العقل فيستنير القلب . والعارف بالله يفنى عن نفسه ويعرف أنه لا يقوم بذاته وإنما قيامه بالله ، فهو يتحرك وينطق عنه ، وينظر بنوره ، ومعرفة الصوفية بالله هى توحيدهم ، والتوحيد سرّ من الأسرار لا يكشف الله عن معناه إلا لمن يحبه ويطلب معرفته ، والفرق بين المحب لله والعارف به أن المحب يفنى فى محبته تعالى عن نفسه ، والعارف يفنى عن نفسه فى توحيده ، وهكذا كانت رابعة رحمها الله . فهى محبة لله فى شعرها ، وهى عارفة به تعالى فى نثرها .

ومن الظلم البين للقارئ ولنفسه أن يقول الدكتور بدوى مقالته تلك عن رابعة

وشعرها ونثرها ، ومن العجب العجائب قوله في نثرها ، وهو فيه أشد اعتسافاً وأكثر إجحافاً ، وعهدى به أنه العالم الجليل والفيلسوف الكبير .

وأما تريزا الأقبيلية فلم تكن تقرض الشعر ولا تعزف آلة موسيقية . وهذا العرق الفنى فى رابعة ليس عند تريزا بالمره . ومن الظلم أن نقارن بينهما فى هذا المجال . ولم يذكر المؤرخون لها إلا قصيدة يتيمة من بضعة أبيات تنصح فيها المريدات من جنسها أن لا ينزعجن ولا يثيرهن شىء ، فالكل إلى زوال ، والله وحده هو الباقي ، والصبر ينيل المبتغى ، وكل من يجعل الله معه لا يحتاج لشيء بعده ، فالله وحده فيه الكفاية ، وحتى هذه القصيدة لم تنشرها ولم يعرفها عنها المتصلون بها إلا بعد وفاتها .

وقد سبق أن نبهنا إلى الاختلاف الجذرى بين التصوف الإسلامى والتصوف المسيحى نتيجة الاختلاف بين الديانتين بحسب ماهية الإله فيهما ، وتريزا تخاطب الله فى سيرتها وتقول صراحةً يا عيسى ، وتحكى عن طريققتها فى التأمل بأنها كانت تستفرغ طاقتها فى التفكير فى يسوع المسيح ، ولقد بلغ من تعلقها بيسوع المسيح أنهم أطلقوا عليها تريزا اليسوعية ، وكانت كما تقول تحضره فيها ، وتتأمل مشاهد صلبه ، ومراحل تأله ، وتمثله فى باطنها ، ولم تكن تستحضر لاهوت الرب وإنما تمثلها كان لنا سوته .

وأهمية الأدب التيريزى أن التجارب التى تقدمها تريزا فى كتبها لها طابع إنسانى ، ولم تلجأ إلى التخيل كثيراً ، ولم تعتمد على التصوير ، وقصدت إلى أفكارها مباشرة بشفاقية غير مبتذلة . وكتابها السيرة مثلاً — كما قيل فيه — شهادة شخصية نابعة من أعماق ذاتها وليس من التعاليم التى تلقىتها ، ولا من دائرة الثقافة المسيحية التى نشأت فيها ، وهو تعبير عن حياة قد التزمت تماماً بكل كلمة ذكرتها وكل حادثة روت عنها .

وكتابات تريزا عبارة عن محاورات مع نفسها ومع الله على صعيد الإيمان . وتجارب تريزا دروس للمبتدئات من المسيحيات . ومعظم الوصف الذى تقدمه إما مناجاة لله أو وصف لحالات التجلى والمشاهدة ، كأن تقول : فجأة كان يعترينى شعور بحضور الله فلا أشك أنه داخل ، أو أنه يستغرقنى فى حضوره ، ولم يكن الأمر مجرد رؤيا بل أكون كأن

نفسى معلقة ، وكأنها خارج ذاتى ، وتضيع ذاكرتى ، وكأنما تحركنى المحبة التى فى قلبى ، وكأنما عقلى قد توقف عن العمل وقد روعه ما يدرك ، لأن الله يريد أن يفهم أنه لا يفهم شيئاً مما يعرضه عليه .

وتعتمد تريزا فى تقريب المجرى باستخدام الأمثلة ، كطريقة المسيح فى الأناجيل ، وتشبه مثلاً حياة التأمل « باستصلاح بستان فى أرض جدياء يكثر فيها العشب الرديء ، وعندما تعزم نفس على ممارسة التأمل وتشرع فى انتهاج هذا السبيل ، فإنها تكون كمن يقتلع العشب الرديء ليغرس مكانه النباتات الصالح ، وعلينا أن نجهد بمعونة الله على أن نكون بستانيين مهرة ، فننمى النبات ونعنى بريها لئلا يصيبها الجفاف ، ولكى يخرج منها الزهر فواحاً يبهج ربنا ، فيقصد هذا البستان ليتنعم به ويستريح فيه » .

وطريقة تريزا الاستبطانية لم تكن تعرفها رابعة ، فرابعة كانت تصلى صلاة حقيقية إسلامية وتكثر من الصلاة التعبدية هذه ، فكانت كما قيل تصلى ألف ركعة فى اليوم . وتريزا صلاتها عقلية أى تأملية ، وكانت تخلو إلى نفسها فى مصلاتها وتوحى إلى نفسها وتتقمص شخصية المسيح ، والتقمص وسيلة من وسائل استبطان ذات الآخر ، وإيزنشتاين - أبو مخرجى المسرح ومعلم التمثيل فى كتابه عن فن الممثل - ينصح بالتقمص ، وهو أن يتعين الممثل بالدور الذى يلعبه ويرى نفسه فيه اليوم كله ، بل مدة تمثيله للدور على المسرح ولو استغرق ذلك منه الشهور . وكانت تريزا تفعل ذلك حتى قيل فيها إن المسيح استغرقها تماماً وأنه حلّ فيها على الحقيقة ، وحالها فى ذلك كحال الحلاج عندما ردّ على أحد سائليه بأنه ما فى جيبه إلا الله . وهكذا كانت تريزا ، فلقد عدت جسمها ونحلت واستحالت روحاً هى المسيح ، تفكر به ، وتشعر وتعيش هذا الدور معظم اليوم . وكانت تأتينا الرؤى تلقائية وتشاهد المسيح ويتحدث إليها . وتقول تريزا عن موضوع تأملاتها . لتأمل سرّاً من أسرار الآلام - يسوع مربوطاً على العمود مثلاً فالعقل يمضى باحثاً عن دوافع هذا التعذيب ، وعن الآلام والحزن الذى عاناه جل جلاله فى تلك الوحدة وأمور أخرى كثيرة يمكن أن يستخرجها العقل من هذا المشهد إذا كان يعمل وكان مثقفاً . هذه هى طريقة التأمل التى يجب أن يبدأ بها الجميع ويتابعوها وينتبهوا إليها ، وهى طريق مأمونة وممتازة إلى أن يقودهم الرب إلى

أحوال أخرى أفضل . وقد يستفيد البعض من تصورهم أنفسهم في جهنم ويحزنهم ذلك ، أو يتصورون الموت . وقد يكره البعض أن يخوضوا في ذلك ويلجأون للتأمل في قوة الله وعظمته في الخلائق ، وفي الحب الذي يحبنا به والذي عليه كل مخلوقاته .

ومن رأى تريزا أنه لابد للمبتدئ من معلم خبير ، فإن لم يكن المعلم خبيراً فإنه يرتكب أخطاء كثيرة . وتريزا تنتقد النقص الذي عليه كتاباتها لعجزها عن الكتابة بطريقة واضحة ، ومن ثم تلجأ إلى الكثير من الشرح . وفي مناجياتها تحتاج إلى المزيد من الكلمات لتعبر عن نفسها ، تقول . يا ربى ! ياخىرى العميم ! ما أن أنطق باسمك أناديك حتى تفيض دموعى وأشعر بمسرة كبرى تعم نفسى . أنت يا رب تقول إن نعيمك مع بنى البشر وتريد أن تقيم معنا ، وإذا لم نأت ذنباً تمتعنا بعشرتك وتسرت أنت ربى بعشرتنا ، وكلما سمعت هذه الآية شعرت بالتعزية الكبرى حتى عندما كنت ضالة .

وتعرب تريزا عن تنعمها بحالة تأمل السكينة وهى أرفع حالات التأمل ، وترغب كالقديس بطرس أن يكون مقامها الدائم في تأمل السكينة ، وتصف أحوالها في هذا المقام بأنه شرارة صغيرة من حب الله الحقيقى يبدأ الرب بإشعالها في النفوس ، ويريد منها أن تفهم تدريجياً طبيعة هذا الحب الذى فيه الألم والسرور معاً ، وتقول إن التأمل عمل من أعمال الإرادة توظف فيه العقل ، والإرادة توقظ الحب وتزكيه لتحقيق فعل المحبة . وفي التأمل تكون راحة النفس أثناء السكون ، ويتنحى العقل بعلومه ويبادر إلى شكر الله بعبارات مختارة ، إلا أن الإرادة في هدوئها تقوم بواجب الشكر أكثر مما يستطيع العقل . نعم إن الإيمان عمل من أعمال الإرادة وليس العقل . وفي مرحلة من التأمل تَسُبُّ كل القوى ولكنها لا تتعطل تماماً ، وتكون هناك المسرة والمتعة والعذوبة بما يفوق الوصف ، وهى حالة ليست في نظرها سوى موت عن كل أشياء العالم واستمتاع بالله . وتقول إنها لا تجد عبارات تفصح بها عن حالتها ، ولا طريقة تبينها بها ، فالنفس ذاتها لا تدرى عنها ، ولا تدرى أتتكلم أو تصمت ، وهل تضحك أو تبكى ، وإنه لهذيان مجيد وجنون سماوى تتعلم فيه الحكمة الحقيقية وإنها لطريقة تستمتع فيها النفس أيما استمتاع ، وتكون قوى النفس مؤهلة فيها كلياً للانشغال بالله ، ولا تجرؤ على إتيان حركة ، وتود النفس أن تجاهر

بالتسبيح لله ولكنها لاتتمالك ذاتها ، ويسيطر عليها اضطراب عذب ، فكان الله في عونى !
كيف تكون نفسى وهذه حالها ؟ لكم تود نفسى لو تكون كلها السنة تلهج بذكر الله !

وتقول تريزا عن هذه الحالة إنها تلهم قول الشعر ، وتعرف من كان يقوله فيها رغم أنه
لم يكن شاعراً ، ولكن النفس تنظم الشعر والعقل ليس له دور فيه ، وتحكى أبيات الشعر
عن الألم السار ، وتشكو إلى الله هذا الألم العذب ، وكم يود الشاعر لو يتمزق نفساً وجسداً
ليبين كم هو سعيد ويستمتع بهذا الألم العذب !

وتريزا تبدو في هذه السطور وكأنها التجسيد لمقولات الدكتور بدوى في الديالكتيك
الوجودى الذى يجمع طرفى التوتر في وحدة . وتشخص تريزا حالتها هذه بأنها جنون أو
هوس دينى ، وتحث أتباعها بأن يصابوا بمثل ما هى مصابة به ، وتسال الله أن يصيب
الناس جميعاً بهذا الجنون ، وتقول : لنكن كلنا مجانين حباً في الله ولنستسلم كلياً بين
ذراعى الله ، فإن أراد ن يذهب بنفوسنا إلى السماء فليذهب ، وإذا أراد أن يمضى بها إلى
الجحيم فلا ألم ينزل بها إن مضت مع خيرها الأعظم !

وهذا المقام الذى تحكى عنه تريزا هو التسليم لله والرضا بحكمه وبما تأتى به
المقادير ، وحتى لو أراد أن ينزع منا الحياة أو نعيش ألف سنة رضىنا بالأمر ، والمحِب لله
ينبغى أن تكون إرادته هى إرادة الله !

وفي أعلى المقامات مقام الاتحاد بالله ، وتعرفه تريزا فتقول هو أن يصير الاثنان
واحداً . وتشرح هذه الحال بعبارات قوية فتقول : وفيها النفس تبحث عن الله وتشعر في
غمرة من المتعة عذبة ، وكأن بها جميعاً خوراً ويصيبها بعض الإغماء ، وتخونها قواها
البدنية فتعجز عن تحريك اليدين لو أرادت إلا بجهد جهيد ، وتغمض العينان من غير أن
تريد إغماضهما ، وإذا بقيتا مفتوحتين فلا ترى شيئاً ، وإن قرأت فلا تحسن التلطف
بحرف ، وحتى لا تعرفه ، فترى الحرف غير أن العقل لا يسعفها بالمعرفة ، فلا تحسن
القراءة ولو أرادت ذلك ، وتسمع ولكنها لا تعى ما تسمع ، وتتلاشى كل قوى البدن لتقوى
النفس وتستطيع أنتستمتع أفضل استمتع بمجدها الذى هى فيه باتحادها بالله ، ويتم

ذلك بسرعة بحيث أن هذه العلامات ، وتَعطّل الحواس ، لا يلحظان كفاية ، لسرعة حدوث الظاهرة ، إلا أن المحب لله يدرك من فيض ما فيه من إنعام أن سطوع الشمس في النفس كان شديداً لأنها أذابت النفس تذويباً ! » .

وما تحكيه تريزا أحسب أنه لأول مرة يحكى أحد الصوفية عن هذه التجربة ويقرّبها هكذا للأفهام . وتتوغل تريزا أكثر فتقول إنها تعجز عن الوصف لأنها لا تكون نفسها وتترك ذلك لله نفسه . وتقول إن الرب هو الذى كلمها وشرح لها بكلماته فقال : « إنها تذوب بالكلية — أى النفس — لتندمج بالأكثر ، فلا تعود هى التى تحيا ، بل أنا ، وبما أنها لا تستطيع أن تستوعب ما تفهم فإنها وهى تفهم ... لا تفهم » . وهى أبلغ عبارة فيما أعرف تشرح الاتحاد .

وتزيد تريزا الشرح فتقول إن الله أكثر من ذلك حاضر حضوراً حقيقياً فى الأشياء . وتميز تريزا بين الانجذاب أو الانخراط والاتحاد ، « ففى الانخراط تبدو النفس كأنها لا تبعث الحياة فى الجسد فتقل حرارته ويتخلله البرد بعذوبة ولذة بالغتتين ، وأما فى الاتحاد فنكون فى طبيعتنا ونقاوم بعض المقاومة ، وأما فى الانخراط فكان نساً يتخطفك فيحملك على جناحيه وترى نفسك محمولاً ولا تعرف إلى أين ، ولئن شعرنا بلذة إلا أن ضعف طبيعتنا تجعلنا خائفين فى البدء ، فيلزم أن تكون النفس مقدامة وجريئة وعازمة لتخاطر بكل شئ ، وليحدث ما يحدث ، ولتستسلم بين يدي الله ، ولتترهب بطيبة خاطر إلى حيث تُحمل ، لأنك تُحمل رغماً عنك . وكان ذلك عندما يحدث لى أقاومه بعض المقاومة مخافة أن أكون مخدوعة وتحت تأثير الشيطان ، فكنت من فرط مقاومتي تخور قواى وكأنى أصارع جباراً ، وكانت المقاومة مستحيلة أحياناً ، لأن العصف كان يشمل نفسى ثم رأسى غالباً فى أثر ذلك فلا أتمكن من أن أسيطر على الموقف ، وأحياناً كان يحمل جسمى كله فيدفعه عن الأرض » .

وتريزا كما نرى تخوض تجارب صوفية حقيقية وتغوص فى التجربة وتصفها كعالم نفس ، وإن تكن لغتها غير علمية . وحال الانخراط هذه هى نفسها التى يشرحها الصوفية المسلمون ويطلقون عليها الانجذاب ، أو الاستلاب ، أو الذهاب ، ويفسرها السراج الطوسى

بأنها أن يُخالط قلب العبد من عظمة الله فيذهب عقله أو قلبه عن حس المحسوسات بمشاهدة ما شاهد ، ثم يذهب عن ذهابه . وما يقوله السراج ويحتاج إلى المزيد من الشرح تقوله تريزا ببساطة ووضوح ، وهذا هو الفرق بينها وبين رابعة ، رابعة لا تتعمد أن تشرح أحوالاً ، ولا تكتب تجاربها لتغوص فيها وتستبطن ذاتها ، ومن هذا الوجه فإن تريزا تفضل رابعة ، ومن ناحية أخرى فإن رابعة كانت وجدانية ، وكانت أحوالها تلهمها الرفيع من الشعر ، وهى الحالة التى وصفتها تريزا خير وصف حين قالت إن المرء فيها يكون بحيث يقول الشعر طواعية حتى وإن لم يكن شاعراً .

ويصدق على تريزا ورابعة قول تريزا « إن أقوالى فى حياتى الخاصة من عندى ، وأقوالى فيما لا يخصنى من حياتى تتناول حياة الله فى » ، وحياة الصوفية أرفع من كل كلام أو شعر يقال .

وتذكر تريزا أنها لما حرمت القراءة باللغات لجهلها خاطبها الله . لا تحزننى فإننى سأعطيك كتاباً حياً . وحياة رابعة وتريزا هى هذا الكتاب الحى ، فلقد غمرهما الله بحبه فاستغننا عن كل كتاب ، وكان الله عز وجل هو الكتاب الحقيقى الذى وجدنا فيه الحقائق كلها .

وتختتم تريزا بهذا القول الرائع . تبارك هذا الكتاب الذى يطبع فىنا ما يجب أن نقرأ ونفعل فلا يصيبنا النسيان .

ومن فيض ذلك الكتاب كان شعر رابعة وكتابات تريزا ، ولم تكن أى منهما بغياً أغلت فى الإثم وتابت وأصرت على الاستغفار ، فبمثل هذه الكلمات التى نطقنا بها كتب التصوف تاريخه وقام كعلم من علوم الشريعة .

ولست أرى إلا أن الدكتور بدوى قد تجنى على رابعة وتريزا وأرادهما نمطين من أنماط فلسفته ، فراح يفسر على هواه أقوالهما وتجاربهما ، حتى أنى لأظن أنه لم يقرأ تريزا ، ولكنه قرأ رأى النقد فيها غالباً وتفسيراتهم ، فنصب من هذه الأقوال نموذجاً لرابعة ، وذلك ظلم وأى ظلم من الدكتور العالم والفيلسوف الكبير

والآن ما هو رأى العلم فى توبة البعض ، وهل من الممكن أن تتوب بائعة الهوى أو الزانية
الواغلة فى الإثم والمعصية ، وأن تكون أيضاً صوفية متهبة صاحبة مدرسة ومبادئ ،
وصانعة قيم ، ومعلمة ، ومربية لأرفع أخلاق يمكن أن يتخلق بها إنسان ، وهى الأخلاق
الصوفية ؟

أقول هل من الممكن ذلك ؟

سنرى فى الفصل القادم ...



الفصل السابع

رأى العلم فى إمكان توبة الآثمة الوالغة فى الإثم وأن تكون من أولياء الله

★★★

الإثم الذى ينسبه الدكتور بدوى لرابعة العدوية يرجعه إلى عدة عوامل ويشخصه بشكل لا لبس فيه فهو يقول « إنها اندفعت فى طريق الشهوات إلى مدى بعيد ، وغرقت فى بحر الشهوات ، واقتاتت بقوت الحواس حتى الثمالة ، وتطرفت فى فجورها وحبها للعالم ، واندفعت فى طريق الإثم إلى حد بالغ الإفراط » . ويرجع الدكتور هذه الحالة عندها إلى .

١ - الحرية التى حصلت لها بعد عتقها .

٢ - الحياة الفنية التى حيتها باحترافها العزف على الناي والإطراب ، فما كان من الممكن أن تكون بمنجاة عن ألوان الإغراء فيها بأنواع الأحابيل التى تنصب لمثيلاتها فى هذا المضمار .

٣ - اليأس من عاطفة اندفعت فيها نحو شخص ثم خاب رجاؤها فيه .

٤ - تجربة حب مخفق استشرف إلى سراب زواج أو ما إليه .

٥ - تجربة يائسة من دنيا الناس .

غير أنه يؤكد على تجربة الحب المخفق أكثر من أى من الأسباب الأخرى حيث أنها تحدث فى قصيدتها التى مطلعها « ياسرورى ومنيتى » عن هذا الحبيب الذى يبدو أنه « كان موسيقياً يتكسب من إحياء الحفلات فى مختلف البلدان ، فكانت مضطرة أن تلاحقه فى الأماكن التى كان ينتقل بينها فاضطرت إلى التشتت فى فسيح البلاد » .

أنت لولاك يا حياتى وأنسى ما تشئت في فسيح البلاد

وكذلك فإنه يرجع الصور الشعرية في مناجاتها لربها « إلهى ! أنارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك » إلى أيام غرامها الآثم مع هذا الحبيب حيث كانت لها معه « لياليها الحُمر بين مخارف النخيل على ضفاف الأبلّة وقد غفلت عيون الرقباء من الناس ومن الشرطة خاصة » كما يتبين في عبارتها ذات الدلالة الكبيرة « وغلقت الملوك أبوابها ، أى اختفى سلطان الحاكم وأصبح في وسعها أن تختل بحبيبه تساقيه ما تود من اللذات المحرمة . وتأمل خصوصاً الشوق المتحسّر في قولها وخلا كل حبيب بحبيبه - ففيه قشعريرة قلب طالما نِعِم بهذه اللحظات العالية » .

وهذا التشخيص لانحراف رابعة المزعوم يعده علماء النفس والطب النفسى من الحالات المرضية التى لاشك فيها ، ويرجعه كينزى في كتابه « السلوك الجنسى عند الأنثى » إلى أسباب عدة تؤهل المرأة لأن تندفع في طريق الإثم وتوغل فيه وتصر عليه ، ومن ذلك تدنى البيئة الاجتماعية التى تعيش فيها المرأة والتى تربّت عليها وينبه عالم آخر مثل ريتشارد سيمون في كتابه الجامع « فهم السلوك الإنسانى في الصحة والمرض » إلى تأثير الجيتو على انحراف البنات بخاصة .

والملاحظ أن الدكتور بدوى قدم لكتاب رابعة بما يفيد أنها كانت من أبوين فقيرين فقراً مدقعاً ، وأنه من المحتمل أنهما كانا من أصول أجنبية ، والمولى في البصرة كانوا يسكنون أحياء خاصة مهمة بشدة وغير صالحة ، وذلك حقيقى ومستمر حتى الآن ويسمونهم هناك « العشيش » ، لأنها تتكون من مجموعة من العشش والأكوخ ، وتفرخ فيها الجريمة والانحراف ويعانى منها الأبناء سوء التوافق في حياتهم المستقبلية ، ويتعلمون منها الحقد الاجتماعى ، وتمتلئ قلوبهم بالحزل ، وتفرغ البنات طاقاتهم العدوانية في الجنس توقعن فيه الرجال خصوصاً من الطبقة العالية .

ويلاحظ علماء النفس ارتباط انحراف البنات بتدنى المستوى التعليمى والثقافى وعدم وجود الوازع الدينى نتيجة سوء التربية والخلافات العائلية والطلاق وسوء الأحوال المعيشية والسكنية والخدمات الاجتماعية والصحية .

ومن رأى فيليب سولومون وثيرنون باتشى فى موسوعتهما فى « الطب النفسى » أنه لابد كذلك أن تكون هناك مؤثرات بيولوجية تسبب الانحراف ، وسوء وظيفة المخ والجهاز العصبى المركزى والإفرازات الهرمونية .

وهناك إجماع بين علماء الطب النفسى على أن الإناث عموماً أقل إتياناً للانحراف وأكثر ميلاً إلى العفة ، وأن الانحرافات التى يأتياها الذكور أكثر تنوعاً ، فاللواط ، والتشبه ، والفيتيشية ، والتطّلع ، وغواية الأولاد ، والدقر ، والتخنث ، كل ذلك وغيره يكاد أن يقتصر على الذكور دون الإناث ، وأن الغواية والحض على الانحراف السبب فيهما دائماً من ناحية الذكور .

وتلعب الأسباب النفسية دوراً حاسماً فى رأى علماء التحليل النفسى ، ومن ذلك أن البنات فى مثل حالة رابعة كما يشخصها الدكتور بدوى ، لابد أن يعانين من صراعات حادة تظهر آثارها اضطراباً فى السلوك والتفكير ، وعدم نضج الشخصية وقصورها الاجتماعى . وغالباً ما يكون سبب انحراف البنت - كالانحراف المزعوم لرابعة - هو اضطرابات عصبية تصاب بها وتستفحل معها مع استمرارها فى حياة الانحراف لمدة طويلة ، وتميل إلى أن تصاب من جرّائها بالفُصام . والكثير من البنات اللاتى يمارسن الفجور مصابات بالشخصية الفُصامية ، وأغلبهن يعانين من تدنى مستوى الذكاء وضحالة العواطف واضطرابها وعدم نضجها .

فهل كانت رابعة كذلك ؟ وهل هناك فى حياتها مايدل على مثل ما أشرنا إليه ؟

ولنفترض أن حالة رابعة هى إحدى الحالات التى تعرض على طبيب نفسانى أو عالم نفس أو محلل نفسانى ، فالإجراء معها هو أن يبحث فى تاريخ الحالة ويستمع إلى أقوال المحيطين بها وما يمكن أن يشكو منه أفراد عائلتها ، ويستعرض أقوالها واعترافاتها وشروحها وتعليقاتها على مختلف المواقف .

ولقد جمعتُ فى الفصل الثانى كل ما استطعت أن أجمعه عن رابعة من كلام المؤرخين العارفين ، والإجماع على أن رابعة كانت ولية من أولياء الله ، وكانت عابدة خاشعة ، وأظهرت

التدين في طفولتها الباكرة كما في حكاية العطار عنها مع أبيها ، وكانت شديدة التدين في المراهقة ويظهر ذلك من حكاياتها التي يرويها العطار أيضاً مع عابر السبيل الذى نظرها في الطريق ، وصلاتها ، والنور الذى كان يحيط بها والذى بسببه أطلق مخدومها سراحها ، ثم في شبابها طَلَبَهَا للزواج عبد الواحد بن زيد الصوفي الورع الزاهد المتبتل ، وخطبها محمد بن سليمان الهاشمى أمير البصرة وكان معروفاً بالتقوى والصلاح ، ولم يتقدم لخطبتها إلا بعد أن استشار أهل المشورة من الصالحين فأشاروا عليه برابعة ، فهل كان من المعقول أن يكون خاطبوها على هذا القدر والتقوى والسلطة والجاه وأن تكون رابعة من النساء ذوات الماضى الشائن ؟ !

ثم إن أقوال رابعة ومحاوراتها لرجال الفكر والدين والدنيا تدل على ذكاء عال جداً ، ووعى وحس دينيين ، وشخصية متميزة من كافة النواحي . ولم تعرف عن رابعة أية شائنة ، لا في سلوكها ، ولا في أقوالها ، ولا في محيطها من النساء والرجال ، ولم نثر على نص واحد يدينها إلا حكايتين إحداهما عند اليافعى والأخرى عند لسان الدين الخطيب ، والحكايتان ليس فيهما من قريب أو بعيد أن رابعة متهمة في شرفها أو الغة في الإثم ، أو أنها كانت تقنات قوت الحواس ، وإذا كانت تعزف على الناي وتغنى ، ومع الشهادات السابقة لها من كل من أرخوا لسيرتها من الأئمة والمشاهير فإنها لابد أن تكون من المنشدات المتدينات .

ومنذ وعت البشرية تاريخها فإن الإنسان كان عازفاً لآلة موسيقية ، وقد يستخدمها في مجال التعبّد ، كما قد يستخدمها في مجال اللهو ، ومجال رابعة هو مجال التعبّد بالإجماع ، وعزفها على الناي وإنشادها يُحسب لها ولا يُحسب عليها . ومن بداية التاريخ البشرى كان العزف مصحوباً بالكلام ، ولم تعرف البشرية الموسيقى الخالصة إلا في القرن الخامس عشر الميلادى مع اكتشاف الهارموني ، فبدأت كتابة الموسيقى لتعزف على الآلات ، و تطور ذلك الفن في أوروبا خاصة منذ ذلك الحين . وقبل ذلك كنا نحن العرب والأوروبيين سواء ، بصرف النظر عن روحنا الشرقية أو روحهم الغربية على عكس ما يقول الدكتور بدوى . وكان عصر الباروك هو العصر الذهبى للموسيقى الخالصة ، والموسيقى لأية آلة وفي أى زمان ومكان تُعزف للمتعة ، سواء كانت متعة حسية أو روحية . والحب هو موضوع

الموسيقى المصاحبة بالغناء أو الخالصة . وحتى أعمال باخ ، والدوافع لها ، وما يحكمها من روابط وما تقوم عليه من تراكيب ، قوامها الحب . وباخ ، نفسه هو الذى يقول عن آلات النفخ أنها تسره أكثر من غيرها ، وحلاوتها تذكره بتجربته مع الحب . وكل الموسيقىات العظيمة كانت مشبوبة بالعاطفة ، ورابعة إذ تقرض الشعر وتعزف الناي - وهو آلة نفخ - وتنشد ، إنما يضعها ذلك فى مرتبة عالية من التحضر ويميزها بروح فنية متسامية .

ومن تصانيف علم النفس فى الشخصية ما يقال له النمط الدينى أو الميتافيزيقى ، ومنه نوعان : نوع عقلانى ويمكن أن ندرج فيه مثلاً القديس أوغسطين وتريزا الأثلية وبولس الرسول ، ونوع وجدانى ومنه رابعة العدوية والبسطامى والحلاج . والتعبير بلغة الحب كان عن الأشواق الدينية منذ بداية البشرية ، فالأوائل كانوا يتعبدون للفرج وللضبيب ، ورسوماتهم الدينية والدراما الدينية فيهما من ذلك الكثير ، وقد ترقّت العواطف البشرية بتأثير الدين وبما فرضه من أوجه التحريم أو التابو ، غير أن اللاشعور كان يجد طريقه دائماً حتى فى أسمى المواقف تديناً ، فكانت الأشواق إلى السماء ، وإلى الاتصال بالله ، والتعبير عن المحبة له والأنس به ، والغيبة فى تجلياته ، والسُكر فى شهوده .

والتجربة الدينية الممتعة التى تدخلها الشخصية الدينية باستمرار وتطلبها فى اتصالها بالناس وبالكون ، بخلاف التجربة التى تدخلها الشخصية من النمط الحسى الشهوانى والذى يطلب المتعة الجنسية الشبهة فى كل ما يتصل به من أمور الحياة . وينطبق النمط الحسى الشهوانى على البغايا والمخالطات أو المشاعيات وضحايا الغواية . وهناك سيكولوجية خاصة بالغواية من ناحية الرجل الغاوى والمرأة المغواة أو الضحية ، وكلاهما سعى للآخر بالجاذبية ، وما كان يمكن أن تكون المرأة ضحية إلا لأن لها دورها الإيجابى فى الغواية أيضاً بحكم ملامحها وطريقتها فى الكلام وتكوينها الجسمى وملابسها الفاضحة . ولم تكن رابعة بها أى من هذه الأمور لتكون ضحية غواية من حبيب أصابها من حبها له أن فقدت التفكير السليم ، وباعت دينها وشرفها وماضيها المعروف بالصلاح عن أبيها وأمها ، ولقد كانت شهرة أبيها أنه العابد ، وكانت له رؤى وكرامات كما كانت لرابعة كرامات منذ طفولتها .

وفي علم النفس الدينى أن التجربة الدينية لا بد لها من استعدادات شخصية ذهنية ونفسية ، وتوجهات واهتمامات واتجاهات وميول مسبقة . ولا بد أن تكون للشخصية الدينية نوازع وأشواق تهفو بها إلى التفكير فى الكون وخالقه وتستشعر عظمة الله فيه ، ويسمى فرويد ذلك بالحس الكونى **cosmic sense** ، ويسميه آخرون بالحس الميتافيزيقى ، وذلك الحس الغالب هو الذى يجعل الشخصية تضى التفسيرات الصوفية على التجارب الحياتية وتخلص منها بمعان ومشاعر تتسامى بالشخصية فترهف بها الذات ويكون لها مزاج روحى يرفعها باستمرار ويوجد لها أمام الله .

والطفلة رابعة التى تحذر أباهها من الحرام ، ثم المراهقة رابعة التى تشكو حالها لربها كعادة المراهقات فى الشكوى ، تبلغ شأواً بعيداً فى النضج الفكرى والدينى عندما تخاطب الله بما يعنى أنها لا يهملها كل ما يعرض لها من مشاكل وسوء معاملة طالما أنها تستشعر أنه راض عنها ، أى راض عن ردود فعلها على كل ذلك ، فهى لا تتصرف أبداً بما يغضبها وكانت تضع رضاه فى المحل الأول من أى سلوك تأتية .

ويقول علماء النفس : إن الشخصية المتدينة تتميز بأننا أعلى متطور ، وأن تطوره أسرع من كل أجزاء الجهاز النفسى ، والأنا الأعلى الأخلاقى أو الدينى يكون أصلاً فى الشخصية المتدينة أكبر من سواه عند الأشخاص غير المتدينين ، وهو أقدر على النمو والامتثال للتربية الدينية والأخلاقية عند الشخصية المتدينة منه عند غيرها من الشخصيات .

والبغى أو المخالطة أو الفاجرة تنوب بالعلاج النفسى أو بالمعاناة الصادمة ، ولكن توبتها لا تكون سوى امتناع عن الفعل الشائن ، إلا أنها لا تكون مؤهلة لكى تكون صوفية لها أقوال ومذهب ومبادئ ومدرسة . والصراعات التى قد تدخلها الفاجرة لن تأتيتها أصلاً إلا إذا كانت تحت تأثيرات من شخصية تحبها فتتحرف عن طريق الفجور إلى طريق الصلاح ، ومع ذلك تظل التائبة مهددة بالعودة إلى طريق الفجور لو عانت ضغطاً تعود بها القهقرى وتنكص بها إلى سيرتها القديمة .

ومن أشق الأمور في الطب النفسى أن تتوب الفاجرة ، وتحتاج للتوبة أن تكون مستبصرة بحالتها وراغبة في التوبة ، وأن يوجد إلى جوارها المرشد على الهمة ، واسع الثقافة ، شديد الإيمان برسالته كما تقول تريزا ، الذى يساعدها على التوبة ، ويقوى من أناها ، ويصلح ما به من شروخ ، ويسد ما أصابه من فجوات ، ويدعمه ، ويحتاج ذلك إلى سنوات . ولقد احتاج القديس أوغسطين إلى عشر سنوات من القراءة المتواصلة في الأفلاطونية المحدثه والاستماع إلى القديس أمبروز والمحاورات مع أساطين المسيحية ، لكي يقتنع بالمسيحية ويعتنقها ، ويتنكب الطريق القديم ، ويترك عشيقته ، ويترهب ، ويعتزل الحياة الجنسية . وقبل كل ذلك كان للقديس أوغسطين شخصية قوية ، وذهن وقاد ، وفلسفة يصدر عنها في سلوكه ، ونفس مشرّبة إلى المعالي وتهفو باستمرار للتعالي والاتصال بالمتعالي الذى هو الله . وهو يحكى عن تجربته الدينية حديثه الشيق في اعترافاته ، فنفهم أنه في كل ما كان يفعل قبل التدين والرهبة كان ينشد المطلق والمتعالى ويشتاق للدخول في تجربة مع اللامتناهى ، فالاستعداد هو الأساس دائماً في التصوف ، ولم يتصوف الفضيل بن عياض قاطع الطريق لمجرد أنه استمع إلى الآية : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ ، فلو لم يكن يعرف ربه قبل سماع الآية ، بل ويعرف الآية معرفته لأولاده بل أشد ، لما قال قولته « يا رب قد آن » .

ويحدثنا علم النفس عن الانحراف بالصدفة والانحراف بالفطرة ، وانحراف الفضيل قبل التصوف كان بتأثير البيئة ، ولكن فطرته الإيمانية هي التى غلبت تأثيرات البيئة ، وما كان ينقصه سوى أن يسمع هذا الهاتف يدعوه فيترك كل شىء ويمضى في الإيمان . وفطرته هذه هي التى بها يقول « إنى لأعصى الله فأعرف ذلك في خلق حمارى وخادى » . ومع ذلك فالفضيل بن عياض لم يكن في التصوف مثل رابعة ، ولا ارتقى إلى ما ارتقت إليه ، ولا عرف ما عرفته وذاق ما ذاقته ، فالفضيل التائب بخلاف رابعة ، شهيدة العشق الإلهى ، والمُحبّة الصوفية ، وشتان بين مكانة رابعة ومكانة الفضيل ، وقد دخل الفضيل باب الشهرة من طريق التوبة ، وإنما دخلت رابعة مجال الشهرة من أوسع أبوابها وهى المحبة ، وأخصها باب العشق ولقد سألوها : أترين من تعبدين ؟ قالت : لو كنت لا أراه لما عبدته ، فهى تراه بقلبها ، وتسمى هذا العلم المتحصل من ذلك بالعلم الروحى ، وتقول عنه : إن

ثمرة العلم الروحي هي أن تصرف وجهك عن المخلوق كيما توجهه إلى الله الخالق وحده ، لأن المعرفة هي معرفة بالله .

ورابعة روحانية قد غلب حب الله على قلبها وأهوائها وإرادتها ، ووقعت عليها الخلّة من الله ، فأين ذلك من الفضيل بن عياض ! فلا بد إذن أن رابعة كانت بفطرتها واستعدادها وتربيتها ، والقدوة التي كانت لها في أبيها وأُمها ، ومجاهداتها مع أقرانها أمثال الحسن البصري ، وعبد الواحد بن زيد ، ورياح القيسى ، وسفيان الثوري ، كانت مؤهلة تماماً لكي تكون رابعة التي دخل اسمها التاريخ ونعرفها ويشهد لها القاصي والداني ، حتى أن ابن تيمية قد شهد لها وكذّب ما قيل عنها من أساسه .

وإذن ، فلا يمكن علمياً أن تكون رابعة فاجرة كما يدعى الدكتور بدوي . ولعمري كيف تسنى له أن يقذفها بما قذفها به والله تعالى يقول في كتابه . ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾ .

(سورة النور الآيات ٤ - ٥) .

والمحصنة هي العفيفة ، والبيان في الآيتين عن القاذف للمحصنة ، فإذا لم يأت بأربعة شهود فيجلد ثمانين جلدة ، ولا تقبل له شهادة ، ويُقضى فيه بالفسق ، أي لا يكون عدلاً عند الله ولا عند الناس إلا أن يتوب ويصلح .

ويقول الله تعالى : ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل ، امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾ .

(سورة النور . الآية ١١) .

وكان نزول هذه الآية في السيدة عائشة حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت ، ومعنى أنهم عصبة أي جماعة تتجاوز الواحد أو الاثنين ، وقد

تقدمهم كبيرهم رأس المنافقين عبد الله بن أبي سلول ، الذى كان يجمعهم ويستوشيهـم ، حتى دخل ذلك فى أنهـان بعض المسلمين فتكلموا به وجوزـه آخرون إلى أن نزل القرآن يدحض الفرية .

ويقول الله تعالى ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفاك مبين ، لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكذابون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فى ما أفضتم فيه عذاب عظيم ، إذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بأفوهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم . يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين ، ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ .

(سورة النور . الآيات من ١٣ - ١٩)

والمعنى أنه كان الأخرى بالمؤمنين أن يحسنوا الظن بأنفسهم ولا يصدقوا ما سمعوه من افتراءات على الأعراض ، طالما أنها لم تثبت ولم يقم عليها الدليل الدامع ، وقد مالآتم الخائضين بأن خضتم معهم ورويتـم عن بعضكم البعض وقلتم بالسنتكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم . وكان الواجب أن تقولوا لاينبغى أن نذكر ما سمعناه لأحد لأنه البهتان ، والله ينهاكم أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين ، ويحذركم من الذين يحبون أن يلطخوا سمعة المؤمنين ، وأن يقال عن مجتمعاتهم أنها مجتمعات تشيع فيها الفاحشة وفى الحديث الشريف . إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدرى ما تبلغ ، يهوى بها فى نار أبعد مما بين السماء والأرض » . وفى الحديث أيضاً : « لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم ولا تطلبوا عوراتهم ، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه فى بيته » . وهو ما كان ينبغى على الدكتور بدوى أن يتوخاه ، فليس ما ذكره عن رابعة من التفلسف فى شىء . وكان الأخرى بغيره من المفكرين أن يصوبوه وقت ظهور كتابه ، والحق أن كثيرين قد كتبوا ناقلين للكتاب مثل الدكتورة سعاد عبد الرازق ، والأستاذ طه عبد الباقي سرور ، غير أنهم لم ينبهوا إلى حكم الشريعة فيما أتاه الدكتور .

وخطورة هذه الاتهامات التى ساقها أن آخرين وقد اعتبروه من الثقات قد شايعوه عليها واعتبروها حقائق ، فكتبت سنّية قراعة كتابها عروس الزهد رابعة العدوية ، واخترعت لحياتها قصة ملفقة مضمونها افتراءات الدكتور وأقامت منها مغنية فى حانة ، ومحظية عند أحد التجار يتنازعها منافسوه ويكيدون لبعضهم بسببها . واستحسن القصة أحد المنتجين فصاغوها فيلماً جعلوا عليه ممثلة لم يكن لها من الحضور والشخصية ما يتوافق وعظمة رابعة ، وظنوا أنهم لو أشركوا فى الفيلم سيدة الغناء العربى أم كلثوم لتقوم بدور رابعة كمغنية فإن ذلك سيحقق لهم النجاح ، وقد نسوا أن غناء أم كلثوم لابد أن تنتهياً معه الممثلة ، وأن يأتى تمثيلها على نفس القدر من امتياز الغناء ، ولولا أم كلثوم وشعر طاهر أبو فاشا لافتقد الفيلم كل المقومات التى كان ينبغى أن تتوافر لعمل كبير كهذا .

ولقد كان طاهر أبو فاشا صوفياً فى القصائد الست التى قدمها ، وأحسب أنه عاش حياة رابعة الحقيقية حتى أننا لنقرأ قصيدته عرفتُ الهوى فكأن رابعة هى التى صاغتها ، وكأن الزيادة التى أضافها على أبياتها الأربعة المشهورة هى من نسج رابعة نفسها . وكم كانت رائعة أم كلثوم وهى تصور بصوتها المتعبد وعواطفها الجياشة الألحان التى وُضعت لهذه الأشعار الإلهية ، وكأن الجميع : أم كلثوم ، وأبو فاشا ، ورياض السنباطى ، وكمال الطويل ، ومحمد الموجى ، جوقة من العباقره تلبّستهم روح رابعة ، وحلّت بهم كراماتها وبركاتها ، فجاءت الأغاني الست من آيات الإبداع .

يقول أبو فاشا على لسان رابعة .

عرفت الهوى مذ عرفت هواك	وأغلقت قلبى عمن عداك
وقمت أناديك يا مَنْ ترى	خفايا القلوب ولسنا نراك
أحبك حبين حسب الهوى	وحباً لأنك أهل لـذاك
فأما الذى هو حب الهوى	فشغلى بذكرك عمن سواك
وأما الذى أنت أهل له	فكشفك للحُجب حتى أراك
فلا الحمـد فى ذا ولا ذاك لى	ولكن لك الحمـد فى ذا وذاك

★★★

أحببك حبين حبيب الهوى	وحبباً لأنك أهل لذاكـا
وأشتاق شوقين : شوق النوى	وشوقاً لقرب الخطى من حماكا
فأما الذى هو شوق النوى	فمشرى الدموع لطول نواكا
وأما اشتياقى لقرب الحمى	فنار حياة فنت فى ضياكا
فلا الحمـد فى ذا ولا ذاك لى	ولكن لك الحمـد فى ذا وذاكا

ويقول :

غريبٌ على باب الرجاء طريح	يناديك موصول الجوى وينوح
يهون عذاب الجسم والروح سالم	فكيف وروح المستهـام جـروح
وليس الذى يشكو الصبابة عاشقاً	وما كل باكٍ فى الغرام قريح
ولى فى طريق الشوق والليل هائمٌ	معالم تخفى تارةً وتلوح
ولى فى مقام الوجد حالٌ ولوعةٌ	ودمعٌ أدارى فى الهوى ويبـروح
وانت وجودى فى شهودى وغيبتى	وسرك نور النور أو هو رُوح
وما دخلتُ إلا إليك مواجدى	وداعى الهوى بالوالهـين يصيح
بسر الهوى يغدو وفيه يروح	غريبٌ على باب الرجاء طريح

سألت عن الحب أهل الهوى	سقاة الدموع ندامى الجوى
فقالوا حنانك من شجوه	ومن جـ————دّه بك أو لهوه
ومن كدر الليل أو صفوه	سلى الطير إن شئت عن شـ————دوه
ففى شـدوه همسات الهوى	وبـ————رح الحنين وشرخ الجوى

ورحت إلى الطير أشكـو الجوى وأسألـه سرّ ذاك الجوى
فقال حنـانك من جمره ومن صحو ساقـيه أو سكره
ومن نهـيه فيك أو أمره

سَلِ الليل إن شئتَ عن سرّه ففي الليل يُبَغِّثُ أهل الهوى
وفي الليل يكمن سرّ الجوى

ولما طـوانى السـدجى والجوى لقيت الهوى وعـرفت الهوى
وتلـك النـجيمات سـمّارُه وتحت خيام السـدجى نـاره
وفي كل شـيء يـلـوح الهوى ولكـن لمن ذاق طعم الهوى

ويقول :

لغيرك ما مـددت يـدا وغيرك لا يفيض نـدا
وليس يضيق بـابك بـي فكيف تـرد من قصـدا
وركنك لم يـزل صمـدا فكيف تـمـذود من وردا
ولطفك يـلـح خفى اللطف إن عـادى الزمـان عـدى
على قلبى وضعتُ يـدا ونحوك قد مـددت يـدا
سرى ليلي بغير هـدى ولا أدري لأى مـدى
يطـاردنى الأسى أبـدا ويرعـانى الجوى أبـدا
وأطوى البـيد طـاوية كأنى فى الفضـاء هـدى

وليلي والظلام ردى
وان امسى فواكب دى
فقدت الاهل والسند دا

على روحى جنت روحى
 وبينك ســـــرٌ تـبريحي
 فواغـوـثاه يا غـوـثاه
 أه أه أه
 وقد نام الخـليـونا
 إذا هـام المحبـونا
 فيا ويلاه يا ويلاه
 أه أه أه
 وداعى الشـوق يُـدـنـينى
 ويقتلنـى ويحيـنـى
 على ما كان وأسفاه
 أه أه أه
 وقلت عـــــاك تقبلانى
 وأيـــــامى تطـاردنى
 إليك ومنك يا ربـاه
 أه أه أه

- ۱۳۱ -

الفصل الثامن

رابعة في ضوء التحليل النفسى

★★★

إن مفتاح شخصية رابعة يكمن في أحوالها وطوارقها النفسية ، في خوفها وأنسها ، وشوقها وحبها وطمأنينتها ورجائها ، وقبضها وبسطها ، وتهيبها وتواجدها ، وفنائها وبقائها ، وغيبتها وحضورها ، وصحوها وسكرها ، وذوقها وشربها ، ومكاشفاتها ومشاهداتها . وأعماق نفسياتها يفسرها أنها صوفية ، وللتصوف سيكولوجية لا يحسن التحدث فيها إلا الصوفية أنفسهم ، ولعل أستاذ التحليل النفسى فى التصوف هو المحاسبى بلا منازع ، واسمه المحاسبى لأنه كان شديد المراقبة لنفسه .

والأحوال فى التصوف معان تترد على القلب وتحل فيه ، فإن كانت كالبروق وزالت فى وقتها فهى الطوارق ، وإن استقرت فيه ودامت فهى الأحوال قد تمكنت وطبعت الصوفى ، والصوفى إنسان عابد **homo religioso** ، وهو فى معراج الترقى فى القمة ، فالصوفى يتسامى بغرائزه وحاجاته ويتحول بطاقته الشهوية إلى تربية ذاته ، فإن ترقى عن ذلك فإنه يتحول بها إلى الله فتشغله محبته لله عن نفسه . والمعاملة إذا صارت إلى المحبة تستريح الجوارح بها ، ويتحصل للصوفى اليقين ، وتحقق له الطمأنينة .

ورابعة راعت سرها من خواطر نفسها ومشغوليات الأسرة وعوارض الجسم المذمومة . وتمكنت رابعة من المجاهدة حتى صارت لها بمثابة الوطن تجد فيها لذة قلبها وتتذوق لها حلاوة . ويروى عن رابعة أنها كانت تصلى فى اليوم ألف ركعة ، وكانت تستغفر وتبكي حتى ليكون دمعها مثل المستنقع تحتها . وكانت تستلذ بالصلاة وترتاح لها نفسها ، وتتوسل إلى الله وتناجيه وتعاتبه فى رجاء ، وتأنس به عن الأهل والولد . والألم الصوفى نتيجة المجاهدات الطويلة والمنهكة قد يتحملة البعض وقد يتخفف منه آخرون ، ولكن رابعة وهى الأنثى كانت

تستعذب الألم ، والإناث عموماً بهن ماسوشية ظاهرة ، بمعنى أنهن بالفطرة قادرات على احتمال الألم ، ولولا ذلك ما تطلب الأنثى الحمل المرة بعد المرة رغم ما فيه من مشقة وعُسْر تعانيهما وتجد لهما حلاوة في قلبها . وفي الألم الصوفي يقول محمد بن واسع : كابدت الليل عشرين سنة فتنعمت به عشرين سنة . « وسألوا رباحاً القيسي في حضرة رابعة . هل طالت بك الليالي والأيام بالشوق إلى لقاء الله ؟ فسكت ولكن رابعة أسرعته بالجواب : أما أنا فنعم ! » . فكانت رابعة تكابد الشوق لله ، وتتعذب في شوقها . وكانت راضية بعذاباتها في حبها لله ، فلما قال سفيان الثوري عندها يوماً : اللهم ارض عني ؟ قالت له . أما تستحي أن تطلب رضا من لست عنه براض ؟ ! - فهي راضية دائماً ، وحالها في الرضا أنها تسرها منه تعالى المصيبة كما تسرها النعمة . سئلت : متى يكون العبد راضياً ؟ فقالت : إذا سرته المصيبة كما سرته النعمة ! - وأحوالها في محبة الله حتى لينسيها هذا الحب نفسها ، فهي تفنى في أحوال أنسها بالله عن ذاتها حتى لتدخل شظية في عينها وهي تسجد فما تدرى بها ولا تتوجع . وكانت إذا ذكر اسم الله في أحوال أنسها تتوجد وتبكي وتصرخ حتى ليغشى عليها . وهي تتوجد إذا عصفت الرياح واضطربت الأمواج وأشرقت الشمس بنورها واطلمت الدنيا فظهرت النجوم بالألأئها . وقد تبكى وتتوقد حاستها الشعرية فتسبح لعظمة الله . تقول . سيدى ! بك تقرب المتقربون في الخلوات ، ولعظمتك سبحت الحيتان في البحار الزاخرات ، ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات ! أنت الذى سجد لك سواد الليل وضوء النهار ، والفلك الدوار ، والبحر الزخار ، والقمر النوار ، والنجم الزهّار ، وكل شيء عندك بمقدار ، لأنك الله العلى القهار !

وفي البيتين اللتين تقول فيهما .

من ذاق حبك لا يـزال متيماً فرح الفؤاد متيماً بلبال
من ذاق حبك لا يُرى متبسماً من طول حزن في الحشا إشعال

وتلخص رابعة أحوالها بين البسط والقبض ، أو الفرح والاكتئاب اللذين يتراوحيانها . وقد يبدو أنها تعاني من مرض نفسى مما يعالجه أطباء النفوس ، إلا أن الأحوال عند

الصوفية ليست من مجالات الطب النفسى ، وجبها ليس توهماً كالذى يعانى منه مرضى الوسواس .

وفى حكاية لأحد الزهاد قيل إنه الحسن البصرى ، أنهما بقيا يوماً وليلة يتحدثان عن الطريق الروحى وأسرار الحق بحرارة بلغت حدّاً نسيا معه أنهما رجل وامرأة ، فلما انتهيا من النقاش ، يقول الحسن البصرى : شعرت أننى لم أكن إلا فقيراً بينما هى غنية بالإخلاص !

والإخلاص سمة رابعة المميّزة لشخصيتها . وهى مخلصة عندما كانت طفلة وطلبت من أبيها أن لا يؤكّلها إلا بالحلال ، ومخلصة أن ترضى بكل عذاب طالما أنها تستشعر رضا الله عنها ، ومخلصة فى توبتها عن نفسها والدنيا وتفرّغها لربها وتجردها ، فلم تتزوج ولم تنجب ، ولم تشغل بشيء عن عبادتها . ويصفها العطار فيحسن الوصف إذ يقول « عشقها لله كان متأصلاً فى أعماق قلبها » . ولربما يصح أن نقول عن محبة رابعة لله أنه عِشْقٌ بينما تَعَلَّقَ سمنون بالله أنه محبة . وخصوصية محبة أو عشق رابعة لله تعالى أن رابعة أنثى ، والمحبة شغل الأنثى ، لأنها عندما تحب فيكيانها كله .

ولعله لهذا تقول فى حبها لله هذه الأبيات المشهورة عنها .

أحبك حبين : حب الهوى	وحباً لأنك أهل لـذاكـا
فأما الذى هو حب الهوى	فذكر شغلت به عن سواكـا
وأما الذى أنت أهل لـه	فكشفك الحُجب حتى أراكـا
فما الحمـد فى ذا ولا ذاك لى	ولكن لك الحمـد فى ذا وذاكـا

فحبها لله فيه معنى المحبة الإنسانية التى يعرف عنها البشر ، وفيه كذلك تلك المحبة التى تفوق ذلك وتتجاوز كل وصف ، لأنها من أسرار مقام المشاهدة ، وفيها تقول رابعة . إلهى ! إن قلبى مضطرب وسط هذه الدهشة ' - - والأمر مع رابعة الأنثى أنها تتزيد المحبة المؤلمة لها ، تقول . إلهى أغرقتنى فى حبك حتى لا يشغلنى شيء عنك ! - - وهى من فرط تمنيتها أن

لا يشغلها شيء عن ربها تطلب منه « الفقر الروحي » وتفسره منسوباً لله تعالى بأنه « عاطفة خوف من غضب الله يجعلها في طريق الأولياء » ، ورابعة يتراوحها الخوف من الله والمحبة لله .

ولعله أن يكون مقصود الصوفية من قولهم « الله فينا » ليس هو الحلول بالمعنى المتداول ، ولكنه الأنا الأعلى الذى يمثل الله فى الإنسان ، ولأنه الأنا الأمر فالإنسان يخشاه ، ولأنه متعال فهو يحبه . ورابعة فى قبضها تقول : إلهى ! أتحرق بالنار قلباً يحبك ؟ - وكانت كلما سمعت النار تصيح وتسقط ، وسمعتها مالك بن دينار تقول : يا رب ! أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار ؟ - وفى بسطها تطلب أن تشاهد وجهه وتسأله تعالى أن يريها درجة السعادة التى يصل إليها العاشقون لله . وتباهى بحبها فيسألونها : أى رابعة ! أتحبب الله تعالى ؟ فتصرخ : أجل أحبه ! أحبه حقاً حباً يمنعنى من الاشتغال بكراهية ما سواه ! - وترى فى المزامير يقول : يا رابعة ! أتحبيننى ؟ فتقول : يا رسول الله ﷺ ! وهل ثمت من لا يحبك ؟ ولكن حبى لله تعالى قد ملأ قلبى إلى حد لم يجعل ثمت مكاناً لمحبة غيره أو كراهيته !

ورسالة الحب هى رسالة المرأة ، وليس بالمستغرب أن تكون المحبة هى حال رابعة ، وإنما محبة رابعة فى الذرى ، وعامة الناس محبتهم للدنيا ، والقلوب مجبولة كما يقول رسول الله ﷺ على حب من يحسن إليها وبُغض من يسيء إليها . ولكن محبة رابعة متناسبة مع ترقى رابعة فى مدارج العبادة وارتفاع قامتها فى الإنسانية ، وحبها لله لذلك هو حب الصادقين والمتحققين . ودراسة رابعة نفسياً ، أو سيكولوجية رابعة ، مجالها لهذا السبب فى علم النفس التكاملى ، والإنسان الكامل هو العابد الذى عرف ربه فأحبه ، وذاق من محبته تعالى لخلقه فأحبهم لحبه ، ومُلئ قلبه فطار بالله طرباً وهام إليه اشتياقاً كما يقول الخراز . وكان الرسول ﷺ يقول : « إنه ليُغان على قلبى حتى استغفر الله تعالى فى اليوم سبعين مرة » . فكان ﷺ فى الترقى من أحواله ، فإذا ارتقى من حالة إلى حالة أعلى مما كان فيها يلاحظ ما ارتقى عنه ويعدده غنياً ، كما يعد ما ارتقى إليه ، فكانت أحواله فى تزايد .

ورابعة تقول . يا إلهى ! إذا كنت أعبدك خوف النار فأحرقنى بنارها ، أو طمعاً فى الجنة

فحرّمها عليّ ! وإذا كنت لا أعبدك إلا من أجلك فلا تحرمنى من مشاهدة وجهك ! » . وسبيلها ذاك أو معراجها الروحى تقول فيه إنه الطريق الذى اكتشفته ، وهو السبيل السوى . وهى لم تعرف غير الله فى حياتها ، وكانت معه بقلبيها وجسمها وروحها ونفسها . وما كانت تعرف النوم ، وكان يمر بها الأسبوع ولم تتناول طعاماً ولم توقد سراجاً ، وإنما هى فى شغل دائم مولعة بالصوم والصلاة . وهى تقول على لسان محبوبها « يا رابعة ! إن شئت أن تكونى دائماً مولعة بى فعليك أن تتخذى من ترك الدنيا صناعتك الدائمة ، ولن تنالى الوله حتى يكون لك ترك الدنيا ، فالوله من أجل الله ليس مجاناً » . ومن أجل الله تشتتت فى البلاد ، وهاجرت فى أرض الله الواسعة ، وكانت راحتها فى خلوتها فى حضرة الله الذى لم تجد عن هواه عوضاً ، وهواه هو عظمتها ، وهو أيضاً كما تقول محفتها ، وأقصى أمنياتها أن وجود الله بالوصل .

وتعبيرات رابعة نسائية خالصة ، فلم يكن تصوفها استرجالاً أو تعويضاً عن النقص الذى تستشعره فى نفسها كأنثى كما يقول عالم النفس أدلر ، ولكنه كمال تطلبه لنفسها . وشخصية رابعة من هذا النمط الذى من دأبه التجرد ، ويختار المعنوى على الحسى ، فإذا سألوها عن شوقها للجنة قالت : الجار قبل الدار ! » . وهى ملامتية : لا تحب أن يظهر عملها ، وتقول : ما ظهر من عملى فلا أعده شيئاً » . ومن فرط أنوثتها كان خطابها لمن تأتنس بإيمانه « حبيبى » ، وقد نادى به اللص الذى دخل بيتها سارقاً بعد أن تاب على يديها وسمعتة يبكى فى صلاته ، ولم يعتبر عبد الرحمن الجامى أنوثتها نقصاً فيها ، ولم يعد طريقته استرجالاً ، فقال عنها : العارفة الواصلة إلى مراتب الرجال » ، وهى شهادة رجل تضاف إلى شهادات كثيرة من أهل رأى وشيوخ الطريقة ، فقد قال فيها سفيان الثورى : المؤدبة التى ما أرتاح لمجلس أحد مثلما أرتاح لمجلسها » .

ورابعة المرأة والصوفية قيل فيها أنها « فى المحبة رائعة » وقد شربت من كأسها وخمرتها حتى الثمالة ، وسمعت الكثير من العتاب لها على حبها وإخلاصها لهذا الحب حتى قالت هذه الأبيات المنسوبة لها .

كأسى وخمرى والنديم ثلاثة	وانا المشوقة في المحبة : رابعه
كأس المسرة والنعيم يديرها	ساقى المدام على المدى متابعه
فإذا نظرت فلا أرى إلا له	وإذا حضرت فلا أرى إلا معه
ياعاذلى ! إنى أحب جماله	تا الله ما أذنى لعذلك سامعه
كم بتت من حُرقي وفرط تعلقى	أجرى عيوناً من عيوني الدامعه
لا عبرتى ترقأ ولا وصلى له	يبقى ولا عيني القريحة هاجعه

وقد وصف الغزالي حال رابعة فقال: إن حبها لرب الدار ، أى الدنيا شغلها عن الدار وزينتها ، بل عن كل شئ سواه ، حتى عن نفسها ، ومثلها مثل العاشق المستهتر بمعشوقه ، المستوفى همه بالنظر إلى وجهه ، فإنه في حالة الاستغراق يغفل عن نفسه ، ولا يحس بما يصيبه في بدنه ، ويعبر عن هذه الحالة بأنه فتنى عن نفسه . وهذا المعنى عند الغزالي يرفع عن رابعة أن تكون معاناتها من المرض النفسى الذى يطلق عليه فقدان الشخصية **Depersonalization** ، وفقدان الواقع **Derealization** . ويقول الغزالي : إن معنى أن رابعة قد فتنيت عن نفسها أنها صارت مستغرقة بغير نفسها ، وصارت مهمومة بالله ، ولم يبق منها متسع لغيره أو لنفسها ، وهذه الحالة هى التى توصل إلى قرّة عين لا يُتصوّر أن تخطر في هذا العالم على قلب بشر .

الفصل التاسع

قضية زواج رابعة، والمحبة والخلة عندها، والشطح المتهمة به

لم يختلف الأقدمون في أمر زواج رابعة ، ويبدو إن المحدثين وحدهم هم الذين أثاروا القضية وجعلوا من زواجها مشكلة ، وكان الدكتور بدوى أيضاً هو المشكك في الأخبار التي افترضت زواجها ، واعتمد في ذلك على خلط المؤرخين بينها وبين رابعة الشامية ، وأن رابعة كما أورد المؤرخون عنها قد خُطبت لأكثر من واحد ، وفي كل مرة كانت ترفض فكرة الزواج من أصلها .

وتؤكد الدكتورة سعاد عبد الرزاق على خلاف الدكتور بدوى أن رابعة تزوجت ولم تخطب إلا بعد أن مات زوجها ، وتفترض أن زوجها كان رباحاً القيسى ، وتقول إن رباحاً قد توفي بين عام ١٧٧ وعام ١٧٩ هـ ، أى في تاريخ سابق على وفاة رابعة بحوالى عشرة أو خمسة عشرة عاماً ، وذكرت في وفاتها أنها عاشت يقيناً ما يقرب من خمسة وثمانين عاماً ، ومعنى ذلك أن عبد الواحد بن زيد ومحمد بن سليمان الهاشمي لم يتقدما لخطبتها إلا وهى في سن السبعين أو الخامسة والسبعين بعد أن توفي زوجها وذلك ما لا يقبله عقل ويمجه الذوق^١

وطالما أن هذه المسألة من المسائل التي ينبغى أن يتوفر لها مؤرخ فأرى أن نتركها لنتناول بالشرح ما هو أهم ، وهو رأى رابعة في الزواج ، أو ما أطلق عليه الدكتور بدوى نظرية رابعة في الزواج . وعنده إذا صحت الأخبار التي تروى عن الحسن البصرى ومالك بن دينار ، والتي تؤكد عدم زواجهما عن مبدأ فإن الدعوة إلى التجريد أى عدم الزواج تكون

قد وجدت في عصر سابق على رابعة . وقد دعا بهذه الدعوة الصوفية الذين اعتقدوها لما رأوه من عدم توافق الجمع بين التأهل وبين ممارسة حياة الزهد . ولم يعدموا في القرآن آيات يمكن تأويلها بحيث تؤيد وجهة نظرهم . غير أن رابعة هي التي ضربت بسهم واقف في سبيل تقنين عدم الزواج عند الصوفية ، وكان لها أثرها الحاسم في هذا التوجه ، لأنه صار بها بمثابة القاعدة التي كان من الصعب على الصوفية من بعد الخروج عنها ، وذلك لأن رابعة امرأة ، وغاية المرأة في الحياة هي الزواج ، وهو عندها أهم مما هو عند الرجل فإذا كانت وهي المرأة حريصة على عدم الزواج ، فما أبلغها من قدوة عند الصوفية . وكانت لمسئلة خطبتها مرتين دلالتها على قوة نفسها في هذا الباب ، وكان جوابها على عبد الواحد بن زيد - بعد أن حجبته أياماً ولم تشأ أن تراه بعد أن سمعت منه هذا المنكر في نظرها ونظر كل صوفي حقيقى وهو طلبها للزواج منه - « يا شهوانى ! أطلب شهوانية مثلك ! أى شىء رأيت فى من آلة الشهوة ؟ » . كما كان جوابها على أمير البصرة محمد بن سليمان الهاشمى وقد خطبها على صداق مقداره مائة ألف . « إن الزهد في الدنيا راحة البدن ، والرغبة فيها تورث الهم والحزن ، فهىء لمزادك ، وقدم لمعادك ، وكن وصياً لنفسك ، ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقسموا تركتك ، وصم الدهر واجعل فطرَكَ الموت . وأما أنا فلو خولنى الله أمثال ما حُرِّت وأضعافه لم يسرنى أن أشتغل عن الله طرفة عين ! » ، وفي رواية أخرى « ما سرنى أنك لى عبد وأن كل مالك لى ، وأنك شغلتنى عن الله طرفة عين » . فرابعة إذن نذرت نفسها لله ، وإذا كان الزواج الحق هو زواج الحب ، وحببها الوحيد هو الله فإذا كان لها أن تفقرن بأحد - والكلام هنا للدكتور بدوى - أفبغير الله تستطيع الاقتران ؟ هنا تأتى نظريتها في الحب فتؤيد نظريتها في الزواج ، وهذا هو الجديد حقاً في مذهب رابعة في التجرد والعزوبة (!) . ونظرية رابعة في الحب يدخل فيها معنى الخلَّة ، ويفسر تطور نظرية الحجَّ إلى حد إسقاطه ، إذ يمكن أن يُفسَّر على أنه كان على وجه الخلَّة بينها وبين الله .

واستخلاص رأى رابعة في الزواج ينبغى أن يكون في إطار المذهب الصوفى والتراث الإسلامى ، والأصل في الإسلام أن الزواج فرض مع الحاجة ، وسُنَّة على الكفاية ، والأحاديث تترى تحض على الزواج مثل « من ترك التزويج مخافة العيلة فليس منا » ، و « إذا أتاكم من تَرْضُون دينه وأمانته فانكحوه ، ألا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد

كبير » ، وفي الخبر من نكح لله وأنكح لله استحق ولايته . - وهذا أدنى حال تُنال به الولاية لأنها مقامات ، ولكل مقام عمل من الصالحات .

وقد رأى كثير من الصوفية أن التزويج له شروط لا تتوافر فيهم ، واتهم الفقهاء بشر ابن الحارث بترك السنة ، ويعنون بها الزواج ، فدافع عن نفسه بأنه مشغول بالفرض عن السنة ، وقال . ما منعني من ذلك إلا الآية في كتاب الله التي تقول ﴿ ولهن مثل الذي عليهن ﴾ وعلمى أنى لن أقوم بذلك . « وقال في مجال المقارنة بينه وبين الإمام أحمد بن حنبل أنه ، أى الإمام ، يفضل بثلاث « بطلب الحلال لنفسه ولغيره ، وأنا أطلب الحلال لنفسى ، واتساعه للنكاح وضيقى عنه ، وقد جعل إماما للعامة وأنا أطلب الوحدة لنفسى » .

وكان أبو طالب المكي يقول : الأفضل للمريد ترك التزويج إذا أمن الفتنة ، واعتاد العصمة ، ولم تنازعه نفسه إلى معصية ، ولم تترادف خواطر النساء على قلبه فيتشتت بها همّه ، وتقطعه عن حُسن الإقبال على الخدمة ، وما لم يجمع بصره إلى محظور ، وتخالطه الشهوة وتستولى عليه . ومتى وقعت هذه المعانى فإنها تغير القلب عن الخشوع ، وتُدخل عليه النقصان . ومتى لم يُبَيِّل العبد بها فإن الخلوة أفضل المعانى ، وفيها يجد لذة الوجود وحلاوة المعاملة ، ويُقَبِّل على نفسه ويشغل بحاله ولا يهتم بحال غيره ، فيحمل حاله على حال غيره فيقصر ، أو يقوم بحكم آخر فيعجز ، ويعالج شيطانا آخر مع شيطانه ، وتنضم نفس أخرى إلى نفسه . «

« وهناك من الأسباب الكثيرة ما يمنع الصوفى من الزواج ، منها أن المكاسب قد فسدت فليس يُنال أكثرها إلا بمعصية ، وهو مسئول من أين اكتسبه وفيما أنفقه . ومنها أن أكثر النساء قليلات الدين والصلاح ، والأغلب عليهن الجهل والهوى ، فلا يأمن أن ينقاد لهن ، أو يمانعهن ، فيتنغص عليه عيشه . وإن كان المتاهل فقيراً لقى شدة وجهداً وعنتاً وكداً ولم يأمن دخول الآفات عليه . وقيل إن العيال عقوبة شهوة الحلال . ويذكر إبراهيم بن أدهم أن من تعود أخذ النساء لا يقلح . ويقول الحسن البصرى إذا أراد الله بعبد خيراً في الدنيا لم يشغله بأهل ولا ولد . «

وعلى ذلك لم تتزوج رابعة إلا من هذا المنطلق :

أولاً : لأنها لم تكن ترى فيها ما يمكن أن يشتهي الرجل .

وثانياً : لأنها كانت زاهدة في الدنيا ، فكيف يمكن أن يكون لها فيها الأهل والولد ؟

وثالثاً : لأنها كانت في قلق وكرب من الآخرة ، فكيف تحتاج إلى الزوج وتتفرغ له كما تقول ؟

ورابعاً : أنها كانت تجد راحتها في خلوتها أو كما تقول .

راحتى يا إختوتى فى خلوتى وحبيبى دائماً فى حضرتى
لم أجـد عن هـواه عـوضاً وهـواه فى البرىـا محنتى

إلى أن تقول

قد هجرت الخلق جميعاً أرتجى منك وصلاً فهو أقصى منيتى

فهى مشغولة بالله عن الزواج ، ومن غير المستطاع أن تخدم سيدين ، وقد نصحت محمد بن هشام أن ينصرف عن الدنيا بدلاً من الزواج ، وأن يتهياً لأموال الآخرة ، وأن يصوم الدهر حتى يكون الموت فطره . وذلك يؤدى بنا إلى السبب الخامس في عدم إقبالها على الزواج .

أنها قد صيرت الموت فطرها على الحقيقة ، فأماتت منها شهواتها !

ومن الطريف أن محمد بن زكريا الرازى يعلق على مثل ذلك أن الامتناع عن الزواج والجماع - لضرب من التفلسف - يبرد البدن ، ويعسر الحركة ، ويوقع الكآبة في النفس بلا سبب ، فتعرض للممتنع أعراض المالبينخوليا ، فتقل شهيته وهضمه . وينقل عنه ابن الجوزى ويؤكد أن ترك النكاح للصوفى فيه مخاطرة للبدن والدين وليس من الصحة في شيء ، وقد يدفع بالتارك إلى الشذوذ الجنسي .

ومحبة المحبين لله عموماً هي ميل النفس الناقصة إلى إدراك ما في إدراكه كمال ، ليحصل لها بهذا الإدراك الكمال الذي فقدته في ذاتها ، إذ في جوهرها محبة الكمال والتطبع به إلى أن تبلغ فيه النهاية . وإذا كانت محبة العبد لله بهذه الصفة فليست كذلك محبة الله للعبد ، لأن كل جمال وكمال وبهاء وجلال ودوام بقاء في العالم مستفاد منه ، وموجود به ، فلا يكون منه التفات إلى غيره ، لاستغنائه بكمال ذاته عن كمال غيره ، فليس له نظر إلا إلى ذاته ولا محبة إلا لها . والوجود كله هو فعل الله ، ولذا فهو يحبه ، والله إذ يحبه فلا يحب على الحقيقة إلا ذاته ، لوجود الأفعال كلها به وعنه . فمحبة الله لعبدته هي الحقيقة وبها تكون محبة العبد ، ولو لم تكن محبة الله لم تكن في العالم محبة أصلاً ، فهي النسبة الكبرى التي تنتهي إليها كل نسبة . فإذا قلنا إن رابعة العدوية كانت العاشقة لله فلا تثريب على ذلك ، لأنها فعلاً كانت كذلك ، فمحبتها لله بلغت الذروة ، والعشق هو أقصى درجات المحبة ، وتندرج فيه كل مقامات المحبة ، ومعنى العشق أن ذات المحب استغرقتها ذات المحبوب ، فلم يشعر بنفسه ، وشغله عنها شهود محبوبه . ورابعة كانت كذلك فكيف يمكن لمثلها أن تتزوج ؟

ولا ينبغي أن نقول مثل مقالة الدكتور بدوي « أن رابعة قد اقترنت بالله » ، فذلك ما يصلح للمسيحية ، لوجود الناسوت بالله ممتزجاً باللاهوت ، فأمكن من ثم أن يتصور المسيحي إمكان اتحاداه هو نفسه بالله . وأما العشق الصوفي الإلهي عند رابعة فهو اتحاد عقل يوجب غفلة المحب عن الشعور بجملة ، شُغلاً منه بشهود محبوبه ، وذلك تفسير أبيات رابعة :

أحبك حبيب : حب الهوى	وحباً لأنك أهل لذاك
فأما الذى هو حب الهوى	فذكر شُغِلْتُ به عن سواك
وأما الذى أنت أهل له	فكشفك للحُب حتى أراك

وقد قيل أن العشق جنون إلهي يعنى أن العشق لا يُدَبَّر بعقل ، ولا تجرى فيه أمور العاشق على ما يوجب صلاح بدنه ، بل خرابه وتشويهه ، لأن شهود الصفات الروحية كلما

قويت على المحب تتخرب منه الصورة الجسمانية وتتشوش هيئته الآدمية . ولقد قالوا في رابعة بعد أن أحالها العشق إلى حال شديد من الهزال وأسرع السقم إلى جسمها ، أنها كانت كالشَّنْ تكاد تسقط ، فلا عجب أن تحولت إلى روحانية حتى ليأمن الحيوان إليها وتستأنس بها الغزلان فتصطف حولها في رواية العطار ، فما تكاد تبصر الحسن البصرى قادماً من بعيد حتى تفر جميعها من أمام رابعة ، وذلك ما جعل الحسن تدب الغيرة في قلبه ، وهو أيضاً ما يجعل الدكتور بدوى تدب الغيرة في قلبه ، فيقول عن كراماتها : أنها من الأنواع المشهورة المألوفة في الترجمات الخيالية للصوفية والقديسين ، وأن العملية التي أنتجتها واحدة ، وأنه لم يسبقها في كتابه إيماناً منه بأنها قد وقعت « فهيئات هيئات أن يخطر هذا ببالنا إذ نحن ننكر الكرامات والخوارق أياً كان مصدرها » !!!

★★★

ورابعة العدوية إذن قد رفضت الزواج من منطق مذهبها في المحبة ، أو بالأحرى مذهبها في العشق الإلهي ، ويرتبط بذلك قولها في الخلّة ، فيورد الزبيدي أنها القائلة .

وتخللت مسلك الروح منى وبه سُمي الخيلا خيلا
فإذا ما نطقت كنت حديثي إذا ما سكنت كنت الغيلا

ثم يقول أنها كانت في وجدها تذكر الأنس وترتفع إلى وصف معنى الخلّة في قولها
السائر .

إنى جعلتك في الفـؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلـوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس وحبيب قلبي في الفـؤاد أنيسى

والخلّة التي انتهت إليها في معراجها الروحي هي كما يقول المحكي صاحب القوت مقام يزيد على مقام المحبة . ومعنى الأبيات التي تسوقها رابعة في الخلّة أنها أى رابعة قد تخللتها

شمائل المحبوب الروحانية فتكيفت بها روحها ونفسها وجملتها الإنسانية ، فصارت أعضاؤها تتحرك بإرادة الله سبحانه لا بإرادتها عن نفسها ، واستحالت عليها المخالفة له .

ومقام الخلّة هذا الذى ترقّت إليه رابعة بعد مقام المحبة ليس بعده المزيد ، فهذا أعلى المقامات ، وهو مقام قال أبو يزيد البسطامي أنه أقام فيه ووصف أحواله . وقال أبو طالب المكي إن شقيقاً وابن أدهم البلخيين كانت لهما مطالعات في معانى الخلّة ، وسلكا باب الفيض في هذا الطريق . وليس فوق الخلّة إلا درجة النبوة ، ومقام الخلّة لا يكون إلا مقام المحبوبين . وفي الخبر أن الله عز وجل أوحى إلى أوليائه إنما اتخذ لخلّتي من لا يفتر عن ذكرى ، ولا يكون له غيرى ولا يؤثر على شيئاً من خلقى . وإن حُرّق بالنار لم يجد لحرق النار وجعاً . وإن قُطِع بالمناشير لم يجد للمس الحديد ألماً .

والخلّة كما نبّه الرسول لا تكون من الله إلا لأوليائه ، والله سبحانه وتعالى إذا رفع عبداً جاوز به الحد . وتكلم الجنيد عن الخلّة فقال : هى غاية الحب ، وهى مقام عزيز يستغرق العقول ويُنسى النفوس ، وهو من أعلى علوم المعرفة بالله تعالى . وفي هذا المقام يعلم العبد أن الله عز وجل يحبه فيقول العبد « بحقى عليك وبجاهى عندك » . ويقول الله تعالى « بحبك لى » .

وأصحاب الخلّة هم المستأنسون بالله تعالى ، وهم جلساء الله ، قد رفع الحشمة بينه وبينهم ، وزالت الوحشة ، فهم يتكلمون بأشياء هى عند العامة كُفْر بالله تعالى ، لما قد علموا أن الله تعالى يحبهم ، وأن لهم عند الله تعالى جاهاً ومنزلة .

وفي ضوء هذا التفسير للخلّة ، وفي إطار هذا المعنى يمكن تأويل قول البسطامي « سبحانى ما أعظم شأنى » ، وقوله « جزت بحراً وقف الأنبياء بساحله » ، وقول رابعة « لو وضعت خمارى ما بقى بها أحد » ، وقد وصف ابن خلدون هذه الكلمات وأمثالها بأنها كشفية ، بمعنى أن حال الغيبة والسُّكْر استولت على القائل فتكلم بما ليس فيه كلام ، ولعل ذلك يفسر كل شطحات رابعة من أمثال .

أتحرقنى بالنار يا غايية المنى فأين رجائى منك أين مخافتى ؟!

وقولها : « يا إلهي إنْ بعثتْ بى يوم البعث إلى النار ، لأذعْتُ سرّاً يبعد النار عنى بألف سنة ! » ، و « إلهي ! إذا بعثتْ بى إلى النار يوم البعث فسأصرخ نائحة : ربى ! يا من أحبه كل هذا الحب ! أهكذا تعامل من يحبونك » ، وسؤالها « يا رب ! أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار ؟ » ، وقولها « أنا ذاهبة إلى السماء حتى أُلقي بالنار في الجنة وأصُبّ الماء في الجحيم ، فلا تبقى الواحدة ولا الأخرى ، ويظهر المقصود ، فينظر العبد إلى الله دون رجاء ولا خوف ، ويعبدونه على هذا النحو ، وذلك أنه لو لم يكن ثمة رجاء في الجنة ، وخوف من الجحيم ، أقما كانوا يعبدون الحق ويطيعونه ؟ » ، وقولها « عُرِضْتُ عَلَى الجنة فمَلْتُ بقلبي إليها ، فأحسب أن مولاى غار عَلَى فعاتبنى ، فله العتبي ! » ، وقولها « لا أريد الكعبة ، أما الكعبة فماذا أفعل بها ؟ » .

ولعله بسبب هذه الشطحات عندها وعند غيرها ممن قالوا بالخلّة ، انتقد المالطي الروحانية في كتابه « التنبيه والردّ على أهل الأهواء والبدع » - وقد أدرج ضمنهم رابعة العدوية ، وقال فيهم : إنهم زعموا أن حب الله غلب على قلوبهم وأهوائهم وإرادتهم حتى كان حبه أغلب الأشياء عليهم ، فإذا كان عندهم وكانوا عنده بهذه المنزلة ، وقعت عليهم الخلّة من الله ، فجعل لهم السرقة والزنا وشرب الخمر والفواحش كلها على وجه الخلّة التي بينهم وبين الله ، لا على وجه الحلال ، ولكن على وجه الخلّة كما يحل للخليل الأخذ من مال خليله بغير إذنه . وقد جعل المالطي منهم رياحاً وكليباً .

وأيضاً فإن ابن عربي عاب على رابعة مقالاتها لما سمعت قارئاً يقرأ « إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون » ، قالت « مساكين ! أهل الجنة في شغل هم وأزواجهم ! » ، فقال ابن عربي : إنها ما عرفت ، وإنها لمسكينة ، فإنما شُغل أهل الجنة إنما هو بالله ، وقال : وهذا من مكر الله الخفى بالعارفين في تجريح الغير ببادى الرأى والتعريض في حق نفوسهم وهم منزهون عن ذلك . ومع ذلك فإن ابن عربي في مواضع أخرى قد مدح رابعة وقال : إنها في رتبة الشيخ عبد القادر الجيلاني ، فقال : السائرون إلى الله بعزائم الأمور المشروعة على قسمين . طائفة ربطت هممتها على أن الرسول إنما جاء منبهاً ومعلماً بالطريق الموصلة إلى جناب الحق ، فإذا أعطى العلم بذلك زال من الطريق وخلّى بينهم وبين الله ، فهؤلاء إذا

سارعوا سابقوا إلى الخيرات ولم يروا أمامهم قد م أحد من المخلوقين ، لأنهم قد أزالوه من نفوسهم وانفردوا إلى الحق ؛ والطائفة الأخرى جعلوا من نفوسهم أنهم لا سبيل إليه تعالى إلا والرسول ﷺ هو الحاجب ، فلا يشهدون أمراً إلا وأقدام الرسول ﷺ بين أيديهم . والحالة الأولى هي حالة عبد القاهر وأبى السعود بن شبيل ورابعة ومن جرى مجراهم .

وأيضاً فإن ابن تيمية في مجموعة الرسائل والمسائل قد دافع عن رابعة في قولها عن البيت أنه الصنم المعبود في الأرض ، وكذب أن تكون رابعة قد قالت بذلك ، فالمسلمون لا يعبدون البيت وإنما رب البيت ، بالطواف به والصلاة إليه . وكذلك كذب أن تكون قد قالت « والله ما ولجه الله ولا خلا منه » ولا فرق بين ذلك البيت وغيره في هذا المعنى ، فلاى مزية يُطاف به ويُصلى إليه ويُحج دون غيره من البيوت ! . وذكر أن قول من قال ذلك - وهو ليس رابعة - « ما ولج الله البيت » كلام صحيح ، وأما قوله « ما خلا منه » فإن أراد أن ذاته حالة فيه أو ما يشبه هذا المعنى فهو باطل ، وهو مناقض لقوله ما ولج فيه ، وإن أراد به أن الاتحاد ملازم له لم يتجدد له ولوج ، ولم يزل غير حال فيه ، فهذا مع أنه كُفر وباطل ، فإنه يوجب ألا يكون للبيت مزية على غيره من البيوت ، إذ الموجودات كلها عندهم كذلك .



ويذهب ابن تيمية إلى ما تذهب إليه رابعة في المحبة فيقول : إن جميع المشايخ وأئمة التصوف مجمعون على أن الله محبوب لذاته محبة حقيقية ، بل هي أكمل محبة ، غير أن صاحب المحبة لا ينبغي أن ينساق في محبته لله إلى حد يفقد فيه الخشية من الله ، فإنه ينبغي أن يكون على الدوام على مخافة منه ، فيرجوه القبول فيما يلزم به نفسه من الطاعات ومقام المحبة إذن مقيد بالخوف والرجاء دائماً ، وقد كان ذلك دأب رابعة ، فلما سألها أحدهم أن تدعو له قالت « من أنا يرحمك الله ! أطع ربك وادعه فإنه يجيب المضطر » . وقالت لسفيان الثوري . إنما أنت أيام معدودة ، فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضك ، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل ، فاعمل ! . وخشيته من الله والآخرة هي التي قيل فيها أنها عاشت أربعين سنة لا ترفع رأسها حياءً من الله ، وأنها ما كانت تسمع أذاناً قط إلا وتذكر يوم القيامة ، ولا كانت تذوق الحر إلا وتذكر يوم الحشر ، وقد جعلت إرادتها من إرادة الله

وتقول . لست إلا عبدة وليس لى أن أتصرف وفق أهواء قلبى ، لأنى إذا أردت ولم يرد هو لكان هذا منى جحوداً ! » . وابن تيمية يقول : إنه ليس أغلظ من الدعوى ، ولا طريق أقرب إلى الله من الافتقار ، وأن أصل كل خير فى الدنيا والآخرة هو الخوف من الله ، ومن أجل ذلك تقول رابعة إنها حارسة رباط ، ولكن بمعنى آخر ، ذلك أنها لا تدع شيئاً يخرج مما فى داخلها ، ولا تدع شيئاً يدخل مما هو خارج ، ولم تعرف غير الله ، وحبها لله تعالى قد ملأ قلبها فلم يعد فيه مكان لمحبة غيره أو كراهيته . غير أن ابن تيمية كان لا يرى إطلاقاً تسمية العشق على الله تعالى ، وعنده أن أدنى ما فيه بدعة وضلال ، وأنه فيما نُص فيه من ذكر المحبة الكافية ، والخلة والمحبة صفتان لله تعالى موصوفاً بهما ، ولا تدخل أوصافه تحت التكيف والتشبيه . ويورد ابن تيمية كلام القشيري من مشايخ الصوفية أن العشق مجاوزة للحد فى المحبة ، والحق سبحانه لا يوصف بالعشق لأنه لا يوصف بأنه يجاوز الحد ، فلا يقال إن عبداً جاوز الحد فى محبة الله ، فلا يوصف الحق بأنه يُعشق .

ولا العبد فى صفته بأنه يُعشق ، والمشكلة فى رابعة أنها كانت ترتقى بكل المفاهيم والمعاملات الصوفية من المحسوسات إلى المعقولات نتيجة تهذيبها لنفسها وارتقائها رياضاتها . والعاشق بمفهوم رابعة إذ وصل إلى درجة العشق فى حبه ارتقى منها إلى المكانة الأسمى ، وهى فى حالة العشق الإلهى أن تتوق نفسه إلى الله ، وتحن إليه كما يحن العاشق إلى معشوقه ، وهذا هو الحب الحق والعشق الخالد الذى تسمو إليه النفس الناطقة عند بلوغها أقصى ما تصبو إليه من الكمال . وفى الخبر أن الحسن البصرى لما سأل رابعة : هل تتزوجين ؟ فأجابته : الزواج ضرورى لمن له الخيار ، أما أنا فلا خيار لى فى نفسى . إنى لربى وفى ظل أوامره ، ولا قيمة لشخصى ^١ . - فقال الحسن : فكيف بلغت هذه الدرجة ؟ قالت . بفنائى بالكلية ^١ ولعله لذلك وصفها فريد الدين العطار الشاعر الصوفى فقال إنها . ذات الخدر الخاص ، المستورة بستر الإخلاص ، المتقدة بنار العشق والاشتياق ، المتحرقة إلى القرب والاحتراق ، الفانية فى الوصال ، كأنها مريم ثانية ، عذراء بتول ، صافية صفية ، إنها رابعة العدوية ^١

رحم الله رابعة والعطار !!

الفصل العاشر

معراج رابعة الروحي من أحوالها ومقاماتها

السعادة القصوى والدائمة هي مطلب ذوى العقول والنفوس الكاملة ، وليس إدراكها بالحواس الظاهرة ، لأن كل لذات المحسوسات بائنة ومنقطعة . والسعادة القصوى والدائمة لا يتحصلها إلا أقل القليل في الملأ الأعلى ، بمشاهدة الأنوار القدسية والتلذذ بمطالعة الجمال الأسنى والذين يتحصلونها تحوطهم منذ البداية العناية الربانية ، وتيسر لهم الرياضة التى بها تُدرك المعارف الإلهية ، فتنتبج بالفضائل من محبة الحق ومعرفته ، والشوق إلى جمال حضرته ، فيصير لها ذلك خُلُقاً وعادة . والله تعالى أعطى كل جسم نفساً تليق باستعداده الذى خلقه فيه من الكمال والنقص والقوة والضعف . ولقد قيل إن النفوس ثلاثة : مطمئنة وأمارة ولوامة فالمطمئنة خُلقت متيقظة من ذاتها ، مقبلة على بارئها بالفطرة ، ومُعْرِضة عن سواه ، وهذه هي نفس خواص الأصفياء ، أشرق عليها نور الحق فجذبها إليه فعكفت عليه ، والأمارة يغلب عليها حب المحسوسات والشهوات الجسدية ، فأنكرت اللذات الروحية والمدارك العقلية ، فهي محجوبة عن الله ومطرودة من جنابه ، واللوامة أقبلت على المحسوسات فلم تُسْتَغْرِق فيها ، وكانت لها من اليقظة والفطنة ما تدرك به لذة المعانى العقلية ، وتطلب الفضائل ، فكان لها نظرٌ إلى الأعلى بقدر يقظتها ، ونظرٌ إلى الأسفل بقدر ميلها إلى الشهوات الطبيعية . وهي وإن كانت محجوبة عن كثير من الحقائق الربانية فإنها يمكن أن تتزكى بالرياضة وتلحق بالسعداء .

ورابعة كانت من أول مشهد التيقن بها فيه وهي طفلة ، يظهر أن لها النفس الفاضلة التى تشير إلى أنها إنسانة علوية ، قد خلقت فيها الأهلية للاتصال بالملأ الأعلى ، وتقول عن نفسها « أتيت من العالم الآخر وذاهبة إليه ، وأعمل في الدنيا عمل الآخرة » ، وتقول : « والطريق إلى الله لا بد فيه من القلب المتيقظ ، فإذا استيقظت رأيت الطريق بعيون القلب وكان في وسعك بلوغ المقام » .

وأحوال رابعة ومقاماتها في الخوف، والحزن، والرجاء، والقرب، والهيبة، والأنس، والشوق، والمحبة، والعشق، وفي التوبة والفقر والصبر، وإسقاط التدبير والتوكل والرضا، يظهر فيها جميعاً أنها ربّانية تحفظ الله في سرائرها، وتراقب الحق بالحق، وتسال الله الرعاية، فإذا سألوها أن تدعو لهم قالت: «أطع ربك واعبد، وادعوه فإنه يجيب المضطر» وتقول «أشتعل كالشمعة وأضيء للناس، وأبدأ بأن تكون متجرداً ثم أعمل، فإن فعلت هذين صرت نحيلاً كالشجرة إن كنت تريد ألا يذهب جهدك سدى». واعتقادها أنها كما تكون في الدنيا ستكون في الآخرة، وتقول «ومن يهمل في الدنيا أن يسبح بحمد الله لحظة وينوح ويبكى على حاله، فإنه في الآخرة سيبيكى لدرجة أن يثير الشفقة على نفسه».

ورابعة لذلك منذ طفولتها تخشى الله، وتخاف الموت والنار، ويكبر معها خوفها وخشيتها ويستحيلان إلى هيبة من الله، ثم إلى حياء. وتقترب أكثر فتترك الدنيا في اقترابها، فطريق الدنيا وطريق الله متعاكسان. ورابعة في مجاهداتها محزونة ومكروبة ومهمومة، وافتتانها بالله ورجاؤها فيه ومحبتها له تيسر لها الطريق، ومقامها في المحبة راسخ حتى لتذكر بالمحبة. وقيل فيها أنها من الواصلين والعارفين، والوصول معرفة ولا محبة إلا عن معرفة، ومن كان بالله أعرف كان له أخوف، والمعرفة توجب الحياء والتعظيم لله. والمعرفة للعارف مرآة إذا نظر فيها تجلّى له الله، ورابعة تقول عن نفسها: «لم أعرف غير الله ولم أنسه مرة» وتقول: «لا حديث خير من الحديث عن المعرفة». وفي المعرفة افتقار إلى الله واستغناء به، ومن عرفه سبحانه انقطع فلم تعد له علاقة، وذهبت عنه رغبة الأشياء. ومن عرفه سبحانه كان أكثر الناس تحيراً فيه، ويقول ذو النون «أعرف الناس بالله أشدهم تحيراً فيه ودهشة»، وتقول رابعة تناجي ربها: «ماذا تريد من هذه الحائرة المسكينة؟» وتقول «ليس للمحب وحببيه يئ، وإنما هو تعلّق عن شوق، ووصف عن ذوق، فمن ذاق عرف، ومن وصف اتصف. وكيف تصف شيئاً أنت في حضرته غائب، وبوجوده دائب، وبشهوده ذاهب، وبصحوك منه سكران، وبفراغك له ملآن، وبسرورك له ولهان، فالهيبة تخرس اللسان عن الإخبار، والحيرة توقف الجبان عن الإظهار، والغيرة تحجب الأبصار عن الأغيار، والدهشة تعقل العقول عن الإقرار، فما ثم إلا دهشة دائمة، وحيرة لازمة، وقلوب هائمة، وأسرار كاتمة، وأجساد من السقم غير سالمة، والمحبة

بدولتها الصارمة في القلوب حاكمة . وذلك هو حال رابعة ، إذن . فما أقل ما قالت ، وقليلها يغنى عن الكثير ، وهى فى المحبة والمعرفة الموجزة والرائعة ، والشبيه يهفو إلى الشبيه ، ورابعة تقول « الموافقة شرط فى الصحبة » ، وتحكى عن سلوكها فى الطريق فتقول : رأيته يقول لصاحبه فى الغار « لا تحزن إن الله معنا ، ما ظنك باثنين إن الله ثالثهما ؟ - فتقدمت إلى خلوة الغار بأقدام المبايعة » ، ومن يومها صارت لله ، وبالله ، وفى الله ، ومن الله ، أو كما تقول :

فإذا نظرتُ فلا أرى إلا له وإذا حضرتُ فلا أرى إلا معه

فإذا ذكروها بالدنيا وأن لا تنسى نصيبها فيها قالت . « لا تُذكرونى بشيء ليس بشيء » .

وتقول فى علمها إنه « العلم الروحى » ، وتقول « ثمرته أن تصرف وجهها عن المخلوق كيما توجهه إلى الله الخالق وحده » ، وتقول « مهمتى الآن أن أتأمل القدرة ، وأنا منذ عرفت الله صرفت وجهى عن كل مخلوق » ، وتصف العارف المحب لله بأنه « الأزوم الخفيف الزاد مثل النملة ، لا يأكل فى اليوم إلا ثمرة » . وطريقتها كما تصفها هى « الطريق السوى » منذ أن اكتشفته ، وما فعلته فيه أو قالت « هو ما كان عليها أن تفعله أو تقوله » ، وتقول « قيل لك طهر روحك ، لكنك دائب على تعمير جسدك ، ألا فلتكن لباطنك عليك حرمة ! » وتضرب المثل برجل « أشعل الروح فى نفسه فقال لذلك : إذا أكلت لقمة فاجلس واضرب جسدك ! » .

ورابعة فى الزهد مضرب المثل ، ومقامها فيه هو المقام الأرفع ، « فكانت لا تأكل بالأسبوع ، وتنسى الجوع ، وكانت خلاله لا تجلس ولا يفتر ذكرها لله ، تصوم وتصلى ، فإذا خفعت من الجوع وانهارت ساقها وسرى « التكبُّر فى أعضائها فلا تتناول سوى الماء » . ويحكى أن قطاً دخل فقلب كوز الماء وبقي كبدها ظمآن مشتعلًا من تأوه القلب كما يقول العطار ، ويجيئها الهاتف يقول : « لا تحزنى . إن شئت أن تكونى مولعة بالله فعليك أن تتخذى من ترك الدنيا صناعتك الدائمة » . ولقد فعلت ، فأحبت وأخلصت لما عرفت ، ومن لم يعرف لم يحب . والمحبة ثمرة المعرفة ، والمعرفة علّة المحبة وسببها ، وهى متقدمة على المحبة بالسبب ، والمحبة متقدمة عليها بالشرف ، وحينئذ يكون المحب هو نفس العارف ، والعارف هو عين المحب ، فتأكيد المعرفة يثمر المحبة ، وتأكيد المحبة يدفع إلى المزيد من المعرفة ، فتتجلى للمحب أوصاف المحبوب . وما دامت المحبة يدوم التجلى ، وما دام التجلى

تدوم المحبة ، وتستمر هذه الواردات على قلب المحب فيعرف فيحب ، ويحب فيعرف ، وتتحد فيه من هذا الشهود والتجلى محبة العارف ومعرفة المحب ، ويصار كل واحد مُؤَلِّدًا للآخر . وهذا هو حال رابعة ، حال المحب العارف ، والعارف المحب ، وكانت فيه « رائعة » كما وصفها متصوفة زمانها .

والمعرفة والمحبة أصل كل المقامات والأحوال ، وجميعها مندرجة تحتها ، فهي إما وسيلة إليها أو ثمرة من ثمراتها ، كالخوف والرجاء ، والإرادة والشوق ، والزهد والصبر ، ولرضا والتوكل . وكانت رابعة « يغلب عليها مرة الحب ، ومرة يغلب عليها الأنس ، ومرة يغلب عليها الخوف » ، وتتقلب بين الأحوال وترتقى في المقامات . وفي المحبة تكمن سيكولوجيتها ، وأنوثنها مفتاح محبتها ، والمحب لا يحب إلا بعد العلم بكمال ذات المحبوب ، ثم يتأكد هذا العلم عنده ويتوالى فيكون معرفة ، فتنبعث عن ذلك الإرادة ، ثم الشوق إلى جمال وكمال الذات الإلهية ، ثم يلزم عن المحب الصبر على شدة الطلب ، وينبعث له أثناء ذلك خوف الحجاب ، ورجاء القرب والوصال ، ثم يتحصل عن المحبة الرضا بجميع مراد المحبوب ، والزهد فيما سواه ، واعتقاد وحدانيته ، وانفراده بصفات الكمال ، وإسناد كل تدبير إليه ، بالتفويض له والتوكل عليه .

وأول مقامات المحبة عند رابعة هو الألفة التي توجبها المعرفة ، المعبر عنها بالإيمان المنتج للمحبة ، وكانت رابعة في إيمانها في القمة ، فلقد عرفت الله وأمنت به منذ كانت في الخامسة من عمرها وصحبته ثمانين سنة ، والألفة تتخلل منها شمائل المحبوب ، فتتكيف بها نفس المحب ، فتتحرك أعضاؤه عن إرادة المحبوب . تقول رابعة .

وتخللت مسلك الروح مني ولذا سُمي الخليل خليلاً
فإذا ما نطقتُ كنتُ حديثي وإذا ما سكنتُ كنتُ الغليلاً

وتقول :

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحثُ جسمي مَنْ أراد جلوسي
فالجسم مني المجلس مؤانس وحبيبُ قلبي في الفؤاد أنيسي

ولم يكن التخلل إلا للصفاء والخلوص عن كل عارض زائد ، فيكون انطباع المحب بشمائل المحبوب ، والأُنس معناه السرور بشهوده ، والرضا بقربه ، والأُنس يقتضى الطمأنينة ، وفي الرضا يكون إسقاط الجزع ، ومن يصير في الله ولله لا يجزع ، ولا يقنط ، ولا يشكو . وقيل معنى الرضا غيبة المحب عن الإحساس بالألم ، والصبر في تحمل المشقة . ولقد قيل في رابعة إنها كانت تصلى فسجدت على البواري ، فدخلت قطعة قصب في عينها فلم تشعر بها إلى أن انصرفت من الصلاة ، وقيل أيضاً إن رأسها ضرب ركن الجدار فأدماه فلم تلتفت لذلك ، فقيل لها أما تحسين الألم ، فقالت : « شغلي بموافقة مراده فيما جرى شغلني عن الإحساس بما ترويه » . وقالوا إن مالك بن دينار والحسن البصري وشقيقاً البلخي اجتمعوا عندها فتحدثوا في الإخلاص ، فقال الحسن البصري : ليس بصادق في دعواه من لم يصبر على ضرب مولاه . فقالت رابعة : هذا غرور . وقال البلخي : ليس بصادق في دعواه من لم يشكر على ضرب مولاه . فقالت رابعة : هناك ما هو خير من هذا . فقال ابن دينار : ليس بصادق في دعواه من لم يتلذذ بضرب مولاه . فصاحت رابعة : هناك ما هو أفضل من هذا . ليس بصادق في دعواه من لم ينس الضرب في مشاهدة مولاه ! مثل نسوة مصر اللاتي نسين آلام أيديهن لما رأين وجه يوسف . . ولقد سئل مرة السري السقطي : هل يجد المحب طعم الألم ؟ فقال لا ، وقيل : وإن ضُرب بالسيف ؟ قال : وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة على ضربة ! . وكذلك حُكي أن بشر بن الحارث قال : رأيت شخصاً ببغداد قد ضُرب ألف سوط ولم يتكلم ، فلما حمل إلى السجن تبعته فسألته عن سكوته فقال : معشوقى الذى كنت أُضرب من أجله كان أمامى ينظر إلى . قلت له : فلو نظرت إلى المعشوق الأكبر ؟ فزَعق الرجل زعقة وخَرَّ ميتاً ! . وسُئمت حيونة رقيقة رابعة على الطريق تقول : من أحبَّ الله أنس ، ومن أنس طرب ، ومن طرب اشتاق ، ومن اشتاق وَلِه ، ومن وله خرم ، ومن خرم وصل ، ومن وصل اتصل ، ومن اتصل عرف ، ومن عرف قُرب ، ومن قرب لم يرقد وتسورت عليه بوارق الأحزان ! . وتقول رابعة .

من ذاق حُبَّكَ لا يُسرى متبسماً من طول حزن في الحشا إشعال

والرضا من أجل مقامات رابعة ، ومن لا يصل في معارجه إلى الرضا فما ذاق من لذة المحبة ، ومن يبلغ إليه ويرتقى عنه إلى استعذاب الألم فهو المحقق . وكانت رابعة المحققة ، فكم اشتاقت وتعذبت . وتقول : كم طالت بى الليالى والأيام بالشوق إلى لقاء الله ! .

وتخشى أن يداخلها الشعور بالفرح فتقول : لا يكون حزنى أن أكون محزونة ، بل حزنى أنى ما كنت محزونة » . وترضى أن تكون محزونة طالما أن حزنها له ، وتكذب حزن سفيان الثورى لأنه يطلب الدنيا ومسرور بها ، وتستغفر ربها أن لا تكون مخلصه فى استغفارها ، وتتوب عن توبتها مخافة عدم الإخلاص . وخوفها من الله يقبضها ، ورجاؤها فيه يبسطها ، وتخاف أن يرد عليها عملها ، وتبكي إذا ذُكرت بالنار ، وتنتفض وتصيها رعدة إذا ذُكرت بالموت ، وتقول : يارب ! أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار ؟ ! وتقول أيضاً : إلهى ! أتحرق بالنار قلباً يحبك ؟ ! - ومن أجل ذلك تلتزم المراقبة ، وتديم الإطراق ، وتستجمع الهم ، وتفكر بشدة فى الله ، وتعرض عن سواه ، ولا تلتفت إلى الخلق ، ولا تصغى لأحاديثهم ، ولا تحفل بهم ، ولا تعتذر إليهم . وقد رأينا كيف كذبت الثورى ، وأنبت ابن زيد ، وعنف الهاشمى . وتستغنى بالله عن الناس وتنأجيه ، وأعذب ما فى الخلوة مناجاة الله ، وأعذب أقوال رابعة فى المناجاة ، فهو يتمثل لها وتسمع عنه ، وتصغى بقلبها لما يقول ، ولقد سمعته فى أسرها يقول : « لا تحزنى ! ففى يوم الحساب يتطلع المقربون فى السماء إليك ويحسدونك على ما ستكونين فيه » ، وسمعته عند مناجاتها له تقول أتحرق قلباً يحبك ! فهتف بها الهاتف . ما كنا نفعل هكذا فلا تظنى بنا ظن السوء » . وكانت فى طريقها إلى الكعبة فقالت تنادى ربها وقد أتعبها السير فى الصحراء : إلهى ! إن قلبى مضطرب وسط هذه الدهشة ، وأنا لبنة (يعنى ضعيفة) ، والكعبة حجر ، وما أريده هو أن أشاهد وجهك ! ، يعنى أنها لا تريد الكعبة للكعبة وإنما للمشاهدة الإلهية ، فكأنها لتتمنى أن تتم المشاهدة فى مكانها بدلاً من الكعبة ، وقد ناداها الصوت من عند الله يقول : يا رابعة ! أتعلمين وحدك ما يقتضى دم الدنيا كلها ؟ إن موسى لما أراد أن يشاهد وجهها لم نلق إلا ذرة من نورنا على الجبل فخر صعباً » . ثم سمعت الصوت مرة أخرى حين بلغت الكعبة : ماذا تريدين يا رابعة ؟ إذا كنت تريديننى فسأتجلى لك بكل جلالى فتدوبين توأ كما يذوب الماء » . وأجابت : إلهى ! ليس لى من الطاقة ما يُبلغنى هذه المرتبة ، ولست أطلب إلا ذرة من الفقر الروحى » . فقال الصوت . أى رابعة ! إن الفقر عاطفة خوف من غضبنا جعلناها فى طريق الأولياء ، ولكن إذا لم يبق عليهم ليبلغوا إلينا إلا قيد شعرة فقد يحدث أن يفسد أمرهم فى الحال ويُنحوا عن الغاية ، أما أنت فلا تزالين فى داخل السبعين حجاباً (أو مقاما) ، فطالما لم تخرجى من تحتها وتضعى قدمك فى طريقنا فإنك لن تقدرى على الحديث عن الفقراء » . وقال الصوت : يا رابعة ! انظرى إلى الأعلى » . فلما نظرت إلى الأعلى رأيت بحراً

من الدم معلقاً في الهواء . وصاح الصوت : يا رابعة ! إن هذا البحر من دموع الدم الساقطة من عيون أولئك الذين أحبونا وسعوا إلينا ، ومنذ المقام الأول قضى عليهم إلى حد أنه لم يبق من أشخاصهم أثر في هذا العالم أو في الآخرة » . فقالت رابعة : إلهي ! دعني أرى مثلاً على درجة السعادة التي يصل إليها هؤلاء العشاق » . فما أتمت العبارة إلا وأتاها الحيض ولم تعد طاهرة ، فنادها الصوت : إن المرتبة الأولى التي يبلغها العشاق يمثلها تماماً إنسان (يعني رابعة) تقلّب على أضلاعه سبع سنوات كيما يزور جداراً من اللبن (يعني الكعبة) ، فلما اقترب من هذا الجدار أغلق الطريق على نفسه نتيجة عائق نشأ عن شخصه » . (يعني أنها حاضت ولم تعد طاهرة وليس لها أن تكمل الحج حتى تظهر) . فلما يؤست رابعة قالت : إلهي ! لا تدعني كى أبقى في بيتي ، ولا تريد أن تقبلني في بيتك ! فيما أن تدعني أقيم هادئة في بيتي بالبصرة ، أو اسمح لي أن أدخل الكعبة وهي منزلك ! ولقد فتشت عنك قبل أن أحنى رأسى أمام الكعبة ، دعني إذن أذهب فلست جديرة بدخول بيتك ! » . ثم عادت إلى البصرة وأقامت في خلوتها وانقطعت للعبادة .

وهذه المناجيات لا يؤمن بها إلا من ذاق لذتها وعلم اطلاع الله على سرّ قلبه وشهوده لباطن أمره ، والمحِب لله يتمثل له سبحانه في كل شيء يشاهده ويسمعه ويوحى إليه ، وكأنه الرقيب يرعى خواطره وناظره ولسانه فإذا حدّث فعنه ، وإذا استمع فمعه ، وإن لاحظ فإياه ، وليس من نصيب لغير الله ظاهراً وباطناً .

★★★

وكانت رابعة تحترز من هذه المناجيات وتقول لنفسها : يجب على المرء ألا يغتر بحيل الشيطان ! » . وتكاد تكون هذه النجوى النفسية هي خاصية رابعة ، حتى أنها عندما تحكى حكاية اللص معها تسمع المنادى يهتف باللص : « يالصف ! لا جدوى من محاولتك ، فمنذ عهد طويل ورابعة قد وكلت إلينا السهر عليها ، ولا نسمح بدخول حتى إبليس في خلوتها ! وأنت أيها اللص تريد أن تسرق خمارها ؟ ألا فلتعلم أيها الشقي أنه حينما يكون أحد أحبائنا غارقاً في النوم فهناك صديق يسهر على أمره ! » .

والمناجاة ربما تكون من الله تعالى على الحقيقة فهي من كرامات الأولياء ، وربما تكون رؤى صادقة ، وهي جزء من النبوة كما يقول الحديث ، وربما تكون من أحاديث النفس حينما تستشرف المعالي ، وترتقى في الإيمان ، وتستبطن ذاتها فتشف دخالها وتكون لها من ذاتها العليا رفيقاً يهديها وتستضيء بنوره ، فتسمعه من داخلها ومما حولها وقد

تخارج منها ، وهى كرامة أخرى كالكرامات . وقد حكّت رابعة عن نفسها أنها صامت سبع ليال وسبعة أيام متوالية دون أن تتناول شيئاً ولا تنام الليل ، منقطعة إلى الصلاة ، وفي الليلة الثامنة قالت لها نفسها الأمانة بالسوء وهى تنوح : يا رابعة ! إلى متى تعذّبينى هكذا دون هواده ؟ وخلال هذا الحديث النفسى سمعت طرّقاً على الباب ، وفتحت فرأت من يعطيها طعاماً ، أخذته ونَحّته لتشعل المصباح ، فجاء قط أكله ، ورأت ما حدث للطعام فسعت إلى الماء فأنطقاً المصباح ، وانكسرت جرّة الماء ، فزفرت وصرخت : إلهى ! ماذا أردت بهذه المسكينة ! » . فسمعت صوتاً يقول : يا رابعة ! لو شئت أعطيتك الدنيا بأسرها ، ولكن يجب من أجل هذا أن ننزع الحب الذي في قلبك لنا ، لأن حبنا وحب الدنيا لا يجتمعان معاً . فقالت رابعة معلقة . لَمّا سمعت أنى أخاطب على هذا النحو نزعتُ من قلبى كل تعلق بأمور الدنيا ، وصرفت نظرى عن كل الدنيويات . أى أنها كانت تصدق رؤاها وتقول : وهأنذا قد أمضيت ثلاثين عاماً لم أصل فيها دون أن أقول هذه الصلاة لعلها تكون آخر صلواتى ! ولم أمل من تكرار هذا القول . إلهى أغرقتنى في حبك حتى لا يشغلنى شىء عنك ! » .

وتصديق رابعة لرؤاها نابع من إخلاصها ، ولم يكن ذلك من هذيان الجوع كما يقول ابن الجوزى ، وهو يذكر لرابعة أنها كانت تحذر الأشياء التى ظاهرها الكرامة وتخاف أن تكون من تلبّيس إبليس ، ويحكى عنها أنها لما سُئلت : لما لا تأذنين للناس يدخلون عليك ؟ - قالت : وما أرجو من الناس ؟ إن أتونى حكوا عنى ما لم أفعل ! » . وقالت أيضاً : يبلغنى أنهم يقولون إنى أجد الدراهم تحت مُصلاى ، ويُطْبَخ لى القدر بدون نار ، ولو رأيتُ مثل هذا لفزعت منه . وقيل لها : إن الناس يكثرُونَ فيك القول ، ويقولون إن رابعة تصيب في منزلها الطعام والشراب ، فهل تجدين شيئاً فيه ؟ قالت : لو وجدت في منزلى شيئاً ما مسسته ولا وضعت يدي عليه . وحكّت رابعة عن نفسها أنها أصبحت صائمة في يوم بارد ، قالت : فنازعتنى نفسى إلى شىء من الطعام الساخن أفطر عليه ، وكان عندى شحم ، فقلت : لو كان عندى بصل أو كراث عالجته ، فإذا عصفور قد جاء فسقط على المثقب في منقاره بصلة ، فلما رأيتُه أضربت عما أردتُ ، وخفت أن يكون من الشيطان . وذلك إخلاص رابعة . لم يجعلها تصدق ما ترى في مواقف ، وصدّقت ما تسمع في مواقف أخرى ، وعدم التصديق فى الأولى أنها يمكن أن تكون خداع النفس أو ألعيب الشيطان ، لأنها منافية للعقل أو للشرع ، وتصديقها فى الثانية أنها عكس ذلك ، وتؤكد خصالها الطيبة ونواياها الحسنة وطموحاتها الدينية وأشواقها الإلهية .



الفصل الحادى عشر

النقد الموجه لفكر رابعة ومسلكتها

★★★

توجه النقد لرابعة باعتبارها صوفية ، ثم لأغلاط نُسبت إليها ، إما لأنها ارتكبتها فعلاً وإما لأن مؤرخيها قد وصفوها بصفات ورسوموا لها صورة استوجبت من العلماء مساءلتها أو مساءلتهم . وكما يقول ابن الجوزى « وما علينا من القائل والفاعل ، وإنما نؤدى بذلك أمانة العلم ، وما يزال العلماء يبين كل واحد منهم غلط صاحبه ، قصداً لبيان الحق لا لإظهار عيب الغلط ، ولا اعتبار بقول جاهل قد يقول . كيف يُردُّ على فلان الزاهد المتبرك به ، غير أن الإنقياد إنما يكون إلى ما جاءت به الشريعة لا إلى الأشخاص ، وقد يكون الولي من أهل الجنة ولكن له غلطات فلا تمنع منزلته بيان الله .

★★★

وقد غالى مؤرخو رابعة فيما روه عنها من حكايات مع كبار صوفية عصرها ، فأظهروهم بأقل من حقيقة ما لهم من منزلة عند المسلمين بعامّة والصوفية بخاصة . ومن هؤلاء من لم تُعرف له هنة ، وليس في حياته شائبة ، ويُذكر دائماً بالخير ، ولم تكن له شطحات ، كالحسن البصرى ، وإبراهيم بن أدهم ، وعبد الواحد بن زيد ، ومالك بن دينار ، ورياح القيسى ، ومما يروى في ذلك قول رابعة لعبد الواحد بن زيد : « يا شهوانى ! أطلب شهوانية مثلك ! » ، وقولها لسفيان الثورى « لا تكذب ! أنت متلطخ بالدنيا ، ولو كنت حزيناً ما هنّاك عيش ! إنما أنت أيام معدودة ، فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضك ، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل ! » . وقولها هذا الأخير أخذته من الحسن البصرى وهو ليس لها أصلاً ، فقد قيل عن صالح المرى أن الحسن قال : يا ابن آدم ! إنما أنت أياماً ، كلما ذهب يوم ذهب بعضك » . ولقد شابته الحسن في خطابها إلى محمد بن سليمان الهاشمى أمير البصرة ، فقد كتب الحسن البصرى إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز : « أن رأس ما هو مُصلِحُك ومُصلِحُ به على يدك : الزهد فى الدنيا ... » وكتبت رابعة إلى

الهاشمي « أن الزهد في الدنيا راحة البدن ، والرغبة فيها تورث الهم والحزن » . وفي القصة التي يروونها عنها مع اللص ، قالوا أنه لما لَدَّتْ له الصلاة ما برح يصل إلى آخر الليل ، فلما كان وقت السحر دخلت عليه رابعة فوجدته ساجداً يقول في سجوده معاتباً نفسه :

إذا ما قال لي ربي أما استحييت تعصيني
وتخفى الـذنب من خلقي وبالعصيان تأتييني
فما قولي لـه لما يعاتبني ويقصيني ؟ !

وهذه الأبيات نفسها يذكرها ابن الجوزي منسوبة إلى أحمد بن حنبل ، فقد روى في معرض الغناء عند الصوفية أن لهم قصائد منها هذه القصيدة ، وكان إنشادها يتسبب في بكائهم .

★★★

ويبدو أن ما كان يؤخذ على رابعة هو أنها كانت تقول الشعر في المحبة ، ولها سابق خبرة في الإنشاد ، فحتى لو كان غناؤها به للتأثير بالتحبيب في الدين وليس بالترهيب ، فإن القول بذلك كمن يقول إنني أنظر إلى هذه المرأة المستحسنة لأتفكر في صنعة الله . ثم إن هذا الشعر الذي يحكى عن العشق ويقع الهيمان به يقل فيه وجود شيء يشاربه إلى الخالق ، وقد جلَّ الخالق تبارك وتعالى أن يقال في حقه أنه يُعشَق أو يُعشَق ، وإنما نصيبنا من معرفته الهيبة والتعظيم فقط !

★★★

ويبدو أن رابعة لما أعلنت توبتها ، كما يقول النقاد ، إنما فعلت عزوفاً عن الغناء أو الضرب على الدف أو الطبل أو العزف على الناي كما روى ، إذ اعتبرت ذلك من البدع التي لا تجوز فهجرتها ، ولو كانت من المغيرة وهم الذين يغيرون بذكر الله بالدعاء والتضرع ، فإن التغيير أيضاً مكروه . ويروى الزجاج في تفسير تسميتهم بالمغيرة ، أنه لتزهيدهم الناس في الفاني في الدنيا وترغيبهم في الآخرة لكن الرسول كان يقول : عليكم بالسواد الأعظم ، فإنه من شدَّ في النار ، وقال : من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية ، ولعله لهذا تابت رابعة ! .

وقيل إن الحسن البصري كان يكره الدفوف ، ويقول إنها ليست من سنة المرسلين ، وكان أحمد بن حنبل يكره الطبل ، ويذكر أبو نعيم أن المرخص به هو الترتيم ، وكان الصوفية الكبار يترنمون ، وقد روى عن السلمي أنه قال إن سعد بن عبد الله الدمشقي كانت له جارية قوّاله للفقراء ، أى للصوفية ، وكانت تقول لهم القصائد . وذكر أبو طالب المكي أن مروان القاضي كانت له جوار يُسمعون التلحين قد أعدهن للصوفية . وكانت لِعطاء جاريتان تلحنان ، وكان إخوانه يسمعون التلحين منهما ... فلعل رابعة كما ذكروا عنها من المطربات والعازقات فعلاً مع كونها زاهدة ؟ أقول لعلها كانت كذلك . ويذكر ابن الجوزي أنه لا بأس من سماع المنشدين على أن يؤخذ ما ينشدونه على مقصوده فيُنتفع به ، ولا ينكر أن يسمع الإنسان بيتاً من الشعر أو حكمة فيأخذها إشارة فيزعجه معناها لا أن يطرب من الصوت المطرب ... ومع ذلك فإن رابعة لم يُعرف منها شعر إلا في المحبة ، وتُدريج ضمن عشاق الصوفية ، ويقول عنهم ابن الجوزي إن ما يدّعيه هؤلاء من محبة الله هو وهم توهموه وتركبت منه صورة أنس ، فإذا غابت من العقل ألققهم الشوق إليها ، فنالهم الوجد وحرك الهيمان الهواجس الرديئة والعوارض التي يجب بحكم الشرع محوها من القلوب كما يجب كسر الأصنام ، ولقد رأوا من ذلك قولها :

كأسى وخمرى والنديم ثلاثة	وأنا المشوقة في المحبة : رابعة
كأس المسرة والتعيم يديرها	ساقى المدام على المدى متتابعة
فإذا نظرت فلا أرى إلا له	وإذا حضرت فلا أرى إلا معه
يا عاذلى إنى أحب جماله	تا الله ما أذنى لعذلك سامعه
كم بت من خرقى وفرط تعلقى	أجرى عيوناً من عيوني الدامعة
لا عبرتى تُرقأ ولا وصلى له	يبقى ولا عينى القريحة هاجعه

★★★

ومثل ذلك الشعر ما كنا نتأوله لولا أنهم ربطوا بينه وبين نثرها التي تحكى فيه صراحة

عن حبها لله وعشقها له ، كقولها عندما سألوها : أحببن الله ؟ أجابت . نعم أحبه حقاً ! وما عرفت سواه . » . ومع ذلك ففي شعرها كثير من التثريب مثل قولها :

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليلس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسى

فقالوا : إباحية حلولية متزندقة ! ونسبوا إليها أنها القائلة :

وارحمتا للعاشقين ! قلوبهم في تيه ميدان المحبة هائمه

فقالوا الله تعالى يقول : ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ وليس العشق بأكثر من المحبة ، وقال القاضى أبو يعلى : وقد ذهبت الحلولية إلى أن الله عز وجل يُعشق .^١

وقيل غلظت رابعة إذ تلتقى بالرجال وتسمع لهم ويسمعون لها في المحبة ، وقد روى أن الحسن البصرى ورياحاً القيسى كانا كثيراً ما يبيتان عندها للصلاة وللحديث في المعرفة . وذكر الثورى أنه ما كان يرتاح عند أحد مثل راحته عندها ، وذلك لا يجوز ، شرعاً على أنه يروى عنها أيضاً أنها التقت ذا النون في تيه إسرائيل فقالت « ما للرجال ومخاطبة النساء » ... أقول وكان الأحرى بها أن يكون ذلك دأبها مع الآخرين .

وغلظت رابعة بإعراضها عن العلم شغلاً بالزهد ، فقد استبدلت الذى هو أدنى بالذى هو خير ، وقد عابت على سفيان الثورى أنه كان يشتغل بالحديث واعتبرت ذلك منه ميلاً إلى الدنيا ، فلما تركت العلم وانفردت بالرياضات على مقتضى الصوفية لم يكن بها صبر عن الكلام في السدين فتكلمت بواقعاتها فغلظت أغاليط قبيحة كما قيل ، فلما سألوها هل تحبين الرسول ﷺ قالت . إن حبى لله شغلنى عن حب غيره ، فلم يعد ثمة مكان لمحبة غيره . « وسألوها هل تكرهين الشيطان ؟ فقالت . إن حبى لله منعى من الاشتغال بكراهية الشيطان » . وسألوها أترين من تعبدينه ؟ فأجابت لو كنت لا أراه لما عبدته . « وتلك

أغلاظ إنفردت بها كما قيل ، وسأقت فيها الشرع على مقتضى علمها بالنظر إلى ما لاحظت به أعمالها ، واتفق لها من اللطف بما يشبه الكرامات .

★★★

وقد كانت تقول إنها ترى الجان والخور فانبسطن في دعوها . وتناولت على الله عز وجل فسألته : أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار ؟ . وقالت : أتحرق بالنار قلباً يحبك ؟ . وأمسكت في إحدى يديها ناراً وفي الأخرى ماء وادعت أنها ذاهبة إلى السماء ، « حتى ألقى بالنار في الجنة وأصب الماء في الجحيم ، فلا تبقى الواحدة ولا الأخرى » . وذلك منها تحقير لما عظم الله من أمر الجنة والنار . وكانت تقول : ما عبدتك رغبة في جنتك ، وليس هذا ما قطعت عمرى في السلوك إليه ! . وقالت : إذا كنت أعبدك خوف النار فأحرقنى بنارها ، أو طمعاً في الجنة فحرّمها عليّ ! . وقالت : عُرضت على الجنة فملت بقلبي إليها فأحسب أن مولاي غار عليّ فعاتبني فله العُتْبَى . فقيل كيف لها أن تصب الماء على نار وقودها الناس والحجارة ، وقد قال فيها الرسول ﷺ : « إن تارككم هذه جزء من سبعين جزءاً من حرّ جهنم » . وقد روى أنه قال : « يا جبرائيل مالى أرى ميكائيل لا يضحك ؟ فقال : ما ضحك جبرائيل منذ خلقت النار ، وما جفت لى عين منذ خلقت جهنم ، مخافة أن أعصى الله فيجعلنى فيها ! » . فإذا كانت هذه حال الملائكة وهم الأطهار من الدنس ، وهذا انزعاجهم من النار - فكيف تهون على رابعة فتقول إنها ستطفئها بالماء ، فتظهر الجهل بقدر هذه النار ؟ !

★★★

وقالت رابعة : إلهى ! كل ما قدّرت لى من خير في هذه الدنيا أعطه لأعدائك . وكل ما قدّرت لى في الجنة امنحه لأصدقائك ، وتلك دعوة باطلة ، لأن الله قد توعد الفجار بالعذاب ، وشرع العذاب للمخالفين . وقولها « ما قدّرت لى في الجنة » قطع لنفسها بأنها من أهل الجنة وذلك كفر ويروى أنها قالت عن قول الله « إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون » ، « مساكين أهل الجنة ! في شغل هم بأزواجهم ! » . وقد عاب ابن عربى عليها مقالته وقال إنها ما عرفت ! إنها لمسكينة ! فإنما شغلهم بالله ! . وردّ ذلك منها إلى « مكر الله الخفى بالعارفين » .

★★★

ومن شطحات قولها بالكعبة « لا أريد الكعبة بل رب الكعبة ، أما الكعبة فماذا أفعل بها ؟ » ولم تشأ أن تنظر إليها وقالت فيها : الصنم المعبود في الأرض ! والله ما ولجه الله ولا خلا منه ، ، وذلك مخالفٌ لما أمر به الله عز وجل من الحج لبيته وتوقيره ، فقال : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ ، وقال : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ ، وقال : ﴿ ولا فسوق ولا جدال في الحج ﴾ .

★★★

وقيل غلظت رابعة حين خطبت وامتنعت عن الزواج بدعوى أن الزواج يميل إلى الدنيا ، ولا خيار لها في نفسها فإنها لله بها ، وقد لعن الرسول ﷺ المترجلات من النساء المتشبهات بالرجال ، والمتبتلات من النساء اللاتي يقلن لا نتزوج ، وليست العزوبة من أمر الإسلام في شيء ، وابن عباس يقول : إن خير هذه الأمة كان أكثرها نساء . ولو ترك الناس الزواج ما كان لهم أولاد ، فلم يغزوا ويجاهدوا ويعملوا ، وكان النبي ﷺ يختار الزواج ويحث عليه ونهى عن التبتل . وإذا كان الزواج أليق بالرجل فهو ألزم للمرأة ، وكانت رابعة تقول : إن أنسها بالله ، مع أن الله هو الذي يقول : ﴿ وجعل لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ﴾ ، فهل إذا قبلت رابعة الزواج امتثالاً لأمر الله والتزاماً بسنته ، أتراها تكون قد خرجت عن الأنس بالله وعن السنة!

★★★

وقيل غالت رابعة إذ اعتزلت الدنيا بدعوى الاشتغال بالله ، فسكنت كوخاً ، وافترشت حصيراً ، وتجردت من كل مال ، وجلست على بساط الفقر ، مع أن الله لم يحرم زينته على الناس ، وجعل المال قواماً لها ، وكان الرسول يدعو لأصحابه بأن يكثر الله أموالهم وأولادهم ويبارك فيهم ، ولما سأل كعب بن مالك . يا رسول الله - أمن توبتي أن أنخلع من مالى صدقةً إلى الله عز وجل وإلى رسوله ﷺ ؟ قال « أمسك بعض مالك فهو خير لك » ، وذلك على خلاف ما اعتقدته رابعة من أن المال حجاب وعقوبة .

★★★

وكانت رابعة لا تجد ما تأكل ، فتظل بالأسبوع على جوعها ، فتضعف حتى لتتداعى ساقاها ، ووصفت بأنها كالشَّنَّ . وهذا خطأ كما قيل ، لأنها إذا أكلت وتقوّت على القيام كان أكلها عبادة ، لأنه يعين على العبادة ، وليس من العقل ولا من الدين ترك ما تحتاج إليه النفس من المطعم والمشرب فشددت فيما ابتدعت .

ومن أغلاطها أنها قالت لرياح القيسى لما رآته يُقبَل صبيّاً من أهله : ما كنت أحسب أن في قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره ؟ وكأن طلب الأولاد يشغل عن الله ، وهو سبحانه الذى يقول : ﴿ وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم ﴾ ، ورسوله ﷺ يقول : « تناكحوا تناسلوا » ، وقد طلب الأنبياء الأولاد ، فقال تعالى حكاية عنهم : ﴿ ربِّ هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ﴾ ، و ﴿ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ﴾ .

وذلك بعض ما نذكره من أغلاط قيل إن رابعة وقعت فيها وأخذت عليها ، ووجه لها بسببها النقد ، ولم نر أن نردّ عليها فقد فعلنا ذلك فيما سبق من أبواب ، واللّه نسأل أن يغفر لها ، ولن عاب عليها ، وأن يغفر لنا فيما أوردناه أو قصّرنا فيه أو عجزنا عن بيانه .

الفصل الثانى عشر

رجال ونساء حول رابعة

★★★

يلفت الانتباه فى حياة رابعة العدوية هذا الجمع الكبير من الصوفية من الرجال والنساء من حولها ، على عكس ما نجد عند تريزا الأفيلية التى يزعم الدكتور بدوى أنها شبيهة رابعة فى المسيحية . وبحسب المتاح من المراجع فإن أكثر ما يروى عنها من حكايات مدارها الحسن البصرى ، ثم خادمتها عبدة بنت أبى شوال ، ثم سفيان الثورى ، فمالك بن دينار ، فرياح القيسى ، فعبد الواحد بن زيد ، فحيونة ، فشقيق البلخى ، فإبراهيم بن أدهم ، ثم ذو النون المصرى ، وهناك أكثر من ثلاثين شخصية فى حياتها كلهم من الرجال إلا امرأتين .

★★★

١ - الحسن البصرى

★★★

أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن ، الفقيه الزاهد ، كان عالماً عالياً رفيعاً ، ثقةً مأموناً عابداً ناسكاً فصيحاً وسيماً ، وله مواعظ اشتهرت عنه . وأبوه كان فارسياً وسبى فى فتح العراق . وقيل إن أمه كانت جارية لأم سلمة زوج النبى ﷺ فبعثت أم سلمة جاريتها فى حاجة لها ، فبكى الحسن وهو طفل ، وكان بكائه شديداً فرق له قلب أم سلمة رضى الله عنها ، فأخذته ووضعت فى حجرها ليسكت ، وألقت ثديها ، فقيل إنه درّ عليه فشرب منه . وقيل إن ما بلغه الحسن من الحكمة إنما كان من اللبن الذى شربه من أم سلمة زوج رسول الله ﷺ ، وما يزال يعى الحكمة حتى نطق بها . وكان إذا ذكر عند أبى محمد بن على بن الحسين يقول . ذلك الذى يشبه كلامه كلام الأنبياء . وقيل فى أوصافه النفسية : إنه أشبه الناس سريرةً بعلانية ، وأشبه قولاً بفعل وإن قعد على أمر قام به ، وإن قام على أمر قعد عليه ، وإن أمر بأمر أعمل الناس به ، وإن نهى عن شئ كان أترك الناس له .

وقال عنه أبو طالب المكي : إنه أول من أنهج علم التصوف ، وفَتَّق الألسنة به ، ونطق بمعانيه ، وأظهر أنواره ، وكان يتكلم فيه بكلام لم يسمعه من أحد من إخوانه .

وقيل إن الزهد انتهى إلى ثمانية من التابعين ، فمنهم الحسن بن أبي الحسن ، « فما رأينا أحداً من الناس أطول حزناً منه ، وما كنا نراه إلا أنه حديث عهد بمصيبة » .

ومن أقواله

« والله ما من الناس أدرك القرن الأول وأصبح بين ظهرانكم إلا أصبح مغموماً وأمسى مغموماً ، ولقد أدركت سبعين بديراً ، أكثر لباسهم الصوف ، ولو رأيتموهم قلتهم مجانين ، ولو رأوا خياركم لقالوا ما لهؤلاء من خلاق ، ولو رأوا شراركم لقالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب . ولقد رأيت أقواماً كانت الدنيا أهون على أحدهم من التراب تحت قدميه ، ولقد رأيت أقواماً يسمى أحدهم وما يجد عنده إلا قوتاً فيقول لا أجعل هذا كله في بطني ، لأجعلن بعضه لله عز وجل ، فيتصدق ببعضه وإن كان هو أحوج ممن يتصدق عليه . وأدركت أقواماً ما طوى لأحدهم في بيته ثوب قط ، ولا أمر في أهله بصنعة طعام قط ، وما جعل بينه وبين الأرض شيئاً قط » .

وكان يتمثل بهذين البيتين ، أحدهما في أول النهار ، والآخر في آخر النهار :

يسر الفتى ما كان قدّم من تقى إذا عرف الداء الذى هو قاتله
وما السدنيا بباقية لحي ولا حى على السدنيا بباق

ولما حضره الموت دخل عليه رجال من أصحابه ، وطلبوا أن يزودهم بكلمات تنفعهم ، فقال :

إنى مزودكم بثلاث كلمات . مانهيتم عنه من أمر فكونوا من أترك الناس له ، وما أمرتم به من معروف فكونوا من أعمل الناس به ، واعلموا أن خطاكم خطوتان ، خطوة لكم وخُطوة عليكم ، فانظروا أين تغدون وأين تروحون » .

وتوفي رحمة الله سنة ١١٠ هـ ، وكانت رابعة في نحو الخامسة عشر أو العشرين ، وربما تكون قد عرفته في مجالسه ، وتاريخ ميلاد رابعة ووفاتها من الأمور المختلف عليها ، فمن قائل أنها توفيت سنة ١٣٥ هـ ، ومن قائل أن وفاتها سنة ١٨٠ أو ١٨٥ هـ . وقد

رفض البعض حكاياتها مع الحسن البصرى لعدم إمكان إدراكها له ، وزكى البعض هذه الحكايات . وقيل إن من أورد لها حكايات مع البصرى إنما كان يقصد الجمع بين هاتين الشخصيتين الكبيرتين في تاريخ التصوف ، ولتمجيد رابعة على حساب الحسن ، حيث أظهرتها هذه الحكايات بمنزلة أعلى من منزلة الحسن .

ويذكر الدكتور بدوى أن نظرية رابعة في الزواج تتأيد بنظريات رجال عصرها فيه ، وعلى رأسهم الحسن البصرى ، رائد حركة الزهادة في ذلك العهد ، ولم يكن يرى الزواج بالنسبة إلى الزاهد بل إلى العبد الصالح ، وقال « إذا أراد الله بعبد خيراً في الدنيا لم يشغله بأهل ولا ولد » . وفي هذا ما يدل على أن نزعة تقرير العزوبة كانت بمثابة الفرض على من يريد أن ينقطع لله ويبلغ منزلة الصديقين . غير أننا وجدنا الأصبهاني صاحب حلية الأولياء قد ذكر في تأريخه للحسن البصرى أن ابنه جاءه وهو في مجلسه يطلب إليه أن يصلح سهمه الذى انكسر ، ويبدو أن هذا الابن كان اسمه سعيد ، وأنه لذلك كان يكنى أبا سعيد ، فهل كان الحسن يدعو إلى ما لا يطيقه على نفسه في حياته ، أم أن هذه الروايات عنه مختلقة ، خاصة أن الحسن كان يقول على وجه المقارنة أنه أدرك أقواماً كانوا أمر الناس بالمعروف ، وأخذهم به ، وأنهى الناس عن المنكر وأتركهم له . وأنه قد صار إلى أقوام أمر الناس بالمعروف وأبعدهم منه ، وأنهى الناس عن المنكر وأوقعهم فيه ، ويتساءل . كيف الحياة مع هؤلاء ؟ ولربما لذلك يتناقض قوله الأول مع قوله الثانى . ويذكر الإمام أحمد بن حنبل أن العزوبة ليست من أمر الإسلام في شيء ، وأن النبى ﷺ تزوج أربع عشرة امرأة ، ومات عن تسع ، وكان يصبح وما عندهن شيء ، وكان يختار النكاح ويحث عليه وينهى عن التبتل ، فمن رغب عن فعل النبى ﷺ فهو على غير حق ، والنبى ﷺ قال « حُبب إلى النساء » ، وقال « دينار أنفقته في سبيل الله ، ودينار أنفقته في رقبة ، ودينار أنفقته في الصدقة ، ودينار أنفقته على عيالك ، أفضلها الدينار الذى أنفقته على عيالك » ، وقد روى عن الحسن مع رابعة أنه دخل عليها وجماعة من الزهاد فعرضوا عليها الزواج ممن تختار منهم ، فلما استفسرت عن أعلمهم قالوا لها الحسن البصرى ، فطلبت إليه أن يجيبها على أربع مسائل فتكون له أهل ، فقال لها سلى فأنا مجيبك إن وفقنى الله ، ومعنى الحكاية أن الحسن كان من دعاة الزواج ، وأنه قد خطب رابعة فيمن تقدم لخطبتها ، على عكس ما يذهب إليه الدكتور بدوى .

★★★

٢ - عبدة بنت أبى شوال

كانت عبدة تخدم رابعة ، وقيل إنها كانت من خير إماء الله . ومعظم ما وصلنا عن حياة رابعة الخاصة وصلنا عن طريقها ، وقد تناولتها في صلاتها ، ونُسكها ، وتهجدها ، وقيامها الليل ، وطعامها ، ومسكنها ، ولباسها ، وموتها ، فقالت :

« كانت رابعة تصلى الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجة خفيفة حتى يسفر الفجر ، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذلك وهى فزعة : يا نفس ! كم تنامين وإلى كم تقومين ! يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور ! » . فكان هذا دأبها دهرها حتى ماتت . فلما حضرته الوفاة دعتنى فقالت : يا عبدة ! لا تؤذنى بموتى أحداً ، ولقينى فى جُبتى هذه ! » . فكفناها فى تلك الجبة ، وخمار صوف كانت تلبسه . وقالت عبدة : رأيته بعد ذلك بسنة أو نحوها فى منامى ، عليها حلة استبرق خضراء وخمار من سندس أخضر لم أر شيئاً أحسن منه ، فقالت : يا رابعة ! ما فعلت بالجبة التى كفناك فيها ، والخمار الصوف ؟ - قالت : إنه والله نُزِع منى ، وأُبدلتُ هذا الذى ترينه على ، وطويت أكفانى وخُتم عليها ورُفعت فى عليين ، ليكمل لى بها ثوابها يوم القيامة » . - قلت : لهذا كنت تعملين أيام الدنيا ! - قالت : وما هذا عندما رأيت من كرامة الله لأوليائه ! » . - قلت : فمرينى بأمر أتقرب به إلى الله عز وجل ! - قالت : عليك بكثرة ذكره . أوشك أن تغتبطى بذلك فى قبرك .

وتقوم طريقة عبدة على الذكر ، وربما كان إنشغالها به هو الذى جعلها تحلم برابعة توصيها بالذكر ، والنبي ﷺ كان يقول « سبق المفردون » ، قيل ومن المفردون يا رسول الله ، قال : « الذاكرون كثيراً والذاكرات » ، والفرد هو الذى ليس معه غيره ، والذكر هو طرد الغفلة ، والفرق بين رابعة وعبدة أن رابعة كانت تستروح الأفكار ، وعبدة كانت تشغلها الأذكار ، ولذلك يحكى الزبيدى أن رابعة قالت يوماً : من يدلنا على حبيبنا ؟ يعنى أنها كانت تفكر فيه ، ومنها من ذلك حيرة ، فأجابته عبدة بيقين . حبيبنا معنا ، ولكن الدنيا قطعتنا عنه ! » . وذلك مقام المعية ، ولم يكن يخفى على رابعة ، وإنما كانت كما يقول الزبيدى فى مقام الاستغراق الذى هو من نتائج المحبة ، وهو مقام القرب الذى قد يتطلب من السالك من

يأخذ بيده ، فنبهتها عبدة خادمتها ، وردّت شوقها إلى الله إلى إنشغالها بالدنيا فأفتقدته معها . ومن المفسرين من يستعظم على عبدة أن تنبه رابعة وهى « رأس في المعرفة والمحبة » ، فقالوا إن مقالة رابعة تفكر في الله دون ما سواه ، وهذا هو الذكر بعينه ، وفيه قال النورى :

أريد دوام الذكر من فرط حبه فيا عجباً من غيبة الذكر في الوجد
وأعجب منه غيبة الوجد تارة وغيبة عين الذكر في القرب والبُعد

أو أنهما قد استهلكتهما محبة الله ولم يبق لهما حظ ، وكانت محبة رابعة محبة وَجَد فقالت مقالتها ، بينما كانت محبة عبدة إقراراً وهى أقل درجة ، وفيها يدرك المُحب عِلَّة وجده ، ولا يُستغرق عن نفسه بالكلية ، فيذكره العقل بما فاتته . وهو حال عبدة . وكانت في صحبة سيدة العارفات بالله والمحبات له حتى وفاتها ، والسلوك مُعَدِّ كما يقولون وإنما رابعة رائدة وعبدة تابعة ، ويحكى أن رابعة كانت تعتكف إبّان الصيف في بيت منعزل لا تفارقه فجاءتها عبدة يوماً تقول : سيدتى ! غادرى هذا البيت وتعالى تأمل آثار قدرة الله تعالى ، فأجابتها رابعة : بل أدخلى أنت وتعالى وتأمل القدرة نفسها ، وتأمل عبدة إذن كانت لموضوعات خلق الله وبدائع صنعه فهى لم تزل في مرحلة الدهشة بينما تأمل رابعة كان لذاتها ، وكان استبطاناً ، ولذلك قالت أبياتها المشهورة :

أحببك حبين : حبُّ الهوى وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى فذكرٌ شغلت به عن سواكا
وأما الذى أنت أهل له فلست أرى الكون حتى أراكا

ففى الحب الأول المعهود تذكر المحبوب ، ولكنها لا تنسى نفسها ولا الكون من حولها فيه . وفى الثانى كانت محبتها كما يقول بن عبد الصمد . التى تعمى وتصم ، أو تعمى عما سوى المحبوب فلا تطلب سواه ، فقالت قولتها من يدلنا على حبيبنا !!!

٣ - سفيان الثورى

★★★

أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثورى ، كانوا يسمونه فى البصرة أمير المؤمنين فى الحديث . وقالوا أئمة الناس ثلاثة بعد أصحاب رسول الله ﷺ . ابن عباس فى زمانه ،

والشافعي في زمانه ، وسفيان الثوري في زمانه » . وفي وصف مجالس سفيان قال ابن المبارك : تعجبنى مجالسه . إذا شئت رأيته في الورع ، وإذا شئت رأيته مصلياً ، وإذا شئت رأيته غائصاً في الفقه » . وقال ابن عياش في مصاحبته : إنى لأرى الرجل يصحب سفيان فيعظم » . وقال الطنافسي : لا أذكر سفيان الثوري إلا وهو يُفتى » . ويقول ابن مبارك : إذا لقيت سفيان الثوري فلا تسأله عن شيء إلا عن رأيه » .

وسفيان إذن يشرف الناس بمعرفته ، ومجالسه فيها الفائدة لمن يؤمها ، ودرايته بالحديث لا يختلف بشأنها أحد ، إلا أن الحكايات التي تورده مع رابعة توقفه منها موقف المتلقى عنها والتلميذ الروحي لها ، وهذه الحكايات قد كتبها صوفية ، ويظهر فيها بوضوح أنهم يريدون أن يثبتوا أن المتصوفة أفضل من الفقهاء والمحدثين ، فالجلوس للحديث وعلو الإسناد فيه كله رياسة ودنيا ، وللنفس في الجلوس للحديث لذة ، ورابعة لذلك تقول لسفيان عندما تسمعه يطلق زفرة ويهتف واحزنناه : لا تكذب ! قل واقلة حزنناه ! فلو كنت حزيناً ما هناك عيش » . وتقول له مرة أخرى : إن السلامة ترك الدنيا وأنت غارق فيها » . وسمعه يقول اللهم أسألك رضاك ، فقالت : تسأل رضا من لست عنه براض ! » . ولا عجب وهذا حالها معه أن تطلب من خادمتها مرة بعد أن ينصرف سفيان من عندها : إذا جاء هذا الشيخ وأصحابه فلا تأذنى لهم فإنى رأيتهم يحبون الدنيا . وهذا النفور أساسه أن رابعة تنطلق من فلسفة في الحياة والدين مختلفة عن سفيان ، ومع أنه يرتاح إليها كثيراً ، ويطلق عليها اسم المؤدبة إلا أنها كانت كثيرة النقد له ، ونلاحظ أن رابعة تسأل مرة عن حبها للرسول ﷺ فتقول قولتها المحيرة « إن حب الله قد ملأ قلبي إلى حد لم يجعل ثمة مكاناً لمحبة غيره أو كراهيته » ، ونلاحظ كذلك قولها القاطع بأنه لا مكان في قلبها لغير الله ، بما يعنى أنها لم تشغل بمحبة الرسول ولا بعلم الحديث وإنما اشتغالها على الحقيقة بالله وبعلم الباطن ، فهي له ، وفي ظل أوامره ، ولا خيار لها في نفسها . وعلم الباطن الذى هو شغلها يقول فيه الشبلى :

إذا طالبـوني بعلم الـورق ——— رزت عليهم بعلم الخـرق

وموجدة رابعة على سفيان أنه ليس من أهل الطريق . والعلم الذى تتبته به رابعة هو الذى قال فيه الإمام على « سر من سر الله ، وحكم من أحكامه ، يقذفه في قلوب من يشاء من أوليائه » ، وهو لذلك علم وهبى ، لا فضل لهم فيه . وأما علم سفيان فهو علم كسبى ، يبذل فيه العالم كل نفسه ، وكما يقول . إن المحدث قبل أن يكتب أو يقول الحديث عليه أن « يؤدب

نفسه ويتعبد قبل ذلك بعشرين عام « ، ولذلك فقد فسّر البعض ، كابن الجوزي ، تسخيف الصوفية لهذا العلم بأنه بسبب ميلهم إلى الكسل وتبطلهم وزهدهم فيما يكون به إرهابهم . ويذهب ابن عربي إلى تفسير أكثر موضوعية ، وفيه من التحليل الكثير فيقول : إن السائرين إلى الله بعزائم الأمور على قسمين ، فطائفة ربطت همتهما على أن الرسول إنما جاء مُنبهاً ومُعلماً ، فإذا أعطى العلم بذلك زال من الطريق وخلّى بينهم وبين الله ، وهؤلاء إذا ساقوا إلى الخيرات سارعوا فلم يروا أمامهم قدماً لأحد من المخلوقين ، لأنهم قد أزالوه من نفوسهم وانفردوا إلى الحق . والطائفة الأخرى جعلوا في نفوسهم أنهم لا سبيل لهم إلى الله تعالى إلا والرسول هو الحاجب ، فلا يشهدون أمراً إلا وأقدام الرسول ﷺ بين أيديهم . والحالة الأولى هي حالة عبد القادر الجيلاني ورابعة العدوية وأبي السعود بن شبل ومن جرى مجراهم ، والحالة الثانية التي لا يضرب ابن عربي المثل لها هي حالة سفيان الثوري والمحدثين بعامة ، أي أن رابعة صار طريقها إلى الله مباشرة من غير حاجة للرسول ، بينما الثوري يتوسل إلى الله بالرسول ، والموقفان متغايران ، ولذلك فبينما نجد الثوري شديد الزهد ومكتفياً بخبزه وبقوله ، وقد تمر الأيام عليه دون أن يتناول شيئاً من الطعام - وكانت رابعة مثله - إلا أن رابعة كان موقفها واضحاً فتقول له : أفضل شيء يتقرب به العبد إلى الله ألا يطلب من الدنيا والآخرة غيره « . وتقول : ما عبدته خوفاً من ناره ولا حبا لجنته ، فأكون كالأجير السوء ، إن خاف عمل ، أو إذا أعطى عمل ، بل عبدته حباً له وشوقاً إليه . بينما سفيان يرى أن الزهد في الدنيا هو « قصر الأمل ليس بأكل الخشن ولا لبس الغليظ » ويقول : الأفضل أن يكتسب الرجل لعياله وأن تفوته الجماعة فيصل وحده ، من أن يترك عياله يتضرعون جوعاً ويتوكل على الله « . وكان يقول . كثرة النساء ليست من الدنيا ، لأن علياً رضى الله عنه من أزهد الصحابة وكان له أربع نسوة وتسع عشرة سريّة « . وكان سفيان متزوجاً هو نفسه ، وذلك كله عكس ما ذهب إليه رابعة في حياتها وتصوفها . وتساءل رابعة سفيان يوماً : ماتعدون السخاء فيكم ؟ فيقول لها : أما عند أبناء الدنيا فمن وجود بماله ، وعند أبناء الآخرة من وجود بنفسه « . فتقول رابعة : أخطأتم ! « . فيسألها فما السخاء عندكم ؟ فتقول : أن تعبدته حباً له لا طلباً لجزاء ولا مكافأة « . وأتساءل هل جواب سفيان فيه أن يطلب جزاء أو مكافأة حتى تقول رابعة أخطأتم وتصوّبه إلى ما صوبته إليه ؟ ويبدو أن سؤال رابعة الذي فيه « فيكم » ، وسؤال سفيان الذي فيه عندكم ، يعني أنها كانت تسأل عن موقف الرجال من السخاء المُعبر عنه بفيكم ، في مقابل موقف النساء المعبر

عنه بعندكن . والتضحية بالنفس والمال هي أقصى ما يقدمه الرجل المؤمن من السخاء ، بينما عند المجتمع النسائي لرابعة ، وهو مجتمع صوفى من المناديات بالمحبة الإلهية من أمثال حيونة وعبدية ، فإن السخاء هو أن تبذل المحبة لله نفساً في هذه المحبة ، فتستغرقها وتعيش بها ، فلا تكون أنثى ولا تتزوج ولا تنجب ، وتلك لعمرى تضحية من المرأة وأى تضحية في مجتمع كل تعاليمه تقضى بزواج المرأة وتحبب لها الإنجاب . ولم يعرف عن رابعة وعبدية وحيونة أنهن تزوجن ، وكُنَّ يرفضن فكرة الزواج من أساسها تفرغاً لعبادة الله .

وفي حكاية من حكايات رابعة مع سفيان أبصرها مريضة متهافئة وسألها أن تدعو الله لنفسها أن يخفف عنها ، فلم تفعل باعتبار أن مرضها من مشيئة الله ، فكيف تتوجه إليه بالدعاء متجاهلة إرادته . وكانت رابعة كالشأن مع الصوفية ترى في التداوى والشكوى لله من المرض خروجاً من التوكل ، وأما سفيان فقد صَحَّ عنده أن رسول الله مرض واشتكى وتداوى ولم يخرج بذلك من التوكل ، ولا يمكن أن يفهم ذلك من المسلم إن فعله على أنه تبرُّم منه لقضاء الله فيه . وكانت رابعة في توكلها متجردة تماماً حتى أنها لم تكن تمتلك سوى حصيرة وكوز وكفنها وثيابها الخلفة التي عليها ، وأما سفيان فكان يقول المال في زماننا (وهو نفسه زمن رابعة) سلاح للمؤمن ، ويقول : لأنْ أخلف عشرة آلاف دينار أحاسب عليها أحب من أن أحتاج إلى الناس .»

وتوفي رحمه الله ١٦١ هـ ، وكان ميلاده سنة ٩٧ هـ ، أى أنه إذ التقى برابعة كان مثل عمرها ، وكان ميلاده ووفاته بالبصرة ، وكان يقال فيه أنه إذا ذُكر بالموت لا يُنتفع به أياماً من شدة ذهوله واكتئابه ، حتى أنه كان إذا سئل عن شيء لم يقل سوى « لا أدري ! لا أدري ! » .

ومما يذكره أبو نعيم عن أحمد بن أبي الحواري وكان من المحدثين عن كثير من الصوفية ، أن سفيان الثوري قال : دخلت على بنت أم حسان الأسدية ، وفي جبهتها مثل ركبة العنز من أثر السجود وليس به خفاء ، فقلت لها : يا بنت أم حسان ! ألا تأتين عبد الله بن شهاب بن عبد الله فرَفَعَتْ إليه رقعة لعلَّه أن يعطيك من زكاة ماله مُتَغِيرِينَ به بعض الحالة التي أرادها بك ؟ فدعت بمعجر لها فاعتجرت به فقالت : يا سفيان ! لقد كان لك في قلبي رجحان كثير (أو كبير) ، فقد ذهب الله برجحانك من قلبي ! يا سفيان ! تأمرني أن أسأل الدنيا من لا يملكها ؟ وعزته وجلاله إنى أستحي أن أسأله الدنيا وهو يملكها ! » .

ونفس الحكاية قيلت عن رابعة ، فقد روى حماد بن زياد أنها قالت : إني لأستحي أن أسأل الدنيا من يملكها ، فكيف أسألها من لا يملكها ؟ ! فكان هذا الجواب لأنه قال لها : سليني حاجتك . وفي رواية أخرى أن جماعة من الصالحين ذهبوا لزيارة رابعة ، فلما رأوها وعليها أسمال ممزقة قالوا : أى رابعة ! كثير من الناس سيساعدونك إن طلبت منهم المساعدة . فأجابت : إني أخجل من أن أسأل الناس شيئاً من متاع هذه الدنيا ، لأن شئون الدنيا ليست ملك أحد ، وما هي إلا عارية في يد من هي في يده ! . وعن أحمد بن أبي الحواري أيضاً في رواية لأبي نعيم أن سفيان قال : وكان إذا جن عليها الليل (ويقصد بنت أم حسان) دخلت محراباً لها وأغلقت عليها ثم نادى إلهي ! خلا كل حبيب بحبيبه ، وأنا خالية بك يامحبيب ، أفما كان من سجن تسجن به من عصاك إلا جهنم ، ولا عذاب إلا النار ؟ . وهي نفس المعانى والكلمات التي تنسب لرابعة ، فقد قيل إنها كانت إذا صلت العشاء قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت . إلهي ! أنارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك ا ، ثم تقبل عن صلاتها . وعن مالك بن دينار أنه أتى رابعة وهي تقول : أما كان لك يارب عقوبة ولا أدب غير النار ؟ ! .

وفي الرواية عند أبي نعيم أن سفيان كان يعظ بنت أم حسان مثلاً كان يفعل مع رابعة ، وكان يتلقى عنها ويقف منها موقف التلميذ الروحي كما كان مع رابعة . يقول سفيان : فدخلت عليها بعد ثلاث (ليال) فإذا الجوع قد أثر في وجهها ، فقلت لها . يا بنت أم حسان ! إنك لن تؤتى أكثر مما أوتى موسى والخضر عليهما السلام إذ أتيا أهل القرية فاستطعما أهلها ، فقالت : يا سفيان ! قل الحمد لله ! فقلت الحمد لله ، فقالت : اعترف له بالشكر ! - قلت نعم ، قالت : وجب عليك من معرفة الشكر شكر ، وبمعرفة الشكرين شكر لا ينقضى أبداً . قال سفيان . فَقَصَّرَ واللّه علمى وفسد لسانى وما أقوم بشكر كلما اعترفت له بنعمة وجب على بمعرفة النعمة شكر ، وبمعرفة الشكرين شكر ، فَوَلَّيْتُ وأنا أريد الخروج ، فقالت . يا سفيان ! كفى بالمرء جهلاً أن يُعْجَب بعمله ، وكفى بالمرء علماً أن يَخْشى الله ! أعلم أنه لن تنقّى القلوب من الرذى حتى تكون الهموم كلها في الله هَمّاً واحداً . قال سفيان : فَقَصُرْتُ واللّه إلى نفسى ا .

★★★

٤ - مالك بن دينار

كنيته أبو يحيى ، فقد كان في حياته يعيش كالنبي يحيى ، فكان يلبس إزار صوف وعباءة خفيفة ، فإذا كان الشتاء ففرو وكبل وعباءة ، وكان يقول لو صلح لى أن أعمد إلى بُرد لى فأقطعه باثنين فأتزر بقطعة وأرتدى بقطعة - لفعلت ، وكان أدمه كل سنة ملحاً بفلسين ولا يأكل اللحم إلا يوم الأضحى ومن أضحيت . وكان يتكسب من شيئين - من عمل الخوص ونسخ القرآن . ودخل عليه جابر بن زيد وهو يكتب فقال له . يمالك ! مالك عمل إلا هذا ؟ تنقل من كتاب الله من ورقة إلى ورقة ؟ هذا والله الكسب الحلال ! وكان يكتب المصاحف ولا يأخذ عليها أجراً أزيد من عمل يده ، ويكتب المصحف في أربعة أشهر وما كان له من الدنيا إلا درهمان ، درهم لورقة ، ودرهم ليشتري به خوصاً يعمل به . وكان كثير الإطلاع على الكتب المقدسة والقديمة في اليهودية والمسيحية ، ويزور من أجلها الأديرة ، ويجلس إلى الرهبان ويتحدث بطريقتهم ويقتبس من كتبهم فيقول : بحق أقول لكم إن أكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب لقليل في طلب الفردوس ، وبلغنى أن عيسى عليه السلام قال لأصحابه أجيئوا أنفسكم وأظمئوها وأعروها وأنصبوها لعل قلوبكم أن تعرف الله ! ، وأوحى الله إلى نبي من الأنبياء - ، وفي التوراة - ، وفي الإنجيل ، وقرأت في بعض الكتب ، وقرأت في الزبور - ، ومكتوب في التوراة - . وكان في زهده في الغاية ، حتى أن أستاذه الحسن البصرى قال له . ما أطيق أن أفعل ما تفعله ! » .

ومن أقواله في الزهد . لولا أن يقول الناس جُنَّ للبست المسوح ووضعت الرماد على رأسى أنادى في الناس : من رآنى فلا يعص ربه عز وجل . ويقول : لو وجدت أعواناً ينادون في سائر الدنيا كلها يأيها الناس النار ! النار ! لفعلت ! وقال : نظرت في كل إثم فلم أجده إلا من حب المال ! والمؤمن والمنافق لا يصطلحان حتى يصطلح الذئب والحمل ! وكان يبكى ويقول . يارب ! قد عرفت ساكن الجنة وساكن النار ، ففى أى الدارين مالك ؟ ولما رأى يوماً رجلاً يدفن جعل يقول : مالك غداً هكذا يصير ! المثل هذا اليوم كان دؤوب أبى يحيى ! وكان دائم الحزن والبكاء ويقول : الذى لا يحزن يخرب ، كما أن البيت الذى لا يسكن يخرب .

هذا هو مالك بن دينار ، وهذه حاله ، ولم يكن في بيته عند وفاته سنة ١٣١ هـ إلا

سرير أثل مرمول بالشريط ، وعليه قطعة بورى ، والوسادة قطعة كساء ، ولم يتزوج ، ولما سألوه أن يفعل أجاب : عجباً ! لقد طلقت الدنيا ثلاثاً ، ولو استطعت لطلقت نفسى !

ويرد اسم مالك فى بعض الروايات عن رابعة كرفيق لسفيان الثورى والحسن البصرى وشقيق البلخى ، ويروى عنه أنه قال : ذهبت إلى رابعة فوجدتها تشرب من جرة مكسورة وقد فرشت على الأرض حصيرة عتيقة ومخدتها من الطوب اللبن ، فقلت وقلبي يغلى : يا رابعة ! لى أصدقاء أغنياء ، فإن سمحت لى سألتهم أن يعطونى شيئاً من أجلك ! . أجابت . لقد أسأت القول يامالك ! إن الله تعالى هو الذى يرزقنى ويرزقهم ، أفمن يرزق الأغنياء لا يرزق الفقراء ؟ فإذا كانت هذه مشيئته فنحن من جانبنا نرضى عنها كل الرضا .

وفى إحدى المرات وكان بصحبة الحسن والبلخى ، قال الحسن : ليس بصادق فى دعواه من لم يصبر على ضرب مولاه . وقال البلخى : ليس بصادق فى دعواه من لم يشكر على ضرب مولاه . وقال مالك : ليس بصادق فى دعواه من لم يتلذذ بضرب مولاه . فصاحت رابعة . ليس بصادق فى دعواه من لم ينس الضرب فى مشاهدة مولاه - مثل نسوة مصر اللائى نسين الأم أيديهن لما رأين وجه يوسف ا . . والروايتان ترسمان صورة لرابعة فى مقام أعلى من مقامات مالك والحسن والبلخى ، ومقامها هو مقام المشاهدة ، بينما مقام مالك مقام التواجد . وفى المشاهدة وصل بين رؤية القلب ورؤية العين وقرب مقرون باليقين . ومن شاهد الله بقلبه غاب عند وجود عظمة الله ، ولم يبق فى قلبه إلا الله عز وجل . وأما مالك فكان واجداً ، أى يجد فى الضرب تلذذ ، أى حلاوة ، وهو ما يعنيه الوجد . وكثرة مواجيدته كانت سمة عليه ، فكان يبكى ويشهق حتى ليُغشى عليه . ومن أقواله المشهورة فى ذلك أنهم لما سألوه أن يدعو قارئاً قال : إن الثكلى لا تحتاج إلى نائحة ! .

★★★

٥ - رباح القيسى

★★★

رباح بن عمرو القيسى ، بصرى زاهد ، ومتأله كبير القدر ، سمع مالك بن دينار وحسان بن أبى سنان وطائفة ، وكان قليل الحديث ، وكثير الخشية والمراقبة ، ويروى عن

رابعة ، ومن ذلك أن الأبرد بن ضرار قال له يوماً : يارياح ! هل طالت بك الليالي والأيام ؟ فقال له : بَمْ ؟ قال . بالشوق إلى الله ؟ فسكت رياح ولم يردّ على سؤاله حتى أتى رابعة فقالت : ما سألك ؟ فقال لها : سألتى هل طالت بك الأيام والليالي بالشوق إلى لقاء الله ؟ فسألته رابعة : فقلت ماذا ؟ قال . لم أقل نعم فأكذب ، ولم أقل لا فأهجن نفسى . - فصارت رابعة تخرق قميصها من وراء ثوبها وهى تقول : لكنى نعم !

وتقول الدكتورة سعاد عبد الرزاق فى كتابها عن رابعة مايعنى أن رياحاً قد تصرف فى الموضوع مع رابعة فى تقديمها للأبرد كما لو كان زوجها ، وقد ظهرت غيرته عليها من طلبه لها أن تلثم وجهها وتستتر ، فهل كانت تبين على رياح من غير لثام دون استتار ؟ ومن رأى الدكتورة أن رياحاً وقد عقدت بينه وبين رابعة أواصر صداقة متينة فإنه تزوجها ، ولعله لذلك كانت رابعة تكنى بالقيسية ، ولما مات رياح سنة ١٧٠ أو ١٧٧ هـ ، وصارت رابعة أرملة تقدم لخطبتها آخرون ، ومنهم عبد الواحد بن زيد والحسن البصرى وأمير البصرة كما تقول الرواية ، إلا أننا نرى أنه مادامت رابعة قد توفيت نحو سنة ١٨٥ هـ ، أى بعد وفاة رياح بثمانى سنوات تقريباً - ، أو نحو ثلاث عشرة سنة ، وكانت وقت وفاتها فى نحو الثمانين ، فإنها من غير المعقول أن تُخطب وعمرها ٦٧ أو ربما ٧٢ سنة . ومن التناقضات فى الروايات عن رياح أنه كان زاهداً فى الزواج ويدعو إلى التجرد على مذهب أستاذه مالك بن دينار . وينقل عنه قوله . لا يبلغ العبد منزلة الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة ويأوى إلى مزابيل الكلاب ، ومع ذلك فقد ذكر الشعراى فى طبقاته « باب العباد من النساء » امرأة رياح القيسى وكانت تقوم الليل كله ، فإذا مضى ربه الأول ذهبت تقول لرياح : قم يارياح ! فلا يقوم ، فتقوم الربيع الأخير إلى تمام الليل ثم تأتية وتقول : قم يارياح ! قد مضى عسكر الليل وأنت نائم ، فليت شعرى من غرنى بك يارياح ! ما أنت إلا جبار عنيد ! وكانت رضى الله عنها تأخذ تينة من الأرض وتقول . والله للدنيا أهون علىّ من هذه ! وكانت إذا صلّت العشاء تطيبت ولبست ثيابها ثم تقول لزوجها ألك حاجة ؟ فإن قال لا ، نزع ثياب زينتها وصلّت إلى الفجر رضى الله عنها ، فهل تراها هى نفسها رابعة ؟ ولماذا سكت المترجمون وكتبوا عنها « امرأة رياح القيسى » وكفى « أسئلة تحتاج إلى إجابات !

ومما قيل من روايات تثير الحيرة وتزيد البلبلّة أن رياحاً كان له صبي من أهله فنظرتة

رابعة يضمه ويقبله بما يعنى أنه كان متزوجاً وله أولاد ، وعندئذ قالت رابعة : ما كنت أحسب أن فى قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره تبارك اسمه ، فصرخ رياح وخرّ مغشياً عليه من وجده . ولما أفاق ظل يمسح العرق عن وجهه وهو يقول : رحمةً منه تعالى ألقاها فى قلوب العباد للأطفال ! وتأنيب رابعة الذى أوجده يتضمن أن رياحاً ما كان له أن يحب غير الله ، والعبارة التى يجيب بها رياح هى دفاع الصوفية المتأهلين ضد المنتقدين عليهم فى أمر الإنجاب عموماً ، وكانت رابعة ضد الزواج والإنجاب ، فهل تراها مع ذلك قبلت الزواج من رياح على نحو ما فهمت الدكتورة سعاد للنص الأسبق عن الأصبهانى فى الحلية ؟

ويذكر الدكتور بدوى أنه يفترض أن رابعة العدوية وقد التقت برياح القيسى فى أول طريقها للتصوف فتوسم فيها ميلاً إلى الحياة الطاهرة فحملها على أطراح حياتها اللاهية عندما كانت تشتغل بالغناء والعزف ، ولعل فى هذا ما يفسر الصلة القوية التى قامت بينهما ، فقد يكون العطف أخذه عليها فتمنى لها وهو صاحب الطبيعة الممتازة أن تسلك السبيل الذى سلكه هو . ولئن كانت المصادر لا تحدثنا عن وقوع هذا الحادث بالذات فإنها تشير إلى صلاتهما الوثيقة إلى أبعد حد ، فكانا يقضيان الليل معاً فى بيتها إنقطاعاً للتهدج والعبادة ، ومثل هذه الأحداث كثيراً ما تقع فى حياتنا ، فذو النفس النبيلة إذا ما توسم فى إحدى بنات الهوى روحاً سامية سرعان ما يفكر فى إنقاذها مما هى فيه ، فمن يدرى ؟ لعل هذا ما وقع بين رياح بن عمرو القيسى وصاحبتنا رابعة .

وقد أجبنا على فروض الدكتور فى حينها . والخطأ الأساسى الذى يرتكبه الدكتور هو أنه افترض أيضاً أن رابعة قد اندفعت فى طريق الإثم نحو شخص ثم خاب رجاؤها فيه ، أو أنها اندفعت فى طريق الإثم إلى حد الإفراط وكان لزاماً على الدكتور بدوى أن يجد لرابعة من ينقذها مما تردت إليه ، مثلما افترض أنها قد أثمت فاخترع قصة توبتها على يد رياح بدعوى صلتها الوثيقة به . ومع أن رابعة كما تقول الروايات كانت على صلة وثيقة بسفيان الثورى ، وكان كما يعبر عن ذلك نفسه يرتاح إليها كما لا يرتاح إلى أحد ، وأنها مؤدبة يسمع منها من المواعظ ما لا يسمعه من أحد ، وكان يبيت عندها ويصليان معا ويصومان ، وكذلك الحسن البصرى وقد عرض عليها نفسه للزواج فيمن عرض ، وكذلك عبد الواحد بن زيد وغيرهم ، فلماذا إذن رياح القيسى هو الذى يوكل إليه الدكتور مهمة توبتها ؟ والتى يفهم منها فعلاً وجود علاقة حميمة من نوع ما ، إلا أن هذه الرواية تقدم رابعة فى صورة

العارفة وتجعل رياحاً تلميذاً لها يعود إليها ليعرف منها جواباً لما أَسْتَغْلِقُ عليه فهمه والرد عليه . وهذه الرواية نفسها هي أيضاً التى جعلت **الدكتورة سعاد** ترجح أن ما كان بينهما هو علاقة زواج . وثمة أمر آخر تستند إليه **الدكتورة سعاد** و**الدكتور بدوى** فيما أورداه عن خصوصية العلاقة بين رابعة ورياح وهو **الخُلة** . وقد أورد **أبو طالب المكي** صاحب **القوت** أن رابعة ارتفعت إلى وصف معنى الخلة ، وأن لها أقوالاً جيدة في مقامها . وكذلك يورد **أبو الحسين الملطى** صاحب **التنبيه والرد على أهل الأهواء** أن رياحاً وكليياً كانا يقولان بالخلة ، وأنهما من الطائفة **الروحانية** ، ويزعمان أن حب الله يغلب على قلوبهم وأهوائهم وإرادتهم ، وأنهما لذلك قد وقعت عليهما **الخُلة** من الله ، فأبيح لهما أن يفعلوا أى شىء حتى لو كان السرقة والزنا وشرب الخمر والفواحش كلها ، لا على وجه الحلال وإنما على وجه **الخُلة** كما يحل للخليل الأخذ من مال خليله بغير إذنه . وفكرة الخلة مأخوذة من **خُلة إبراهيم خليل الله** التى وردت في القرآن ، وقد بيّن الرسول ﷺ فضل مقام الخلة ، وأنه لا يبلغه إلا أولياء الله الصالحون ، وأنه مقام فوق مقام المحبة . ولو صدّقنا **الملطى** فإن رياحاً كان يقول بهذه المقالة ويدعو إليها ، وقيل في رياح إنه كان قالياً للدنيا هارباً منها وراغباً في الآخرة ومطرحاً للكلّف ، وكان إذا دخل المسجد بكى ، وإذا دخل بيته بكى ، وإذا دخل الجبانة بكى ، فيقال له « أنت دهرك في مأثم ؟ » . فيقول : يحق لأهل المصائب والذنوب أن يكونوا هكذا - ١ . » . وأتخذ غُلاً من حديد فإذا جنّه الليل وضعه في عنقه وتضرع وبكى حتى يُصبح . وفكرة **الغل** هذه مأخوذة أيضاً من ارتباط الخلة بإبراهيم الخليل ، وإبراهيم عليه السلام هو صاحب قصة الذبيح في الفكر الإسلامى التى نشأت منها فكرة **سائبة** الله ، وكان كثير من زهاد البصرة في عصر رياح يعتبرون أنفسهم سائبات لله - كما يقول **الدكتور على النشار** فكانوا يضعون مثل هذا الغل في أعناقهم انتظاراً للذبح ، ويبكون ويتضرعون حتى الصباح .

ويستخلص **الدكتور بدوى** من علاقة رابعة ورياح الحميمة أنه ربما تأثرت رابعة فلسفياً برياح وانطبعت بها فكرة **الخلة** فقالت بها في شعرها ، وبسببها تطورت نظرية **الحج** عندها إلى حد أنها أسقطته بسبب اعتبارها لنفسها في مقام الخلة من ربها . ولعله لهذا أيضاً كانت تكلم ربها وتعاتبه بما يشبه **التطاؤل** ، ولعله أيضاً سبب قولها في النار إنها لن تحرق قلباً محباً وتوهمها رداً سماوياً عليه ، إذ تقول مخاطبة المولى عز وجل : « أتحرق قلباً

محباً ؟ فيأتيها الجواب : ما كنا نفعل هكذا فلا تظني بنا السوء » . وارتباط هذه الرواية بقصة إبراهيم عليه السلام وإلقائه في النار فكانت عليه برداً وسلاماً معروفة في الإسلام ، فطالما أن الصوفي الواصل قد بلغ الخلّة التي كانت لإبراهيم فإنه وقد صار إلى مقامها لن تحرقه النار مثله وهو خليل الله .

وإننا لنستبعد أن يكون المعنى الإباحي الذي انصرفت إليه الخلّة هو ما انتهى إليه حال وسلوك رياح أو رابعة ، وقد يكون هذا المعنى قد اعتقده آخرون ، منحرفين بالخلّة عن أصلها ، وذلك شأن كل المذاهب في شتى العصور والأمصار ، فلن تعدو أرقاها وأصفاهها أن تجد من يسئ إليها شرحاً وتفسيراً وتطبيقاً . ولم يكن كذلك رياح ولا رابعة أبداً رحمهما الله ! .

٦ - عبد الواحد بن زيد

كان زاهداً واعظاً ، وروى عن الحسن البصري ، ورافق سفيان الثوري ، وفرقد السبخي ، ومحمد بن واسع ، ومالك بن دينار ، وصالح المري ، وعُتْبَةُ الغلام ، وسلّمة الأسوارى . وقيل إنه أصيب بالفالج فسأل الله أن يطلقه في وقت الوضوء ، فإذا أراد أن يتوضأ انطلق ، وإذا رجع إلى سريره عاد إليه الفالج . ويبدو من حالته أن مرضه كان نفسياً أو ما يسمى بالشلل النفسى ، وتوفي سنة ١٧٧ هـ ، وكان أكثر ما يميز شخصيته هو كثرة مواجيدته وهياجه النفسى حتى ليبكى ويتشنج فما يستطع أحد أن يهدئه . ويروى الحارث بن عبيد أن عبد الواحد كان يجلس إلى جانبه في مجلس مالك بن دينار فلم يكن يفهم كثيراً من مواظ مالك لكثرة بكاء عبد الواحد ، وفي وعظه كانت له طريقة في التحنن والإلقاء العاطفى المؤثر حتى ليؤخذ السامعون ويُغشى على بعضهم . ويروى أنه في إحدى المرات ناداه رجل من ناحية المسجد : كف عنا يا أبا عبيدة فقد كشفت قناع قلبى ' ولم يتوقف عبد الواحد واستمر في وعظه والرجل يقول : كف عنا يا أبا عبيدة فقد كشفت قناع قلبى ' وعبد الواحد لا يقطع موعظته حتى حشرج الرجل حشرجة الموت ثم خرجت نفسه

ومات . وقيل في بثه أنه لو قُسم على أهل البصرة لوسعهم ، وقيل إنه في الليل كان كأنه قرس رهان مضمر يقوم إلى محرابه فكأنه إنسان مخاطب .

وكان عبد الواحد مثل الكثير من أصحابه مطلعاً على الكتب المقدسة ، ويتردد على الرهبان ، ولعله لهذا السبب أرجع المستشرقون فكرة المحبة الإلهية عند صوفية البصرة في ذلك الزمان إلى تأثير التصوف اليهودي والمسيحي وهذا النفر من الأصحاب هم أنفسهم الذين كانوا يترددون على رابعة ، وبعضهم كان من تلاميذ الحسن البصري أو التقى به واستمع إليه وتأثر بأفكاره . وربما لهذا كانت حكايات رابعة مع الحسن البصري ، فلقد كانت من دائرة ثقافته . وكان عبد الواحد بن زيد من دعاة المحبة وكان يقول . الرضا رأس المحبة ، والرضا يتقدم الصبر ، وأهل محبة الله لا يمكن أن ييأسوا من رحمته ... وكان عبد الواحد بن زيد الراوي للحديث القدسي عن الحسن البصري قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى إذا كان الغالب على عبدى الاشتغال بى جعلت نعيمه ولذته في ذكري ، فإذا جعلت نعيمه ولذته في ذكري عشقنى وعشقتة ، فإذا عشقنى وعشقتة رفعت الحجاب بينى وبينه ، وصرتُ معالم بين عينيه ، لا يسهو إذا سها الناس ، أولئك الأبطال حقاً أولئك الذين إذا أردتُ بأهل الأرض عقوبةً وعذاباً ذكرتهم فصرفت ذلك عنهم » ، وهذا الحديث كما يقول أبو النعيم في الحلية مرسل ، ولكنه خارج من جملة الأحاديث المراسيل المقبولة عن الحسن البصري وعبد الواحد بن زيد وما يرجعان إليه من الضعف ، والحديث كما نرى يذكر « العشق » باللفظ في مجال المحبة الإلهية .

وفي السيرة لرابعة أن عبد الواحد بن زيد خطبها ، ومع علو شأنه هجرته أياماً حتى شفع له إليها إخوانه ، فلما دخل عليها قالت له . يا شهوانى ! اطلب شهوانية مثلك ! أى شىء رأيتَ في من آلة الشهوة ؟^{١٩}

وربما يُحمل كلامها على أنها لم تكن جميلة كما يشاع عنها ، وربما لم يكن عبد الواحد بن زيد قد رغب فيها عن شهوة ، إلا أنها فهمت خطبته لها كذلك ، ولقد قيل إن الهاشمي أمير البصرة قد خطبها أيضاً ، وجاءت خطبته لها بناءً على ما أشاروا به عليه ، ولم يكن قد شاهدها ولكنه خطبها لما علم زهدا وتقواها ، فلماذا لا يكون عبد الواحد قد خطبها لنفس السبب ، خصوصاً أنه لم يكن من المتجربين ، فقد ذكر أبو نعيم أنه كان له ابن متعبّد يقوم على أموره وحوائجه كلها ، فمات وهو بعد فتى ، فوجد عليه عبد الواحد وجداً شديداً ، وكما

ذكره يبكى ويقول : موته نغص على حياتي ! ويستدرك ويقول : وهل الحياة إلا متنغصة !
ومن الغريب أن الرواة قد ذكروا عن عبد الواحد أنه صلى الغداة بوضوء العتمة أربعين سنة ،
فهل نفهم من ذلك أنه تزوج مبكراً ، أو ماتت زوجته وظل بعدها في عزوبة ؟ وربما أنه في
هذه الفترة قد رأى أن يتأهل واختار لنفسه رابعة ؟

ومما يثير الدهشة حقاً في سيرة عبد الواحد بن زيد ما ذكره الفضيل بن عياض عن
عبد الواحد ، بشأن امرأة من العابدات اسمها « ميمونة السوداء » وكان قد سأل الله ثلاث
ليال أن يريه في المنام رفيقته في الجنة ، وذلك أمر مستغرب أن يخطر هذا خاطر في باله ،
فهو دليل على انشغاله الجنسي كما يقول محللو النفس . ويقول عبد الواحد أنه قيل له في
المنام أنها من الكوفة من آل فلان ، فخرج إلى الكوفة وسأل عنها ، فقيل إنها مجنونة ، أو كما
نقول مصابة بهوس ديني ، وأنها ترعى غنيمات لقومها ، فذهب يبحث عنها حتى عثر عليها
قائمة تصلى وبين يديها عكازة لها ، وعليها جبة مكتوب عليها لا تباع ولا تشتري . وإذ الغنم
مع الذئب لا الذئب تأكل الغنم ولا الغنم تفزع من الذئب . فلما رآته أوجزت في صلاتها ثم
قالت : إرجع يا ابن زيد ، ليس الموعد ههنا ، إنما الموعد ثم ، فقال لها . يرحمك الله ! وما
يُعلمك أنى ابن زيد ؟ فقالت : أما علمت أن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما
تناكر منها اختلف ؟ فقال لها : عظيمي ، فقالت : واعجباً لو اعظ يوعظ ! يا ابن زيد ! إنك لو
وضعت معايير القسط على جوارحك لخبرتكم بمكتوم مكنون ما فيها ! يا ابن زيد إنه بلغني ما
من عبد أُعطى من الدنيا شيئاً فابتغى إليه ثانياً إلا سلبه الله حب الخلوة معه ، ويبدله بُعد
القرب البُعد ، وبُعد الأُنس الوحشة . ثم أنشأت تقول :

يا واعظاً قام لاحتساب	يزجر قوماً عن الذنوب
تنهى وأنت السقيم حقاً	هَذَا من المنكر العجيب
لو كنت أصلحت قبل هذا	غيك أو تبت من قـريب
كان لما قلت يساحبيبي	موقع صدق من القلوب
تنهى عن الغي والتمادي	وأنت في النهي كالمريب

فقلت لها : إنى أرى هذه الذئاب مع الغنم ، لا الغنم تفزع من الذئاب ، ولا الذئاب تأكل الغنم ، فكيف ذلك ؟ فقالت : إليك عنى ! فإنى أصلحت ما بينى وبين سيدى ، فأصلح بين الذئاب والغنم .

والقصة من الأدب الدينى الرمزى كما نرى ، إلا أن لها دلالة أخرى بصدد ما نحن فيه ، فميمونة السوداء لم تتزوج ، وثوابها من الله تعالى فى الآخرة أن يزوجه عبد الواحد بن زيد ، فهل يأترى يكون عبد الواحد بن زيد أعزب ، ولذلك فقد طلب من الله تعالى أن يطلعه على نتيجة صبره على العفة فى الدنيا ؟ وهل من الممكن أن يكون عبد الواحد وقد رفضته رابعة محل رفض من أخريات ، فسأل ربه أن يريه فى المنام رفيقته فى الجنة ؟ أسئلة من الصعب الإجابة عليها بشكل حاسم من كتب السيرة ، ويفرضها منهج التحليل الذى آليت على نفسى اتباعه فى هذا الكتاب . على أن مواضع العجب فى القصة أن تنسب لإبراهيم بن أدهم قصة مشابهة عن منام يرى فيه أن زوجته فى الجنة هى ميمونة السوداء . وكان إبراهيم عزباً فى حياته ، وربما لذلك قد رأى هذه الرؤيا كتعويض لحرمانه ، وربما من كرامات الأولياء كما عند ابن زيد ، إلا أن العجيب أن يكون اسم المرأتين ميمونة ، وأن تكون كل منهما سوداء ، وكانت كل منهما تصلى والشاة والذئب فى مكان واحد ، وقالتا كلاماً مشابهاً فى تبرير الألفة بين الشاة والذئب . تقول ميمونة لإبراهيم : سلّمتها (أى الشاة) إلى منشئها ، وارتفعت بينى وبين من أنا قائمة بين يديه ، فهو الذى رفع الوحشة بين الشاة والذئب . ثم ولت وأنشأت تقول :

ترى ما لا يراه الناظرون	قلوب العارفين لها عيون
تغيب عن الكرام الكاتبين	والسنة بسرٍ قد تناجي
إلى ملكوت رب العالمين	وأجنحة تطير بغير ريش
وتشرب من كأس العارفين	فتسقيها شراب الصدق صرفاً

٧- حيونة

★★★

هى زاهدة عابذة من حلقة الجلساء إلى رابعة ، والروايات عنها قليلة إلا أنها فيها تبدو أيضاً من أهل محبة الله ، ولها مخاطبات ومناجيات مع الله ، ولها شعر في المحبة ومواقف مع كبار الصوفية ومع رابعة نفسها تدل على ما بلغته في الطريق وما ارتفعت إليه من مقامات . فمن مناجياتها : يا واجدى ! تمنعنى بالليل التلاوة ثم تقطعنى عنك بك في ضياء النهار ؟ إلهى ! وددت أن النهار ليل حتى أتمتع بقربك ! ... وصامت حتى اسودت من الصيام ، فعوتبت في ذلك فرفعت طرفها إلى السماء وقالت . قد لامنى خلقك في خدمتك ! فوعزتك وجلالك لأخدمك حتى لا يبقى لى عصب ولا قصب ! ... ولعله لهذا سميت خادمة الله ، وشعرها أقل جودة من شعر رابعة ، وليست فيه على سجيته . مثل :

يا ذا الذى وعد الرضا لحبيبه أنت الذى ما إن سواك أريد

ونثرها أيضاً ليست فيه مطبوعة ، تقول « من أحبَّ الله أنس ، ومن أنس طرب ، ومن طرب اشتاق ، ومن اشتاق ولّة ، ومن وله خرم ، ومن خرم وصل ، ومن وصل اتصل ، ومن اتصل عرف ، ومن عرف قرب ، ومن قرب لم يرقد وتسورت عليه بوارق الأحران » . وما ندري هل هذا كلام حيونة أم كلام رابعة ؟ غير أن ترتيبها مع ذلك للأحوال والمقامات فيه دراية وعقل وإعمال فكر وخبرة بالغة مما للرجال عموماً ، وليست للنساء . وهى دائماً تأخذ زمام المبادرة كالرجال ، فقد كانت لديها ريحانة وهى عابدة أخرى من حلقة رابعة ، فلما جنّ الليل جاء المطر والرياح الشديد ، ففزع ريحانة وضحكت حيونة من فزعها وقالت . لو علمت أن فى قلبى محبة غيره أو خوف سواه لوجأته (أى قلبها) بالسكين ! ، وفى يوم كان شديد الحرارة قالت . عند المبلّغ يفرح الواردون ، وعند العرّض تنقطع الأسباب ، وعند قوله (أى الله) تنشر أعلام العارفين ! - وكلامها كما نرى منضّد وله ما وراءه ولا يفهمه إلا خبير .

ونأتى إلى بعض مواقفها الموحية مع رابعة ، فقليل إن حيونة كانت فى زيارة من زياراتها لرابعة فلما كان جوف الليل حمل النوم على رابعة ، فقامت إليها حيونة فركلتها برجلها وهى تقول : قومى ! قد جاء عُرُس المهتدين يا مَنْ زين عرائس الليل بنور التهجد !

ويقول الدكتور بدوى إن هذا الكلام من حيونة نص على أكبر قدر من الخطورة ، لأنه يتحدث عن وجود فكرة الزواج من الله والاقتران به لدى الصوفيات المسلمات حتى منذ القرن الثانى الهجرى ، أى الثامن الميلادى ، وهى الفكرة التى لعبت دوراً خطيراً فى التصوف المسيحى ، ابتداءً من القديسة تريزا التى عاشت فى القرن السادس عشر الميلادى ، أى بعد أولئك الصوفيات المسلمات بثمانية قرون . وإذا كنا لا نستطيع أن نتحدث عن تأثير مباشر لهؤلاء المسلمات فى القديسة تريزا ، فإننا نترك هذه المسألة مفتوحة للباحثين .

والنص كما نرى منسوب لحيونة فلماذا يربطه الدكتور بدوى بنظرية الزواج عند رابعة ؟ ثم إن فكرة الزواج من الله فى التصوف المسيحى لها أساس عقدى فى المسيحية ، وهو إمكان الاتحاد بين الناسوت واللاهوت متمثلاً فى المسيح ، وعلى هذا الأساس كان القول بالاتحاد فى التصوف المسيحى . وإذا كان بعض فلاسفة التصوف الإسلامى قد قالوا بالاتحاد كذلك فإنما نقلوه من الفكر المسيحى دون أن يكون له أساس عقدى من الإسلام . وفكرة الاقتران بالله لم يقل بها فى المسيحية إلا المتصوفات ، وكانت فى مجالهن أنسب لكونهن نساء ، فهل كانت هناك دوافع أيديولوجية للقول بالاقتران بالله عند المتصوفات من المسلمات ؟ ولربما تكون دوافع حيونة هى تزويق الكلام باصطلاحات نسائية . ويحتمل أنها بطريقتها المندفعة والتى تتولى فيها المبادأة كشأن الرجال قد رأت أن تؤثر على رابعة ، فجعلت كلامها عن الصلاة والاستعداد لها ولقاء الله فيها بالنسبة لرابعة الأنثى ، كأنما تنهياً لعرسها ، وهو أشرف عرس ، لأنه عرس المهتمدين . وربما كذلك كان تعبيرها ذاك إسقاطاً لاشعورياً عن مكنونها النفسى ، وهى المرأة التى حرمت نفسها الزواج ، فطرحت رغبتها المكبوتة فيها فى هذه العبارة الموحية وكثيرة الدلالة . وعلى أى الأحوال ، ومهما كانت التفسيرات والتحليلات ، فإنه مما لا شك فيه أن حيونة كانت من مدرسة رابعة فى المحبة الإلهية ، وأنها كانت لها طريقة رابعة فى التعبير دون أن تكون لها أفكارها ، فهى إذا استغضبت فى الله كانت لها ألفاظها الحادة كرابعة . ولقد سبق أن خبرنا رابعة تقول لسفيان « كاذب » ، وتقول لعبد الواحد بن زيد « ياشهوانى » ، وهامى حيونة تفتقد الاتساق والإخلاص فى وعظ عبد الواحد بن زيد ، فتنبئ له وتصدده ولا تتأديه باسمه وإنما تقول له « يامتكم ! تكلم عن نفسك ! والله لو مت ما تبعت جنازتك ! » ، وتشبّهه بمعلم الصبية الذى يحفظ الأولاد بالعصى ، فإذا بهم ينسون بمجرد أن يتركوه ، وتقول له 'إن

الأولى به أن يبادر هو نفسه إلى ضرب نفسه ليعلمها الأدب ، وذلك أسلوب رابعة في الخطاب مما يدل على أن التأثير كان من رابعة عليها ، وليس العكس كما تقول الدكتورة سعاد حيث تجعل حيونة هي معلمة رابعة أو بمثابة الشيخ لها .

٨ - شقيق البلخي

أبو علي شقيق بن إبراهيم الأزدى من أهل بلخ ، التقى برابعة في البصرة وكان كثير السياحة . ويحكى أنه ذهب لزيارة رابعة بصحبة مالك بن دينار والحسن البصري فتحدثوا عن الإخلاص ، فقال الحسن البصري : ليس بصادق في دعواه من لم يصبر على ضرب مولاه « فقالت رابعة : هذا غرور ! - وقال شقيق البلخي « ليس بصادق في دعواه من لم يشكر على ضرب مولاه » ، فقالت رابعة : هناك ما هو خير من هذا ! - فقال مالك بن دينار « ليس بصادق في دعواه من لا يتلذذ بضرب مولاه » ، فصاحت رابعة : هناك أفضل من هذا ! - فقالوا لها تكلمي أنت إذن ؟ فقالت رابعة « ليس بصادق في دعواه من لم ينس الضرب في مشاهدة مولاه ، مثل نسوة مصر اللائي نسين آلام أيديهن لما رأين وجه يوسف ! » .

والشكر إذن هو مقام البلخي فكما يقول هو نفسه : كنت رجلاً شاعراً فرزقني الله عز وجل التوبة ، وكنيت مرابياً ولبست الصوف عشرين سنة وأنا لا أعلم ، حتى لقيت عبد العزيز بن رواد فقال « يا شقيق ! ليس البيان في أكل الشعر ولا لباس الصوف والشعر . البيان المعرفة أولاً ، أنت تعرف الله عز وجل وتعبد له ولا تشرك به شيئاً ! والرضا عن الله عز وجل ثانياً . والثالثة تكون بما في يد الله أوثق منك بما في أيدي المخلوقين » . ولقد تحقق لشقيق البلخي كل ذلك ، أفلا يكون من الشاكرين ؟ وشكره ترجمة في حياته إلى عمل فكانت له - كما يروون عنه - ثلاثمائة قرية فوهبها جميعاً لله ، وخرج من ثلاثمائة ألف درهم ، فلما مات لم يكن له كفن يُكفَن فيه ! وقيل في سبب توبته أنه كان من أبناء التجار وخرج للتجارة إلى أرض الترك وهو حدث ، فدخل بيتاً للأصنام ، فرأى خادماً للأصنام فيه قد حلق رأسه ولحيته ولبس ثياباً أرجوانية ، فقال شقيق البلخي للخادم : إن لك صانعاً حياً عالماً فأعبد

ولا تعبدُ هذه الأصنام التى لا تضر ولا تنفع ! فقال له الخادم : إن كان كما تقول فهو قادر على أن يرزقك ببيلدك ، فلما تعنيت إلى هاهنا للتجارة ؟ فانتبه شقيق وأخذ في طريق الزهد ! وقيل غير ذلك من الروايات . والمهم أن شقيقاً كان همه منذ انتباهه وتوبته تحصيل المعرفة بالله ، يحصلها لنفسه ولغيره ، فكان متعلماً يقول للمشايخ علمونى ، وكان معلماً يدرّس علم الأحوال . واجتمع حوله الكثيرون وأبرزهم حاتم الأصم . وقيل إنه سافر معه فصحبه منهم ثلاثمائة مريد (يلفت انتباهنا العدد ثلاثمائة في حكايات شقيق) . وكان شقيق أستاذًا يميل إلى التصنيف والتبويب ، ويحب أن يرتب معارفه وينقلها إلى مريديه في شكل أولاً وثانياً وثالثاً ، ويقول سبعة أبواب يسلك بها طريق الزهاد ، ويقول أربعة أشياء إذا لم يعرفها المؤمن لم ينج من النار ، وثلاث خصال من عمل بها أعطاه الله الجنة وهكذا . والمعرفة عنده كما هى عند رابعة هى المعرفة بالله ، ويفصلها فيقول . إنها أولاً بالقلب واللسان والسمع وجميع الجوارح ، ثم هى معرفة النفس ثانياً ، ومعرفة أوامر الله ونواهيه ثالثاً ، ومعرفة عدو الله والنفس رابعاً . وتفسير معرفة الله هو أن تعرف بقلبك أنه لن يعطيك غيره ، ولا مانع غيره . ولا ضار غيره ، ولا نافع غيره . ومعرفة النفس هى أن تعرف أنك لا تنفع ، ولا تضر ، ولا تستطيع شيئاً إلا بإذن الله وتقديره . ومعرفة أوامر الله ونواهيه هى أن تعلم أن أمر الله عليك ، وأن رزقك عليه ، وأن تكون واثقاً بالرزق مخلصاً في العمل . أما معرفة عدو الله فهو أن تعلم أن ذلك عدو لا يقبل الله منك شيئاً بشأنه إلا المحاربة . والمحاربة في القلب هى أن تكون محارباً مجاهداً متعباً للعدو . وقد توفى شقيق محارباً ومجاهداً ومتعباً للعدو في معركة كولان من بلاد الترك سنة ١٩٤ هـ ، ويصف تلميذه حاتم استشهاداً أنه كان مع شقيق في ذلك اليوم الذى كانت الرؤوس تطير فيه ، والسيوف تقطع ، والرماح تقصف ، وكان شقيق يتنقل بين الصفوف ويسأل حاتم كيف ترى نفسك ؟ تراها مثل ما كنت في الليلة التى زفت إليك امرأتك ؟

والمعرفة التى يقول بها شقيق البلخي هى معرفة مستفادة بالعقل ، بينما معرفة رابعة تحصلتها بالوجدان . ومقام الشكر الذى أقام فيه شقيق أدنى بكثير من مقام المشاهدة الذى كان لرابعة . ومعرفة تحصلتها من هذا المقام ، ففى المشاهدة تتكشف للمحب عموماً صفات المحبوب ، ليس جملة وإنما صفة بعد صفة ، وكلما عرف منه واحدة طلب أن يعرف الأعلى منها ، لأن تجليات المحبوب لا آخر لها . وعلى قدر كمال المعرفة تكون لذة المشاهدة .

ويحرك الشوق المحب إلى تكميل معرفته بالمحبيب ، وشوقه لتحقيق هذا الكمال يؤلمه ولكنه الألم المبهج ، لأنه بالمشاهدة يتنعم بجمال المحبوب . وفي مقام المشاهدة يعز الكلام ويلهج اللسان مع ذلك بما يستطيع من وصف للجميل ولذة مشاهدته ، وكانت رابعة لذلك شاعرة وشعرها ينبض بالمحبة ، والمحبة مقام جامع وأصل كل المقامات والأحوال . وبلغت رابعة في المحبة الغاية فكانت العاشقة التي تجد ، وفي العشق كان فناؤها ، ولقد فنيته في المشاهدة التي قالت بها فلم تعد تسمع إلا لله ، ولا تبصر إلا به ، ولا تدرك إلا له ، فأين ذلك من مقام شقيق ؟

مساكين المحبين الحيارى	تراهم مطلقين وهم أسارى
وتحسبهم صحاةً من مُدام	وهم من خمر عشقهم سُكـارى
إذا ذُكِرَ الحمى حنّوا إليه	بأرواح مـولها حيارى
لقد سكن الهوى لهم قلوباً	وقربها فأعدمها القرارى

٩ - إبراهيم بن أدهم

تقول الرواية إن إبراهيم بن أدهم قد أمضى أربعين سنة ليبلغ الكعبة ، لأنه كان في كل خطوة يصل ركعتين ، وكان يقول « غيرى يسلك هذا الطريق على قدميه ، أما أنا فأسلكه على رأسى » . وبعد أربعين سنة بلغها فلم يجدها في مكانها ، فقال نائحاً : وأسفاه ! أصرت أعمى حتى لا أرى الكعبة ؟ فسمع صوتاً يقول : يا إبراهيم ! لست أعمى ، لكن الكعبة قد ذهبت للقاء رابعة ! فتأثر إبراهيم ، ثم رأى الكعبة قد عادت مكانها ، وأبصر رابعة تتقدم مستندة إلى عصا : أى رابعة ! هكذا قال لها - « ما أجل عملك ! وما الضجة التي تحدثينها في الدنيا ! الكل يقولون : ذهبت الكعبة للقاء رابعة ! » فأجابته رابعة : يا إبراهيم ! أية ضجة تحدثها أنت في الدنيا بأنك أمضيت أربعين عاماً حتى بلغت هذا المكان ؟ لأن الكل يقولون . إبراهيم يتوقف كل خطوة ليصل ركعتين . فقال إبراهيم : نعم ! لقد أمضيت أربعين سنة في اختراق

هذه الصحراء ! فأجابت رابعة يا إبراهيم ! أنت جئت بالصلاة وأنا جئت بالفقر ! - وبكت طويلاً ، وبعد أن زارت الكعبة عادت إلى البصرة ، وفي وثبة من قلبها صاحت : إلهي ! وعدت بجزئين لشيئين : القيام بالحج والصبر على الشدائد ، فإذا لم يكن حجي صحيحاً عندك ، فما أكبرها مصيبة عندي ! لكن ما جزاء هذه المصيبة ؟

والرواية كما صاغها المؤرخون تربط بين رابعة وإبراهيم بن أدهم ، وكلاهما قمة من قمم التصوف ، وترمز فيها الكعبة إلى الحضرة الإلهية ، وتشير إلى طريقة العبادة لبلوغ هذه الحضرة ، وهي طريقة إبراهيم بن أدهم ، فلكي يصل كان عليه أن يعاني المشاق « على رأسه » كما يقول ، بينما غيره يسلك مفازة الصحراء إليها على قدميه ، فطريقة إبراهيم هي الأعرس ، وقد اختارها رغم ذلك واستنفدت عمره كله ، المرموز له بأربعين سنة من الصلاة والسير على الدرب « على رأسه » ، أى على غير ما اعتاد الناس . وأما رابعة فطريقها هو القبول والرضا من الله عز وجل ، وهو المحبة ، فمن أحبه الله كان بصره بيده (الحديث) . والكعبة أى الحضرة هي التي تذهب إلى رابعة ، وهذا غاية الكرم من رب الكعبة ، وهدية الله إلى أحبائه ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

وكانت رابعة رأس المحبة ، وتكلم إبراهيم في المحبة ، ومن ذلك قوله : إن العباد لو علموا حب الله لقل مطعمهم ومشربهم وملبسهم وحرصهم ، وذلك أن ملائكة الله أحبوا الله فاشتغلوا بعبادته عن غيره ، حتى أن منهم قائماً وراكعاً وساجداً منذ خلق الله تعالى الدنيا ، ما التفت إلى مَنْ عن يمينه وشماله ، اشتغلاً بالله عز وجل ، وبخدمته ، فالمحبة عنده تعنى الاشتغال بعبادته تعالى ، والمحبة عند رابعة تعنى أن تجعله في فؤادها ، فإذا نطقت كان حديثها ، وإذا سكنت كان غليلها . وإبراهيم إذ يبلغ الكعبة فيفتقدها ينوح ، وهو يبحث عنها في الكعبة البناء ، أى في العبادات والطقوس ، ورابعة لا تريد الكعبة الحجر ، لأنها مغايرة لطبيعتها ، فحجرية الكعبة تقابلها لبنية رابعة ، أى أنها من لبن بما يعنى إنسيثها ، ورابعة لا تريد الكعبة الحجر ، ولا ترغب في الطقوس ، وإنما تريد أن تشاهد وجه الله ، ومن أجل ذلك تقول في نص آخر « لا أريد الكعبة بل رب الكعبة ، أما الكعبة فماذا أفعل بها » ، وفي نص ثالث تقول عن الكعبة « إنها الصنم المعبود في الأرض ، والله ما ولجه إله ولا خلا منه » . ولم تشأ رابعة أن تنظر إلى الكعبة من بعد ذلك ، وعادت إلى البصرة ، وأقامت في خلوتها ، وانقطعت بكامل نفسها إلى حضرتها مع الله تعالى .

وإبراهيم بن أدهم كان شرع الرسول ﷺ ونهجه ، والروايات في حياته أكثر من أقواله ، وحياته هي التي حَيَّرت فيه المستشرقين ، ووجدوا فيها شبهاً بحياة جوتاما بوذا صاحب البوذية ، وأنشئت حولها الكثير من القصص الأدبي كقصة الأمير الشحاذ . ويحكى إبراهيم عن أول أمره فيقول أن أباه كان من أهل بلخ وملوك خراسان ، ومن المياسر ، وحبب أولاده في الصيد . وفي يوم خرج إبراهيم راكباً فرسه وكلبه معه ، فبينما هو كذلك إذ ثار أرنب أو ثعلب فحرك إبراهيم فرسه وراه ، فسمع نداء من خلفه يقول . ليس لذا خُلِقْتَ ولا بذأ أُمِرْتَ ! فتوقف ينظر يمناً ويسرة ، فلم ير أحداً ، فقال في نفسه لعن الله إبليس . وحرك فرسه ، فإذا بالصوت يأتيه مرة أخرى أجهر من الأولى : يا إبراهيم ! ليس لذا خلقت ولا بذأ أُمِرْتَ ! فتنبه وقال : أَنْبَهُتُ ! أَنْبَهُتُ ! جاءني نذير من رب العالمين ! والله لا عصيت الله بعد يومى ذا ما عصمتى ربى ! ورجع إبراهيم إلى أهله فخلّى عن فرسه ، ثم جاء إلى أحد الرعاة لأبيه فطلب منه جبة وكساء مما يضعه الرعاة ، وألقى عنه ثيابه ، وارتحل على قدميه ، أرضُ ترفعه وأرضُ تضعه ، وهذا ما كان من أوائل أمره وخروجه .

وفي رواية أخرى أنه وهو على فرسه يُركضه ، إذ سمع صوتاً من فوقه . يا إبراهيم ! ما هذا العبت ؟ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ اتقِ الله ، وعليك بالزاد ليوم الفاقة . فنزل عن دابته ورفض الدنيا وأخذ في عمل الآخرة .

وفلسفة إبراهيم تكاد تقرب من رابعة في مواضع ، فهو يقول في الجنة . « اللهم إنك تعلم أن الجنة لاتزن عندى جناح بعوضة ، إذا أنت أنستنى بذكرك ، ورزقتنى حبك ، وسَّهلت على طاعتك ، فاعطِ الجنة لمن شئت » . أو يقول « اللهم إنك تعلم أن الجنة لاتزن عندى جناح بعوضة فما دونها ، إذا أنت وهبت لى حبك ، وأنستنى بمذاكرتك ، وفرغتنى للتفكر في عظمتك » ، وتقول رابعة « إلهى ! إذا كنت أعبدك خوف النار فاحرقنى بنارها ، أو طمعاً في الجنة فحرّمها على ! وإذا كنت لا أعبدك إلا من أجلك فلا تحرمنى من مشاهدة وجهك » . وقيل لها يوماً كيف شوقك إلى الجنة ؟ فقالت : الجار قبل الدار .

وتجمع الرواية بين إبراهيم بن أدهم ورابعة كما رأينا فيما سبق من أبواب ، وتجمعه أيضاً بمتصوفة أخرى قيل اسمها ميمونة السوداء . ويحكى إبراهيم أنه رأى في المنام كأن قائلًا يقول له إن ميمونة السوداء زوجتك ، وذلك نفسه ما يحدث لعبد الواحد بن زيد ،

وقد سبق أن قدمنا لذلك فيما أوردناه عن ذلك الزاهد العابد ، فالمشاهد والمعاني واحدة وإن اختلفت الألفاظ ، والقصة من الأدب الرمزي ، والبيئة التي تجرى عليها مع ابن زيد هي البصرة ، بينما هي مع إبراهيم بيئة الشام ، مع مناسبة الشعر فيهما لابن زيد أو ابن أدهم ، بحسب مقام كل منهما وباعه في التصوف . ففي القصيدة الأولى نقرأ كلمات مثل الوعظ والزجر والمحبة وهي من مفردات أليق بابن زيد ، وفي القصيدة الثانية نعثر على ألفاظ ومصطلحات مثل قلوب العارفين وسر النجوى وشراب الصدق ، وهي الأنسب لابن أدهم . وأما أن ميمونة في الحاليتين سوداء ، وأنها في الجنة زوجة لهذا أو لذاك من الأولياء ، فقد تكون الإشارة للظاهر والباطن أو الشريعة والتصوف ، وأما أن الخراف ترعى مع الذئاب فقد يكون المعنى مصالحة التصوف على الشريعة ، أو توافق الظاهر والباطن ، أو كما تقول ميمونة أصلحت ما بيني وبين الله فأصلح هو ما بين الذئاب والغنم .

★★★

١٠ - ذو النون المصري

اسمه ثوبان بن إبراهيم ، وأطلقوا عليه ذا النون ، لأنه كان كالنبي يونس سواحلياً كثير السباحة بالبحر ، وله حكايات مع أهل البحر ، ولقبوه بأبي الفيض فقد كانت له مواهب فيضية وتحدث في الطريق وله فيه تعاليم . ويبدو أنه كما قيل أول من قعد وأصلح مصطلحاته وبين معارفه . وله لسان في المعرفة وفي المحبة ، وكلامه معظمه يدور حول الألفة والهوى والوله والوداد والأنس والشوق ، واللذات والذكر ، والوصال والعشق ، ولغته هي لغة القلوب والعيون والعبرات والجفون والصبابة والحب والمحبة والمحبين ، ولقاءاته في أغلب ما يحكى تتم على خلفية من الطبيعة ، فيقول : كنت في جبال الشام ، أو تيه إسرائيل ويقصد سيناء ، أو صحراء العرب ، أو بلاد النوبة ، أو برية مندرة ، أو على شط نيل مصر ، أو بين أشجار الشام ، أو في البحر ، أو على ساحل بحر الشام ، أو في جبال بيت المقدس ، أو على ساحل البحر عند صخرة موسى ، أو في جبال أنطاكية ، ولقاءاته مع النساء بخاصة كثيرة جداً ، ورواياته بهذا الخصوص لاتعد ، وهن دائماً من العابدات ، وحديثهن لا يكون إلا في المحبة ، وتجرى هذه اللقاءات على خلفية طبيعية يصف فيها الليل والسماء والماء ،

وربهة القفر ووحشة الجبال ، والألوان تستهويه ، ومن ذلك خضرة الشجر ، وسواد الليل وبياض النهار ، ودُكّة الجبال ، وصفرة الصحراء ، والناس عنده سود البشرة أو بيض ، والأصوات يلوّنها الحزن والشجن ، والقلوب تحرقها اللوعة ودائمة الأنين . وأحصيت له في سيرته في حلية الأولياء لقاءه بعشرة نسوة ، وحديثه كثير عن الشهوات واللذات ، وإذا تحدث في الذنوب اختص منها بالذات ذنوب النظرة ، ومن النظرة الخطرة ، فإذا تداركنا الخطرة بالرجوع إلى الله ذهب ، وإن لم ندركها امتزجت بالسواوس فتتولد منها الشهوة ، ويقول : إن هذه العمليات النفسية الجسمية تتم في الباطن ولم تظهر بعد على الجوارح ، وما لم نتدارك الشهوة يتولد منها الطلب ، وما لم نتدارك الطلب يتولد عنه الذنب ، والصوفية دائماً ينبهون إلى أن ما نذكره كثيراً ونخوض فيه مراراً دليل انشغال أكيد به ، وكأن انشغال ذى النون إذن بالجنس ، ولكنه يتسامى به كما نقول في التحليل النفسى ، فيوجه طاقاته الليبيدية إلى الحديث في المحبة والانفعال بمطلق المحبة ، ولغته فيها لغة العارف ، والفرق بينه وبين رابعة في مجال المحبة أن رابعة تحب كأنثى وتعانى فعلاً وتبلغ في حبها الغاية وهو العشق . والمحبة ألصق بالنساء ، بينما ذى النون أستاذ ومعلم ، فهو يعرف المحبة ويبين علاماتها ، ويصف أهلها ، ويصنّف مراتبها ، وينعتها في أحوالها ، ويعدّد مقاماتها .

وكان لقاء ذى النون برابعة كلقائه بغيرها من الجوارى من أهل المحبة والهوى والجوى والصباية والعشق ، يقول تلميذه سعد بن عثمان : كنت مع ذى النون المصرى رحمه الله في تيه بنى إسرائيل ، وإذا بشخص قد أقبل فقلت : يا أستاذ ! شخص قد أتى . فقال لى . أنظر من هو ، فإنه لا يضع أحد قدمه في هذا المكان إلا صديق ، فنظرت فإذا هى امرأة فقلت : إنها امرأة ؟ فقال صديقة ورب الكعبة ! فابتدر إليها وسلم عليها فقالت : وما للرجل ومخاطبة النساء ؟ فقال : أنا أخوك ذى النون ولست من أهل التهم ، فقالت : مرحباً ! حيّاك الله بالسلام ! فقال : ما حملك على الدخول في هذا الموضع ؟ فقالت : آية من كتاب الله عز وجل - قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ فلما دخلت إلى موضع لم يهنئى القرار فيه بقلب قد أبْهَلَتْهُ شدة المحبة ، وهام بالشوق إلى رؤيته . فقال لها : صفى المحبة ! فقالت : سبحان الله ! أنت عارف بها وتتكلم بلسان المعرفة ، وتسألنى عنها ؟ فقال لها : للسائل حق الجواب . فقالت : نعم ، والمحبة عندى لها أول وآخر فأولها لهج القلب بذكر المحبوب ، والحزن الدائم والتشوق اللازم ، فإذا صار إلى أعلاها شغله

وجدان الخلوات عن كثير من أعمال الطاعات ... ثم أخذت في الزفير والشهيق وأنشأت تقول :

أحببك حبين : حبيب الهوى	وحبباً لأنك أهل لذاكـا
فأما الذى هو حب الهوى	فذكر شغلت به عن سواكـا
وأما الذى أنت أهل له	فكشفك الحجب حتى أراكـا
فما الحمـد فى ذا ولا ذاك لى	ولكن لك الحمـد فى ذا وذاكـا

وفى رواية أخرى قال ذو النون : بينما أنا أسير على ساحل البحر إذ بصرت بجارية عليها أظمار شَعْر ، وإذا هى ناحلة ذابلة فدنوت منها لأسمع ما تقول ، فرأيتها تنظر إلى السماء ، متصلة الأحزان بالأشجان . وعصفت الرياح فاضطربت الأمواج وظهرت الحيتان ، فصرخت ، ثم سقطت إلى الأرض ، فلما أفاقـت قالت تناجى الله : ياسيدى ! لك تقرب المتقربون فى الخلوات ، ولعظمتك سبحت الحيتان فى البحار الزاخرات ، ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات ، أنت الذى سجد لك سواء الليل وضوء النهار ، والفلك الدوار ، والبحر الزخار ، والقمر النوار ، والنجم الزهار ، وكل شىء عندك بمقدار ، لأنك الله العلى القهار :

يامؤنس الأبرار فى خلواتهم	ياخير من حلت به النـزال
من ذاق حبك لا يـزال متيماً	فـرح الفـؤاد متيماً بلبـال
من ذاق حبك لا يـرى متبسماً	من طول حزن فى الحشا إشعال

فقلت لها : زينا من هذا ! فقالت : إليك عنى ! ثم رفعت طرفها إلى السماء وقالت :

أحببك حبين : حبيب الهوى	وحبباً لأنك أهل لذاكـا
فأما الذى هو حب الهوى	فذكر شغلت به عن سواكـا
وأما الذى أنت أهل له	فكشفك الحجب حتى أراكـا
فما الحمـد فى ذا ولا ذاك لى	ولكن لك الحمـد فى ذا وذاكـا

ثم شهقت شهقة فإذا هي قد فارقت الدنيا ، فبقيت أتعجب مما رأيت منها ، فإذا بنسوة قد أقبلن ، عليهن مدارع الشعر ، فأحتملنها فغيبنها عن عيني ، فغسلنها ثم أقبلن بها في أكفان ، فقلن لى : تقدّم فصلّ عليها ، فتقدمت وصليت عليها وهن خلفى ، ثم أحتملنها ومضين .

ومن رأى الدكتور بدوى أن هذه القصة أسطورية إن قصد بهذه المرأة رابعة كما هو ظاهر من شعرها ، وذلك أن ذا النون المصرى إنما ولد حوالى سنة ١٨٠ هـ ، أى فى الوقت الذى توفيت حوالى رابعة ، فهنا استحالة تاريخية إذن ، وإنما هى من تلك الأفاصيل الشائعة عند مؤرخى الصوفية للربط بين كبار الشخصيات فى التصوف ، حتى ولو لم يتفق هذا مع الإمكان التاريخى ، ومن شعروا بهذه الاستحالة التاريخية سرعان ما راحوا يزيقون فى التواريخ نفسها حتى ييسروا هذا التلاقى ، والعلّة فى هذا الحرص الشديد على الربط واللقاء ، هو تواتر السند بحيث يتصل الإسناد الحى ، لأن فى اتصاله ضماناً لصدقه ورفعاً للذاتية فيه ، كما هو شأن الروح العربية فى تصوراتها ، ففى النبوة تحرص على التسلسل الطولى بحيث يكون الأنبياء جميعاً سلسلة واحدة متصلة الحلقات ، تأخذ قوامها الحق لا عن أفراد الأنبياء تفاريق ، بل عن وحدة التسلسل فيها مجتمعين . وفى الرواة المحدثين ، وفى الإجازات فى مختلف مرافق الحياة الدينية ، فهذا هو الذى يفسر لنا وجود هذه الظاهرة الغذة فى عالم الروح العربية ، ظاهرة الحرص الشديد على الإسناد التاريخى الحى المتصل ، أعنى أن العلة هى القضاء على الذاتية وتوكيد التسلسل حتى يتصل بالكلمة العليا ، ولذا نرى الإجازة الحقيقية أو الإسناد الحق لا بد أن ينتهى بالنبى أو الملك الصادر مباشرة من الله فى خاتمة المطاف . ولعل من أوضح الشواهد وأغربها فى هذا الباب فكرة المصافحة وتسلسلها التاريخى حتى تنتهى بالنبى ، والرسائل عديدة فى موضوع المصافحة مما يدل على مدى الاهتمام الشديد بالفكرة عينها ، إنما تفيد فى بيان الفكرة التى كانت لدى أولئك المؤرخين الذين ابتدعوا القصة عن نظرية الحب منسوبة إلى رابعة بوصفها أول من تحدث عنها ، ولذا كانت أجدر الناس بأن يتلقى عنها معانى المحبة ، فإذا كان فى تقدير الصوفية أن رابعة هى التى لقنت الناس مذهب المحبة فمن يتكلم بعدها عن المحبة يجب أن يأخذ عنها حتى تكون معرفته بها كاملة ، لهذا نرى أن الذين وضعوا هذه القصة إنما أرادوا خصوصاً أن يرفعوا من شأن ذى النون بأن يجعلوه يتلقى علم المحبة عن صاحبة هذا العلم الأولى : رابعة .

وكل ما ذكره الدكتور بدوى كان يمكن أن يكون صحيحاً لو لم تكن هناك مراجع تزعم أن ذى النون وُلِدَ سنة ١٥٧ هـ (أنظر ابن الملقن طبقات الأولياء) فإذا كانت رابعة قد توفيت نحو سنة ١٨٠ أو ١٨٥ هـ فمعنى ذلك أن يكون ذى النون قد التقى برابعة على الحقيقة ، وخاصة إذا علمنا أن ذا النون كان كثير التنقل ، وكان لقاؤه بغير أهل بلده من الكثرة حتى أنهم أطلقوا عليه اسم المصرى ، وأنه سافر إلى غزة ، والشام والبصرة ، وبغداد وجدة ، ومكة ، والمدينة ، ومدن أخرى ، ولعل تلك الأسفار وإقباله على الالتقاء بالصوفية أنى وجدوا ، هو الذى أشهره بينهم ، فلما عرفوه اطلعوا على فكره وتبين لهم فضله ، فقال فيه الجامى إنه هو رأس هذه الفرقة أى الصوفية ، فالكمل قد أخذ عنه وانتسب إليه ، ولقد كان المشايخ قبله ولكنه أول من فسّر إشارات الصوفية وتكلم في هذا الطريق . ويذكر أبو المحاسن أن ذا النون كان أول من تكلم في مصر في الأحوال ومقامات أهل الولاية . ويذكر له العطار صاحب تذكرة الأولياء تعريفات لكلمة العارف والمعرفة تملأ نحواً من صفحتين . ومما يؤثر له أنه أول من وضع تعريفات للوجد والسماع . وقال عنه القشيري أنه أول من عرّف التوحيد بالمعنى الصوفى . ويقول المستشرق نيكلسون أن ذا النون - وليس أبو اليزيد البسطامى - كان له أكبر الأثر في تشكيل الفكرة الصوفية . وإذن فلربما يمكن القول أن القصة قد لا تكون مختلفة ، وخصوصاً أن ما يطعن في زعم الدكتور بدوى من أن المؤرخين ابتدعوا القصة لينسبوا مذهب المحبة لرابعة ويرفعوا من شأن ذى النون كمتلقٍ عن رابعة - أقول إن ما يطعن على هذا الزعم أن الرواة جهلوا المرأة ، وكان الأجدر بهم أن يذكروا أنها رابعة صراحة - وكذلك لا يطعن في نسبة الأبيات لرابعة أن الراوى لم ينسبها إليها فالأبيات لرابعة فعلاً بشهادة كل المؤرخين ، وتفسيرنا لتجهيل المرأة في هذه الرواية أنها ربما لم تكن رابعة وكانت إحدى المتصوفات التى تحفظ عن رابعة وتنهج نهجها .

وفي السيرة التى يوردها أبو النعيم لذى النون أنه في جبال أنطاكية ، إذا بجارية كأنها مجنونة ، وعليها جبة صوف ، فسلم عليها ، فردّت السلام ، فقالت : ألسنت ذا النون المصرى ؟ فسألها كيف عرفتني ؟ فقالت : فتق الحبيب بينى وبين قلبك ، فعرفتك باتصال حب الحبيب . ثم قالت : أسألك مسألة ؟ قلت : سلىنى . قالت : أى شىء السخاء ؟ قلت : البذل والعطاء . قالت : هذا السخاء في الدنيا ، فما السخاء في الدين ؟ قلت : المسارعة في طاعة المولى . قالت : فإذا سارعت إلى طاعة المولى تحب منه خيراً ؟ قلت : نعم . قالت : المسارعة إلى

طاعة المولى أن يطّلع إلى قلبك وأنت تريد منه شيئاً بشيء . ويحك ياذا النون ! إنى أريد أن أقسم عليه في طلب شهوة منذ عشرين سنة فأستحي منه مخافة أن أكون كأجير السوء ، إذا عمل طلب الأجر ، لكن أعمل تعظيماً لهيئته وعز جلاله !

والسؤال عن السخاء وطلب الشهوة التى تعتمل في النفس منذ مدة ولم تتحقق ، والاستحياء من الله ، وأجير السوء ، والعمل لعظمته وهيئته ، كل ذلك نصادفه في الروايات عن رابعة مع صوفية آخرين غير ذى النون ، ولا تقتصر على ذى النون .

ويلتقى ذو النون بامرأة في بعض مسيراته تسأله من يكون ؟ فيشكو لها الغربة ، فتقول : وهل توجد مع الله أحزان للغربة وهو مؤنس الغرباء ومعين الضعفاء ؟ !

ثم يلتقى ذو النون بجارية على شاطئ النيل تدعو ربها تقول : يا من هو عند اللسن الناطقين ، يا من هو عند قلوب الذاكرين ، يا من هو عند فكرة الحامدين ، يا من هو على نفوس الجبارين والمتكبرين ، قد علمت ما كان منى يا أهل المؤمنين ! ثم صرخت صرخة خرّت مغشياً عليها .

ويحكى أيضاً ذو النون عن امرأة سوداء في سواد نيل مصر ، ويقصد ربما من السودان ، تناجى ربها بأحسن وأعذب الكلام ، ثم امرأة خامسة وسادسة إلخ ، ومنهن واحدة التقى بها في الكعبة وكانت تبث الله لواعج حبها .

دَوَّقَتْنِي طَيْبُ الْوَصَالِ فزِدْتَنِي شَوْقًا إِلَيْكَ مَخَامِرُ الْحَسَرَاتِ
وتقول :

رَوَّعَتْ قَلْبِي بِالْفِرَاقِ فلم أجِدْ شَيْئاً أَمَرَّ مِنَ الْفِرَاقِ وَأَوْجَعاً
حَسِبَ الْفِرَاقُ بَأَن يَفْرُقَ بَيْنَنَا وَأَطَالَ مَا قَدْ كُنْتُ مِنْهُ مَوْدَعاً

وقالت : يا ذا النون ! أما علمت أن الشوق يورث السقم ، وتجديد التذكار يورث الأحزان ؟ وأنشأت تقول :

لم أذُقْ طَعْمَ وَصْلِكَ حَتَّى زَالَ عَنِّي مَحَبَّتِي لِـلْأَنَامِ

وقالت :

نَعَمْ المحبُّ إذا تزايد وصله وعَلَّتْ محبته بعقب وصل

وكل هذه الروايات وغيرها عن نساء لم تُذكر أسماءهن ، وأحسب لذلك أن المرأة التي أنشدت أبيات رابعة فإنما كانت تنشدها مما تحفظه من الشعر عن المحبة .

وذو النون نفسه شاعر ، وله القصائد والأبيات في المحبة كأجمل ما يكون الشعر في هذا المجال ، إلا أنها مع ذلك ليست على مستوى شعر رابعة ، حيث نستطيع أن نميز في شعرها أنها تتحدث عن تجربتها الحية ، وتقبس من مشاعرها ، وتطرح نفسها في سطور ، فتنبض الأبيات بصدق المحبة وحرارة الحب ، فأما شعر ذى النون فإنه لا يتحدث فيه عن نفسه بقدر ما يجعل من تجربته تجربة إنسانية عامة تصلح لكل أحد في مثل حاله ، وفي كل عصر ومصر ، فقد كان ذو النون مشغولاً بالتعليم وأن يكون له المريدون ، فلما توفى في جيزة مصر سنة ٢٤٥ هـ ، حُمل على قارب مخافة أن ينقطع الجسر من كثرة الناس مع جنازته ، ورأى الناس طيوراً خضراء ترقرف على جنازته حتى وصلت إلى قبره رضى الله عنه .

★★★

وبعد ... فلعل هذه السياحة في عالم رابعة قد شارفت على غايتها ، وقد أتاحها كتاب الدكتور عبد الرحمن بدوى « رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهي » . والكتاب من الكتب المثيرة للكثير من الجدل ، والمهم أن الدكتور بدوى كان فيه رائداً ، وأفكاره فيه مبدعة وأصيلة وإن اختلفنا معه فيها .

وتظل رابعة العدوية بسيرتها وأفكارها وأقوالها نبعاً ثراً لبحوث مستقبلية ، وكشوف عظيمة ، نتوقعها من فلاسفة مسلمين وغير مسلمين ، ومتصوفة من كل أنحاء العالم ، فرابعة بما آمنت به ، ووهبت حياتها من أجله ، ملكٌ لكل الناس ، في كل العصور والأمصار ، رضى الله عنها وأرضاها

عبد المنعم الحفني

★★★

المراجع التي ورد ذكرها في الكتاب

- رابعة العدوية · شهيدة العشق الإلهي للدكتور عبد الرحمن بدوي .
- الطبقات · لابن الملقن .
- الأعلام · الزركلي .
- الروض الفائق في المواعظ والرقائق : الحريفيش .
- شذور العقود : لابن الجوزي .
- وفيات الأعيان · لابن خلكان .
- إتحاف السادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين . الزبيدي .
- قوت القلوب . للمكي .
- الرسالة . للقشيري .
- التعرف . للكلاباذي .
- عوارف المعارف · للسهروردي .
- الرسائل والمسائل . لابن تيمية .
- صفة الصقوة : لابن الجوزي .
- مصارع العشاق : للسراج .
- طبقات الأولياء : للمناوي .
- نفحات الأنس من حضرات القدس . لعبد الرحمن جامي .
- شذرات الذهب . لابن العماد الحنبلي .
- سير السالكات المؤمنات الخيرات : لأبي بكر الحصني .
- سير أعلام النبلاء : لشمس الدين الذهبي .
- شرح حال الأولياء · لعز الدين بن عبد السلام .
- شفاء السائل لتهديب المسائل : لعبد الرحمن بن خلدون .
- تفسير المنار .
- إحياء علوم الدين . للغزالي .
- روض الرياحين عن مناقب الصالحين · لابن أسعد .

- روضة التعريف بالحب الشريف : لابن الخطيب .
- حلية الأولياء : للأصبهاني .
- تذكرة الأولياء : لفريد الدين العطار .
- دائرة معارف القرن العشرين .
- دائرة المعارف الحديثة .
- دائرة المعارف الإسلامية .
- البداية والنهاية . لابن كثير .
- الحب الإلهي في التصوف الإسلامي . للدكتور محمد مصطفى حلمي .
- رابعة العدوية . محمد زكي عبد الرحمن .
- رابعة العدوية . سميع عاطف الزين .
- رابعة العدوية بين الغناء والبكاء : الدكتورة سعاد على عبد الرازق
- الموسوعة الصوفية . لچون فرجسون
- The Mystic Encyclopedia, : J. Ferguson. .
- دائرة المعارف البريطانية
- Encyclopedia Britannica. vol. 9 .
- رابعة العدوية وأصحابها الصوفية : لمرجريت سميث
- M. Smith : Rabbi'a The Mystic and Her Fellow - Saints .
- رابعة العدوية : لمحمد قمر الدولة نصر .
- رابعة العدوية : لمحمد زكي عبد الرحمن .
- رابعة العدوية . طه عبد الباقي سرور .
- رابعة العدوية . ليسرى الجندي .
- المتصوفة عبيدة : لمحمد شوقي .
- كشف المحجوب : للهجویری .
- التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع : المالطی
- Simone De Beauvoir : Le Deuxieme Sexe .
- Handbook of Parapsychology : Wolman .
- Teresa De Jesus : Libro de la Vida .

الفهرس

* مقدمة الطبعة الثانية ص ٧

* مقدمة الطبعة الأولى ص ٩ ، وتشمل :

في أسباب الكتابة عن رابعة وعلاقة ذلك بكتاب الدكتور عبد الرحمن بدوى « رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهى » ، ثم قوله بأن رابعة أوغلت في الإثم وأنها ثابتة ، ومنهج الاحتمالات والترجيح ، والتأويل المسرف عنده ، وعلاقة كتابه بمذهبه في الوجودية .

* الفصل الأول : رابعة في كتابات الشرق والغرب — أولاً في الشرق ص ١٣ : عند الجاحظ في الحيوان والبيان والتبيين ، وفي طبقات ابن الملقن ، وعند الزركلى في الأعلام ، وفي كتاب الروض الفائق للحريفيش ص ١٤ ، وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ص ١٧ ، ورسالة القشيري ، وتعرف الكلاباذي ص ٢٢ ، وقوت القلوب للمكي ، وعوارف المعارف للسهروردي ، وطبقات الشعراني ، ومجموعة رسائل ابن تيمية ، وصفة الصفوة لابن الجوزي ص ٢٥ ، ومصارع العشاق للسراج ، وطبقات الأولياء للمناوي ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، ونفحات الأنس لجامي ، وشذرات الذهب لابن العماد ، وسير السالكات للحصني ، وسير أعلام النبلاء للذهبي ، وشرح حال الأولياء لعز الدين بن عبد السلام ص ٣٤ ، وشفاء السائل لابن خلدون ، وتفسير المنار ، وإحياء علوم الدين للغزالي ، وروض الرياحين لليافعي ، وروضة التعريف لابن الخطيب ، وحلية الأولياء للأصبهاني ، وتذكرة الأولياء للعطار ، ودائرة المعارف للبستاني ، ودائرة معارف القرن العشرين ، ودائرة المعارف الحديثة ، ودائرة المعارف الإسلامية ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، والبداية والنهاية لابن كثير ص ٥٥ ، والحب الإلهي في التصوف للدكتور محمد مصطفى حلمي ، والحياة الروحية للإسلام لطفه عبد الباقي سرور ، والشيخ مصطفى عبد الرزاق ، ورابعة العدوية لمحمد زكي عبد الرحمن ، ورابعة العدوية لسميح عاطف الزين ، ورابعة العدوية بين الغناء والبكاء للدكتورة سعاد عبد الرزاق . ص ٦٣ .

وثانياً في الغرب : في الموسوعة الصوفية لغيرجسون ، ودائرة المعارف البريطانية ، ورابعة العدوية وأصحابها من الصوفية لمرجريت سميث . ص ٦٥

❖ الفصل الثاني : رابعة بين الأسطورة والحقيقة . ص ٦٩

❖ الفصل الثالث : فلسفة الوجود الفردى متحققة في الصوفية وفي رابعة بالذات : مذهب الدكتور بدوى الوجودى وتطبيقه على حال رابعة - رأى الدكتور في الكرامات والرد عليه من علم النفس الباراسيكولوجى - تشابه تحليل الدكتور بدوى وسيمون دى بوفوار ، والإحالة عندهما إلى تريزا - مقارنة رابعة بالقديس بولس والقديس أوغسطين . ص ٧٥

❖ الفصل الرابع : محبة الله في الإسلام وفي المسيحية والفرق بينهما ، ومعنى الفناء عند رابعة ، والاتحاد عند المسيحيين وعلاقته بالله الإبن . ص ٨٧

❖ الفصل الخامس : تريزا الأفييلية ورابعة العدوية - خطأ الدكتور بدوى في الاسم - فلسفة تريزا واختلافها عن فلسفة رابعة - حياة تريزا من الطفولة وقراءاتها ، ومعنى التوبة عندها وعند رابعة ، واستخدام رابعة لكلمات تتصل بالزواج ، والقران الروحى عند تريزا . ص ٩٣

❖ الفصل السادس : لغة التصوف عموماً ، وعند رابعة وتريزا خصوصاً - كراهية الدكتور بدوى للتصوف وبُعْدُ تفسيراته للنصوص - الأدب الصوفى النسائى ولغة التصوف عند المتصوفات المسلمات . ص ١٠٣

❖ الفصل السابع : رأى العلم في إمكان توبة الآثمة وأن تكون من أولياء الله - رأى الطب النفسى - رأى كينزى - رأى ريتشارد سيمون - رأى فيليب سولومون - أنماط الشخصية والنمط المتدين - تخطئة الدكتور بدوى دينياً ، وحكم الدين فيمن يقذف المحصنات - الدكتور بدوى كان سبباً في انتشار الفكرة الخاطئة عن رابعة والفيلم الهابط عنها - أشعار الفيلم لطاهر أبو فاشا وغناء أم كلثوم وتلحين رياض السنباطى والموجى والطويل - كتاب سنينة قراة عن رابعة . ص ١١٩

❖ الفصل الثامن : رابعة في ضوء التحليل النفسى - مفتاح شخصية رابعة - أحوالها

الصوفية ومواصفاتها في الخوف والأنس والقبض والبسط والزهد والمحبة والعشق
والود والفناء . ص ١٣٣

❖ **الفصل التاسع :** قضية زواج رابعة ، والمحبة والخلة عندها ، والشطح المتهمة به -
مناقشة رأى الدكتور بدوى - ورأى الدكتورة سعاد عبد الرازق - ما يسمى نظرية
رابعة في الزواج - بشر بن الحارث والتجريد - أقوال أبى طالب المكى والحسن
البصرى وابن الجوزى - موسوعة أيزنك ومعنى عدم الزواج - معنى المحبة المعنوية
- القول في اقتران رابعة بالله على طريقة المسيحيين - معنى العشق الإلهى - الخلة
وتفسيراتها وأقوال للجنيد والبسطامى ، ونقد ابن عربى والمالطى . ص ١٣٩

❖ **الفصل العاشر :** معراج رابعة الروحى من أحوالها ومقاماتها - المعرفة والمحبة والألفة
والرضا - مناجياتها وتفسيراتها . ص ١٥١

❖ **الفصل الحادى عشر :** النقد الموجه لفكر رابعة ، ومسلكتها مع الثورى وابن زيد والبصرى
- القول فيها كروحانية ، أو إباحية حلولية متزندقة - تكفيرها من أقوالها في الجنة
والنار والكعبة . ص ١٥٩

❖ **الفصل الثانى عشر :** رجال ونساء حول رابعة . الحسن البصرى - عبدة بنت أبى شوال
- سفيان الثورى - مالك بن دينار - رياح القيسى - عبد الواحد بن زيد - حيونة -
شقيق البلخى - ذو النون المصرى - وعلاقة كل منهم برابعة ، ومناقشة ما قيل في
ذلك في ضوء تحليل أفكارهم وأفكار رابعة . ص ١٦٧

★★★

بعض كتب الدكتور الحفنى

- ١ - الموسوعة الصوفية : أعلام الصوفية والمنكرين عليهم والمؤيدين لهم .
- ٢ - المعجم الصوفى : الشامل لمفاهيم ومصطلحات وألفاظ الصوفية .
- ٣ - الإمام الفيلسوف حجة الحق الشاعر عمر الخيام والرباعيات .
- ٤ - فرق الشيعة للنوبختى والقمى : تحقيق ودراسة .
- ٥ - موسوعة الفرق والمذاهب والجماعات الإسلامية منذ البداية حتى جماعة الإخوان المسلمين وأنصار السنة والجهاد وغيرهم .
- ٦ - موسوعة أعلام علم النفس .
- ٧ - موسوعة مدارس علم النفس .
- ٨ - البراهين العقلية على وجود الله والرد على المنكرين والطبيعيين والملاحدين .
- ٨ - موسوعة الفلسفة .
- ١٠ - المعجم الفلسفى : عربى إنجليزى فرنسى ألمانى لاتينى .
- ١١ - القاموس اللاتينى للفلسفة .
- ١٢ - موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية .
- ١٣ - الفلسفة الوجودية .
- ١٤ - التعريفات للجرجانى - تحقيق .
- ١٥ - موسوعة علم النفس والتحليل النفسى .

- ١٦ - موسوعة : علم النفس في حياتنا اليومية .
- ١٧ - الموسوعة النفسية الجنسية .
- ١٨ - المعجم الموسوعي للتحليل النفسي .
- ١٩ - التحليل النفسي للأحلام .
- ٢٠ - تعبير الرؤيا - تحقيق عن أرطميدروس .
- ٢١ - تعبير المنام لعمر الخيام تحقيق .
- ٢٢ - موسوعة الطب النفسي (مجلدان) .
- ٢٣ - تفسير الأحلام لفرويد .
- ٢٤ - موسى والتوحيد لفرويد .
- ٢٥ - الحب والحرب والموت والحضارة لفرويد .
- ٢٦ - ليوناردو دافنشى لفرويد .
- ٢٧ - ما فوق مبدأ اللذة لفرويد .
- ٢٨ - أسطورة سيسيف لكامى .
- ٢٩ - المتمرّد لكامى .
- ٣٠ - الوجودية مذهب إنسانى لسارتر .
- ٣١ - الماركسية والثورة لسارتر .
- ٣٢ - عالم بلا يهود لماركس وسارتر وآخرين .
- ٣٣ - معنى الوجودية لجان قال .

- ٣٤ - جان بول سارتر . حياته وأدبه وفلسفته .
- ٣٥ - ألبير كامى : حياته وأدبه وفلسفته .
- ٣٦ - ثلاث مسرحيات لسارتر : سجناء ألتونا ، والشيطان والرحمن ، والممثل كين .
- ٣٧ - ثلاث مسرحيات لكامى . العادلون ، والحصاد ، وسوء تفاهم .
- ٣٨ - سيناريو فيلم الدوامة L' Engrenage لسارتر .
- ٣٩ - الأفواه اللامجدية لسيمون دى بوقوار .
- ٤٠ - البغى الفاضلة لسارتر .
- ٤١ - ملء قبضة من المطر لجازو .
- ٤٢ - مشهد من الشارع لرئيس .
- ٤٣ - جمهورية أفلاطون .
- ٤٤ - رجال وفئران لشتاينيك .
- ٤٥ - البوتقة لميلر .



هذا الكتاب

إن قصة رابعة العدوية لشي يستحق أن نقرأه ونحيط علماً به ، وقد كثر المؤلفون لها والمترجمون لحياتها ، ولكنهم لم يتعرضوا لسيرتها بالتحليل ، ولم يحصوا أخبارها ولعل أكبر إسهام في التنويه بها كان كتاب الدكتور عبد الرحمن بدوي ، رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهي ، ولكن هذا الكتاب من وجهة نظر الدكتور الحفنى كان أكبر إساءة لرابعة العدوية ، هذه الصوفية المتبثلة ، والناسكة الزاهدة . وقد آل الدكتور الحفنى أن يرد على الدكتور بدوي ويحلل اتهاماته لرابعة ، ويخضع حياتها للتحليل النفسى ، ويقارن بينها وبين القديسة تريزا على الحقيقة ، ويوضح الاختلافات الأساسية بين هاتين الشخصيتين المتميزتين فى تاريخ التصوف الإسلامى والمسيحى . وقد تناول الدكتور الحفنى بالنقد الشديد كتباً أخرى عن رابعة ، واعتبر قصة الفيلم التى قدمتها السينما المصرية عن هذه الصوفية إهانة بالغة تسبب فيها كتاب الدكتور بدوي السالف الذكر . وقدم معراج رابعة الروحى من أحوالها ومقاماتها ، وتحليلاً لسلوك الرجال والنساء من حولها فى علاقاتهم بها ، ومعانى الزواج والمحبة والعشق والخلة عندها ، ورأى العلم فى إمكان توبة الآثمة وأن تكون من أولياء الله ، وعرض لغة التصوف عموماً وتحليل هذه اللغة عند رابعة وتريزا ، والفرق بين محبة الله فى الإسلام والمسيحية . والمؤلف يرجو أن يكون بذلك قد قدم دراسة فلسفية موضوعية جادة لرابعة ودار الرشاد يسعدها أن تقدم هذا الكتاب كأول دراسة موضوعية فعلاً يعيداً عن الكتابات الإنشائية المعروفة فى مجال الكتابة عن التصوف عموماً ورابعة العدوية خصوصاً

الناشر



طبع . نشر . توزيع
دار الرشاد - القاهرة ٢٠٠٠ - ٢٠٠١